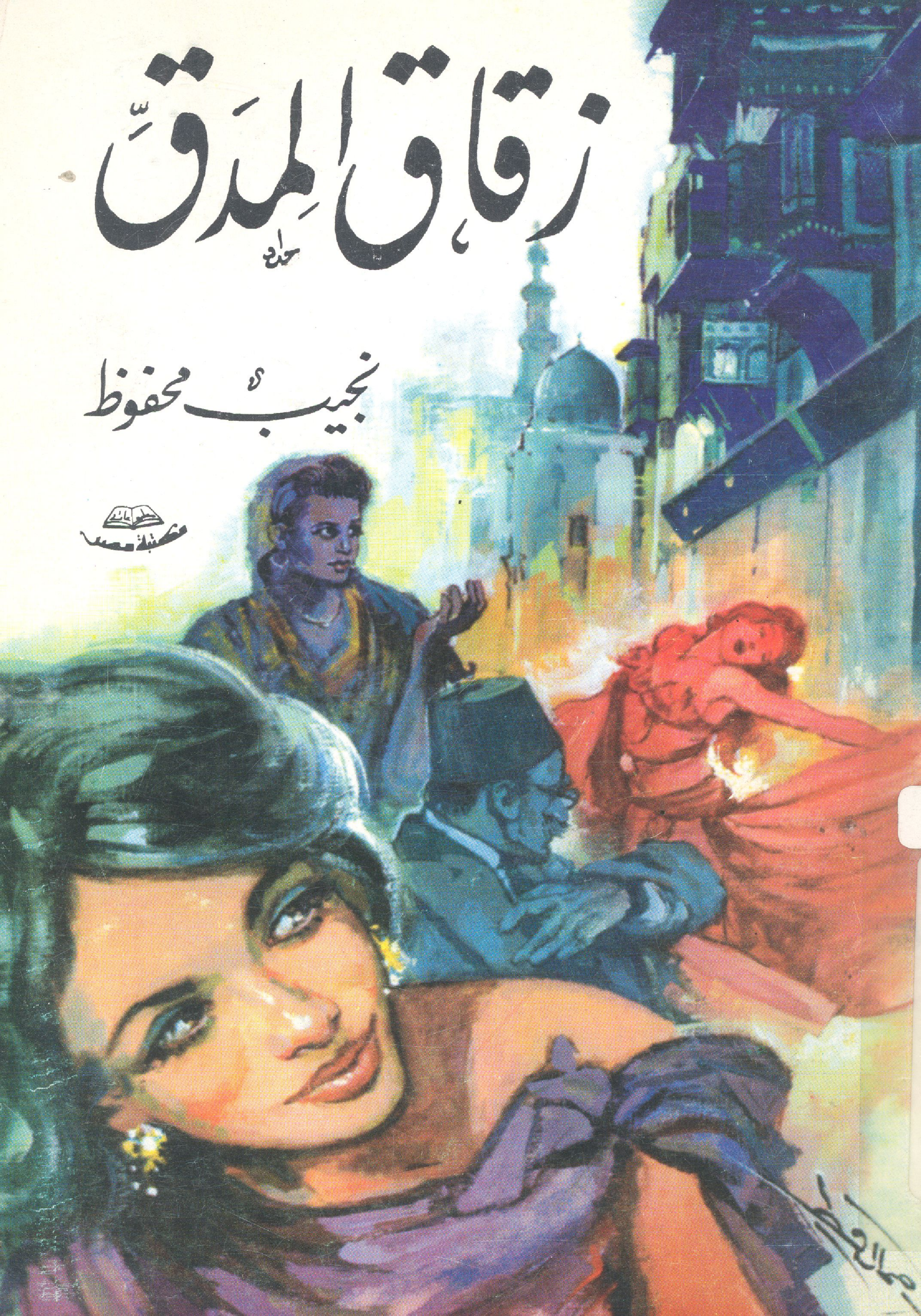


زقاق المدق

نجيب محفوظ



مكتبة

نفاذِ اہر

مطبعة خان بكية ملهز

زقات المدف

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للأداب ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة ، وأنه تألق يوماً في تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدرى . أى القاهرة أعنى ؟ .. الفاطمية ؟ .. المماليك ؟ السلاطين ؟ ، غلم ذلك عند الله وعند علماء الآثار ، ولكنه على أية حال أثر ، وأثر نفيس . كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك ، هذا إلى قدم باد ، وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذى صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد .. !

ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش فى شبه عزلة عما يحديق به من مسارب الدنيا ، إلا أنه على رغم ذلك يضج بحياته الخاصة ، حياة تتصل فى أعماقها بجذور الحياة الشاملة ، وتحتفظ — إلى ذلك — بقدر من أسرار العالم المنطوى .

آذنت الشمس بالمغيب ، والتف زقاق المدق فى غلالة سمراء من شفق الغروب ، زاد من سمرتها عمقا أنه منحضر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصنادقية ، ثم يصعد صعودا فى غير انتظام ، تحف بجانب منه دكان وقهوة وفرن ، وتحف بالجانب الآخر دكان ووكالة ، ثم ينتهى سريعا — كما انتهى مجده الغابر — بييتين متلاصقين ، يتكون كلاهما من طوابق ثلاثة .

سكنت حياة النهار ، وسرى ديب حياة المساء ، همسة هنا وهمهمة هناك : يا رب يا معين . يارزاق يا كريم . حسن الختام يا رب . كل شىء بأمره . مساء الخير يا جماعة .. تفضلوا جاء وقت السمر . اصبح يا عم كامل وأغلق الدكان .

غير يا سنقر ماء الجوز . أطفئ الفرن يا جعدة . الفص كبس على قلبى . إذا كنا نذوق أهوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهذا من شر أنفسنا .

بيد أن دكانين — دكان عم كامل بائع البسبوسة على يمين المدخل وصالون الحلو على يساره — يطلان مفتوحين إلى ما بعد الغروب بقليل . ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسيًا على عتبة دكانه — أو حقه على الأصح — يغط في نومه والمذبة في حجره ، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق . هو كتلة بشرية جسيمة ، ينحسر جلبابه عن ساقين كقربتين ، وتدل خلفه عجيزة كالقبة ، مركزها على الكرسي ومحيطها في الهواء ، ذو بطن كالبرميل ، وصدر يكاد يتكور ثدياه ، لا ترى له رقبة ، فين الكتفين وجه مستدير منتفخ محتقن بالدم ، أخفى انتفاخه معالم قسماته . فلا تكاد ترى في صفحته لا سمات ولا خطوط ولا أنف ولا عنان ، وقمة ذلك كله رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة . لا يزال يلهث ويشخر كأنه قطع شوطًا عدواً ، ولا ينهى من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه النعاس . قالوا له مرات ستموت بغتة ، وشيقتلك الشحم الضاغط على قلبك ، وراح يقول ذلك مع القائلين ، ولكن ماذا يضيره الموت وحياته نوم متصل ؟!

أما صالون الحلو فدكان صغير ، يعد في الزقاق أنيقاً ، ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفن . وصاحبه شاب متوسط القامة ، ميال للبدانة ، يضاوى الوجه ، بارز العينين ، ذو شعر مرجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته ، يرتدى بدلة ، ولا يفوته لبس المريلة اقتداءً بكبار الأسطوانات !

لبث هذان الشخصان في دكائيهما في حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عماها ، وكان آخر من غادرها السيد سليم علوان ، يرقل في جيبه وقططانه ، فاتجه صوب الحانطور الذى ينتظره على باب الزقاق ، وصعد إليه في وقار ، وملاً مقعده بجسمه المكتنز يتقدمه شاربان شر-كسيان . ودق الحوذى الجرس بقدمه فرن بقوة ، وانحدرت العربة ذات

الحصان الواحد إلى الغورية في طريقها إلى الحلمية ، وأغلق البيتان في الصدر نوافذهما اتقاء البرد ، ولاحت أنوار المصابيح وراء خصاصها ، وكاد المدق يفرق في الصمت ، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية ، عتش الذباب بأسلاكها ، وراح يؤمها السمار . هي حجرة مربعة الشكل ، في حكم البالية ، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالأزاييسك ، فليس لها من مطارح المجد إلا تاريخها ، وعدة أرائك تحيط بها . وعند مدخلها كان يكب عامل على تركيب مذياع نصف عمر بجدارها ، وتفرق نفر قليل بين مقاعدها يدخنون الجوز ويشربون الشاي . وعلى كئيب من المدخل تربع على الأريكة رجل في الخمسين يرتدى جلبابا ذا بنيقة موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الأفندية ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة ! وقد خلع قبقابه على الأرض عند موضع قدميه ، وجلس جامدا كالتمثال ، صامتا كالأموات ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، كأنه في دنيا وحده . ثم أقبل على القهوة عجوز مهدم ، لم يترك له الدهر عضوا سالما ، يحجره غلام بيسراه ، ويحمل تحت إبط يمناه ربابة وكتابا . فسلم الشيخ على الحاضرين ، وسار من فوره إلى الأريكة الوسطى في صدر المكان ، واعتلاها بمعونة الغلام ، ثم صعد الغلام إلى جانبه ، ووضع بينهما الربابة والكتاب . وأخذ الرجل يبيع نفسه ، وهو يتفرس في وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن أثر حضوره في نفوسهم ، ثم استقرت عيناه الذابلتان الملتهبتان على صبي القهوة سنقر في انتظار وقلق ، ولما طال انتظاره . ولمس تجاهل الغلام له ، خرج عن صمته قائلا بصوت غليظ :

— القهوة يا سنقر ... !

والتفت الغلام نحوه قليلا ، ثم ولاه ظهره بعد تردد دون أن ينبس بكلمة ، ضاربا عن طلبه صفحا . وأدرك العجوز إهمال الغلام له ، ولم يكن يتوقع غير ذلك . ولكن جاءت نجدة من السماء ، إذ دخل في تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف العجوز ولاحظ إهمال الصبي ، فقال للغلام بلهجة الأمر :

— هات قهوة الشاعر يا ولد ..

وحدج الشاعر القادم بنظرة امتنان ، وقال بلهجة لم تخل من أسي :

— شكرا لله يا دكتور هوشى ..

فسلم الدكتور عليه ، وجلس قريبا منه . وكان الدكتور يرتدى جلبابا وطاقية وبقابا ! هو دكتور أسنان ، إلا أنه أخذ فنه من الحياة بغير حاجة إلى ممارسة الطب أو أية مدرسة أخرى . اشتغل في بدء حياته تمورجيا لطبيب أسنان في الجمالية ، ففقه فنه بحذقه وبرع فيه ! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة ، وإن كان يفضل الخلع غالبا كأحسن علاج . وربما كان خلع الضرس في عيادته المتنقلة ألما موجعا ، إلا أنه رخيص ، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (أغنياء المدق طبعا) ، فإذا حدث نزيف — وليس هذا بالأمر النادر — اعتبر عادة من عند الله ؛ وترك منعه أيضا لله ! . وقد ركب للمعلم كرشة صاحب القهوة طقما ذهبيا بجنيهين بغير زيادة . وهو يدعى في الزقاق والأحياء القرية بالدكتور ، ولعله أول طبيب يأخذ لقبه من مرضاه .

جاء سنقر بالقهوة للشاعر كما أمر الدكتور ، فتناول الرجل القدح وأدناه من فمه وهو ينفخ ليطرده حرارته ، وراح يرشف منه رشقات متابعات حتى أقي عليه ، ثم نحاه جانبا . وذكر عند ذاك فحسب سوء سلوك صبي القهوة معه ، فحدجه بنظرة شزاء وتمتم ساخطا :

— قليل الأدب ..

ثم تناول الربابة يجرب أوتارها ، متحاميا نظرات الغضب التي أطلقها عليه سنقر ، وراح يعزف مطلقا ، لبشت قهوة كرشة تسمعه كل مساء عشرين عاما أو يزيد من حياتها ، وأخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة ، ثم تنحنح وبصق وبسمل ، ثم صاح بصوته الغليظ :

أول ما نبتدى اليوم نصلى على النبى .

نبى عربى صفوة ولد عدنان .

يقول أبو سعدة الزناتى ..

وقاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذاك يقول :

— هس !.. ولا كلمة أخرى .

فرفع بصره الذليل عن الربابة فرأى المعلم كرشة ، بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينية المظلمتين النائمتين ، فنظر إليه واجما . وتردد قليلا كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه . وأراد أن يتجاهل شره ، فاستدرك منشدا :

يقول أبو سعدة الزناتى ..

ولكن المعلم صاح به مغيظا محنقا :

— بالقوة تنشد !؟ .. انتهى .. انتهى ! ألم أندرك من أسبوع مضى !؟

فلاح الاستياء فى وجه الشاعر ، وقال بلهجة ملؤها العتاب :

— أراك تكثر من « الكيف » ، ثم لا تجد من ضحية سواى !

فصاح المعلم فى غضب وحنق :

— رأسى صاح يا مخرف ؛ وأنا أعلم ما أريد. أتحسب أنى آذن لك بالإنشاد فى

قهوتى إذا ما سلقتنى بلسانك القدر !؟ .

فخفف الشاعر من لهجته مستوها عطف الرجل الغاضب ، وراح يقول :

— هذه قهوتى أيضا ، ألسنت شاعرها لعشرين عاما خلون !؟

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق المراكات :

— عرفنا القصص جميعا وحفظناها ، ولا حاجة بنا إلى سردها من جديد ،

والناس فى أيامنا هذه لا يريدون الشاعر ، وطالما طالبونى بالراديو ، وها هو ذا

الراديو يركب ، فدعنا ورزقك على الله ..

فاكفهر وجه الشاعر ، وذكر محسورا أن قهوة « كرشة » آخر ما تبقى له من

القهوات ، أو من أسباب الرزق فى دنياه ، بعد جاهد عريض قديم . وبالأمس

القريب استغنت عنه كذلك قهوة القلعة . عمر طويل ورزق منقطع ، فماذا

يفعل بحياته !؟ وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد !؟ وماذا

يخبئ له المستقبل وماذا يضمّر لعلامه ؟! اشتد به القنوط ، وضاعف قنوطه
ما لاح في وجه المعلم من الجزع والإصرار ، فقال :
— رويدك يا معلم كرشة ، إن للهلالى لجدة لا تزول ، ولا يغنى عنها الراديو
أبدا ..

ولكن المعلم قال بلهجة قاطعة :
— هذا قولك ، ولكنه قول لا يقره الزبائن فلا تخرب بيتى . لقد تغير كل
شئ !

فقال الشاعر فى قنوط :
— ألم تستمع الأجيال بلا ملل إلى هذه القصص من عهد النبی علیه الصلاة
والسلام ؟

فضرب المعلم كرشة على صندوق المركات بقوة وصاح به :
— قلت لقد تغير كل شئ !
وتحرك عند ذلك — لأول مرة — الرجل الجامد الذاهل — ذو الجلباب
والبنيقة ورباط الرقبة والنظارة الذهبية فصعد بصره إلى سقف القهوة ، وتهد من
الأعماق حتى خال المستمعون أنه يزفر فتات كبده ، وقال بصوت كالمناجاة :
— آه تغير كل شئ . أجل كل شئ يا ستى ! كل شئ تغير إلا قلبى فهو يحب
آل البيت عامر ..

وطامن رأسه ببطء ، وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار ، فى حركات
أخذت فى الضيق رويدا رويدا حتى عاد إلى موضعه الأول من الجمود ، وغرق
مرة أخرى فى غيبوبة . ولم يلتفت إليه أحد ممن اعتاد أحواله ، إلا الشاعر فقد
توجه إليه كالمستغيث وقال له برجاء :
— يا شيخ درویش أيرضيك هذا ؟

ولكنه لم يخرج من غيبوبته ولم ينبس بكلمة ، وهنا قدم شخص جديد تعلق
به الأنظار فى إجلال ومودة ، وردوا تحيته بأحسن منها . كان السيد رضوان

الحسينى ذا طلعة مهيبة ، تمتد طولاً وعرضاً ، وتنطوى عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم ، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة ، ذو لحية صهباء ، يشع النور من غرة جبينه ، وتقطر صفحته بهاء وسماحة وإيمانا ، سار متمللاً خافض الرأس ، وعلى شفثيه ابتسامة تشى بحبه للناس وللدنيا جميعاً ، واختار مجلسه على المقعد التالى لأريكة الشاعر . وسرعان ما رحب به الشاعر وبثه شكواه . ومنحه السيد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكربه ، وكان حاول مراراً أن يثنى المعلم « كرشة » عما اعتزمه من الاستغناء عنه دون جدوى . ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب خاطره ، ووعدته بأن يبحث لعلامه عن عمل يرتزق منه ، ثم غمر كفه بما جادت به نفسه وهو يهمس فى أذنه « كلنا أبناء آدم ، فإذا ألحت عليك الحاجة فاقصد أخاك ، والرزق رزق الله والفضل فضله » . وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تألقاً ، شأن الكريم الفاضل يحب الخير ويصنعه ، ويزداد بصنعه رضا وجمالاً . كان يحرص دائماً على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل ، أو ينقلب إلى بيته ملوماً محسوراً . وإنه ل يبدو لحبه الخير ولسماحته كما لو كان من الموسرين المثقلين بالمال والمتاع ، وإن كان فى الواقع لا يملك إلا البيت الأيمن من الزقاق وبضعة أفدنة بالمرج . وقد وجد فيه سكان بيته — المعلم كرشة فى الطابق الثالث ، وعم كامل والحلو فى الطابق الأول — مالكا طيب القلب والمعاملة ، حتى أنه تنازل عن حقه فى الزيادة التى قررها الأمر العسكرى الخاص بالسكن فيما يتعلق بالطابق الأول رحمة بساكنيه البسيطين ، فكان رحمة حيث حل وحيث يقيم . وقد كانت حياته — وخاصة فى مدارجها الأولى — مرتعاً للخيبة والألم ، فأنهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل ، وقطع بين أرواقه شوطاً طويلاً من عمره دون أن يظفر بالعالمية ، وابتلى — إلى ذلك — بفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال ، ذاق مرارة الخيبة حتى أترع قلبه باليأس أو كاد ، وتجرع غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم ، وانطوى على نفسه طويلاً فى ظلمة غاشية . ومن دجنة الأحزان

أخرجه الإيمان إلى نور الحب ، فلم يعد يعرف قلبه كربا ولا هما . انقلب حبا شاملا وخيرا عميما وصبرا جميلا ، وطأ أحزان الدنيا بنعليه ، وطار بقلبه إلى السماء ، وأفرغ حبه على الناس جميعا ، وكان كلما نكد الزمان عنتا ازداد صبرا وحبا ، رآه الناس يوما يشيع ابنا من أبنائه إلى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه ، فأحاطوا به مواسين معزين ، لكنه ابتسم لهم ، وأشار إلى السماء وهو يقول : « أعطى وأخذ ، كل شيء بأمره وكل شيء له ، والحزن كفر » فكان هو العزاء . ولذلك قال عنه الدكتور يوشى : « إذا كنت مريضا فالمس السيد الحسينى يأتك الشفاء . وإذا كنت يائسا فطالع نور غرته يدركك الرجاء ، أو محزوننا فاستمع إليه يبادرك الهناء » . وكان وجهه صورة من نفسه ، فهو الجمال الجليل فى أبهى صورته .

أما الشاعر فقد رضى بعض الرضا ، ووجد شيئا من العزاء ، وتزحزح تاركا الأريكة ، وتبعه الغلام وهو يلم الربابة والكتاب . وشد الرجل على يد السيد رضوان الحسينى ، وحيا الجلوس متجاهلا المعلم كرشة ، ثم ألقى نظرة ازدراء على المذيع الذى كاد العامل يفرغ من تشيته ، وأعطى يده للغلام فجره إلى الخارج ، وغابا عن الأنظار . ودبت الحياة مرة أخرى فى الشيخ درويش ، فأدار رأسه نحو الجهة التى اختفى فيها الذاهبان ، وتأوه قائلا :

— ذهب الشاعر وجاء المذيع . هذه سنة الله فى خلقه . وقدما ذكرت فى التاريخ وهو ما يسمى بالإنجليزية (History) وتهجيتها .. (History) . وقبل أن يختم تهجية الكلمة جاء عم كامل وعباس الحلو بعد أن أغلقا دكانيهما . ظهر الحلو أولا ، وقد غسل وجهه ورجل شعره الضارب للصفرة ، وتبعه عم كامل يتبختر كالحمل ، ويقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا . وسلما على الحاضرين ، وجلسا جنبا لجنب ، وطلبا الشاى ، ولم يكونا يحلان بمكان حتى يملاهما ثرثرة . وقال عباس الحلو :

— يا قوم اسمعوا : شكنا إلى صديقى عم كامل قال إنه عرضة للموت فى أية

لحظة ، وإنه إذا مات فلن يترك ما يدفن به ..

فقال بعض الحاضرين متهمًا :

— أمة محمد بخير .

وقال البعض الآخر :

— إن له لتركة من البسبوسة تكفى لدفن أمة بأسرها .

وضحك الدكتور بوشى وخاطب عم كامل قائلاً :

— لا تفتأ تذكر الموت . وتالله لتدفننا جميعاً بيديك ..

فقال عم كامل بصوت برىء كالأطفال :

— اتق الله يا شيخ أنا رجل مسكين ..

واستطرد عباس الحلو قائلاً :

— يا قوم : عزت على شكاة عم كامل ، ولبسبوسته فضل علينا جميعاً غير

منكور . فابتعت له كفناً احتياطياً ، وأحتفظ به فى مكان حريز لساعة لا مفر منها ،

(والتفت إلى عم كامل قائلاً) هذا سر أخفيته عنك ، وها أنا أعلنه على الملأ

ليكونوا على شهودا .

فأبدى الكثيرون عن اغتباطهم ، متصنعين الجذ ، ليجوز الكلام على عم

كامل المشهور بسرعة تصديقه ، وأثنوا على مروءة الحلو وكرمه ، وقالوا : إن

هذا صنيع خليق به نحو الرجل الذى يحبه ويساكنه شقة واحدة ، ويشاطره العيش

كأنه من لحمه ودمه . حتى السيد رضوان الحسينى ابتسم راضياً ، مما جعل عم

كامل ينظر إلى الشاب فى سذاجة ودهشة ويقول متسائلاً :

— أحق ما تقول يا عباس ؟!

فقال الدكتور بوشى :

— لا يداخلك الشك يا عم كامل . لقد علمت بما يقول صاحبك ، ورأيت

الكفن بعينى رأسى ، وهو كفن قيم وددت لو يكون لى مثله ..

وتحرك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال :

— حظ سعيد . الكفن سترة الآخرة . يا كامل تمتع بكفنك قبل أن يتمتع بك . ستكون طعاما مريثا للدود ، فيرعى في لحمك الهش مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدعة . ومعناها بالإنجليزية (Frog) وتهجيتها (frog) . وصدق عم كامل ، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجة ، ثم دعا له طويلا ، وانبسط وحمد الله . وارتفع عند ذاك صوت فتى آتيا من الطريق يقول :

— مساء الخير ..

واتجه صاحبه إلى بيت السيد رضوان الحسينى . كان القادم حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة . فتى فى العشرين فى مثل لون أبيه الضارب إلى السواد ، ولكنه ممشوق القوام ، تدل ملامحه الدقيقة على الحذق والفتوة والنشاط ، كان يرتدى قميصا من الصوف الأزرق وبنطلونا خاكيا وقبعة وحذاء ثقيلًا ، تلوح على سيماء مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطانى . وكان ذاك ميعاد عودته من « الأرنس » كما يسمونه ، فرمقه الكثيرون بعين الإعجاب والحسد ، ودعاه صديقه الحلو إلى القهوة ، ولكنه شكره ومضى إلى حال سبيله .

ساد الظلام الزقاق إلا ما يبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض أضلعه على جدار الوكالة . ومضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيت تنطفئ واحدا فى إثر واحد . وأكب سمار القهوة على الدومينو والكومى ، إلا الشيخ درويش فقد أغرق فى ذهوله ، وعم كامل مال رأسه على ثديه وراح فى سبات . وظل سنقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات فى الصندوق ، والمعلم « كرشة » يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر فى خمول ذوبان الفص فى جوفه ويستتيم إلى سلطنة لذيدة . وتقدمت جحافل الليل ، فغادر السيد رضوان الحسينى القهوة إلى بيته . وتبعه

بعد قليل الدكتور بوشى إلى شقته فى الدور الأول من البيت الثانى . ثم لحق بهما الحلو وعم كامل . وأخذت المقاعد تخلو تباعا ، حتى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلا ثلاثة : المعلم والصبى والشيخ درويش . وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم « كرشة » . وصعدوا جميعا إلى حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان ، وتحلقوا المجرمة ، وبدءوا سهرة جديدة لا تنتهى حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وخاطب سنقر الشيخ درويش قائلا بركة :
— انتصف الليل يا شيخ درويش ..

فانتبه الشيخ إلى صوته ، وخلع نظارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه ، ثم لبسها من جديد وسوى رباط رقبته ونهض قائما واضعا قدميه فى القبقاب وغادر القهوة دون أن ينبس بكلمة ، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الزقاق . كان السكون شاملا ، والظلمة ثقيلة ، والطرق والدروب خالية مقفرة ، فترك لقدميه مقوده ، حيث لا دار له ولا غاية ، وغاب فى الظلمة .

كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرسا فى إحدى مدارس الأوقاف ، بل كان مدرس لغة إنجليزية ! وقد عرف بالاجتهاد والنشاط ، وأسعفه الحظ أيضا فكان رب أسرة سعيدة . ولما أن انضمت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف ، سويت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوى المؤهلات العالية ، فاستحال كاتباً بالأوقاف ، ونزل من الدرجة السادسة إلى الثامنة ، وعدل مرتبه على هذا الأساس ، كان من الطبيعى أن يحزن الرجل لمصيره حزنا عميقا وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة ، يعلنها حيناً ، ويكتمها — مقسورا مغلوبا على أمره — أحيانا . ولقد سعى كل مسعى ، وقدم الالتماسات ، واستشفع الرؤساء ، وشكا الحال وكثرة العيال ، دون جدوى . ثم سلم للقنوط بعد أن تحطمت أعصابه أو كادت . واشتهر أمره فى الوزارة كموظف كثير التبرم والشكوى ، عظيم اللجاج والعناد ، سريع التأثر ، لا يكاد يمضى يوم من حياته دون شجار

أو اصطدام ، كبير الاعتداد بنفسه والتحدى للآخرين . وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف — وكثيرا ما يحدث — تعالى استكبارا ، وخاطب خصمه بالإنجليزية ، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب ، صاح به في ازدراء شديد « تعلم أولا ثم خاطبني ! » . وكانت أنباء شجاره وعناقه تتصل برؤسائه أولا فأول وكانوا يتسامحون معه ، عطفًا عليه من ناحية ، وتحاميا لشره من ناحية أخرى ، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر إلا بعض الإنذارات ، وخصم يوم أو يومين ، ولكنه ازداد بمرور الأيام صلفا ، حتى تراءى له يوما أن يحرق خطابات المصلحة باللغة الإنجليزية ففعل . وكان يقول في تسويغ ذلك أنه موظف فني لا كغيره من الكتاب . وتعطل عمله مما دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة ، ولكن المقدر كان أسرع من حزم المدير ، فطلب الرجل يوما مقابلة وكيل الوزارة ، ودخل درويش أفندي — كما كان وقتذاك — حجرة الوكيل في تودة ووقار ، وحياء تحية الند للند ، وبادره قائلا بثقة ويقين :

— يا سعادة الوكيل لقد اختار الله رجله .

فطلب إليه الوكيل أن يفصح عما يريد ، فاستدرك قائلا بوقار وجلال :

— أنا رسول الله إليك بكادر جديد .

هكذا ختمت حياته بالأوقاف . وهكذا قطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التي كان واحدا منها . هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسميها ، ولم يستبق من آثار الماضي جميعا إلا نظارته الذهبية . ومضى في عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى . ودلت حياته على أن بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا في هذه الدنيا المتقيحة بمرارة الكفاح بلا مأوى ولا مال ولا معين ، ثم لا يجدون هما ولا كربا ولا حاجة . ولا جاع يوما ولا تعرى ولا شرد . وانتقل إلى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها . وإذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعا صارت بيتا له ، وإذا كان قد حرم مرتبه فالتعلق بالمال قد انقطع عنه ، وإذا كان قد خسر الأهل والأصدقاء فالناس جميعا انقلبوا له أهلا . يلى الجلباب فيأتيه جلباب

جديد ، ويتمزق رباط الرقبة فيجئ به رباط جديد ، ولا يحل مكانا حتى يرحب به ناسه . وبحسبه أن يفتقده المعلم كرشة نفسه — على ذهوله — إذا غاب عن القهوة يوما . ومع ذلك فلم يكن يأتي شيئا مما يعتقد فيه العامة من المعجزات والخوارق وقراءة الغيب . فهو إما ذاهل صامت ، أو مرسل القول كما يحب لا يدرى أنى يكون موقعه من النفوس . بيد أنه رجل محبوب مبارك ، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرا ، ويقولون عنه إنه ولي من أولياء الله الصالحين ، يأتيه الوحي باللغتين العربية والإنجليزية ..

نظرت إلى المرأة بعين غير ناقدة ، أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع الرضا ، فعكست المرأة وجهها نحىلا مستطيلا فعل الزواق بخديه وحاجبيه وعينه وشفتيه الأعاجيب . وجعلت تعطفه يمنة ، وتعطفه يسرة ، وأصابعها تنسق ضفيريها ، مغممة بصوت لا يكاد يسمع « لا بأس ، جميل ، وأيم الله جميل » . والحق أن هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاما ، والدنيا لا تدع وجهها سالما نصف قرن من الزمان . أما جسمها فنحيل ، أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق ، وأما الصدر فأمسح ، بيد أن فستانا حسنا يستره . هذه هي الست سنية عفيفى صاحبة البيت الثانى بالزقاق ، حيث يسكن الدكتور بوشى طابقه الأول ، وفى ذلك اليوم كانت تأخذ أهبثها لزيارة الشقة الوسطى التى تقيم بها أم حميدة . ولم يكن من عاداتها الإكثار من زيارة أحد ، وربما لم تكن تدخل هذه الشقة إلا أول كل شهر لتحصيل الأجرة ، إلا أن باعثا جديدا دب فى أعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة . وهكذا غادرت شقتها ، ونزلت السلالم ، متممة بـ « اللهم حقق الآمال » ودقت بكفها المعروفة ففتحت لها حميدة . (زقاق المدق)

واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة ، وقادتها إلى حجرة الضيوف ، ثم ذهبت تدعو أمها . كانت الحجرة صغيرة ، بها كنبتان من الطراز القديم متقابلتين ، وفي الوسط خوان باهت عليه نافضة سجائر ، وأما أرضها فمفروشة بحصيرة . ولم يطل بالمرأة الانتظار ، فسرعان ما جاءت أم حميدة مهرولة وقد غيرت جلاباب البيت ، فسلمتا بشوق ، وتبادلتا قبلتين ، وجلستا جنباً لجنب ، وأم حميدة تقول :

— أهلاً .. أهلاً .. زارنا النبي يا ست سنية .

كانت أم حميدة ربعة ممتلئة في الستين ، ولكنها معافاة قوية ، جاحظة العينين ، مجدورة الخدين ، ذات صوت غليظ قوى النبرات ، فإذا تحدثت فكأنها تزعق ، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزال ، ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال ، لأن زيارة تقوم بها صاحبة الملك أمر قد تسوء عواقبه ، وقد ينذر بالخطر . ولكنها وطنت النفس على أن تلبس لكل حال لبوسها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وإنها على كلتا الحالتين لقادرة . وكانت بحكم وظيفتها — خاطبة وبلانة — عميقة الملاحظة كثيرة الكلام . بل كانت لساناً لا يكف ولا يمسك ، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحي أو بيت من بيوته ، فهي مؤرخة راوية لأخبار السوء — على الغالب — ومعجم للمنكرات . وأرادت كعادتها أن تتسلى بالكلام فراحت ترحب بالضييفة ، وتطنب في الثناء عليها ، وتروى لها نتفاً من أنباء الزقاق والأخبار المجاورة : أما علمت بفضيحة المعلم كرشة الجديدة ؟ هي كسابقاتها ، وقد اتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزقت جبته . وحسنية الفرانة ضربت زوجها جعدة أمس حتى بض الدم من جبينه . والسيد رضوان الحسيني الطيب الورع زجر زوجته زجراً شديداً ، لماذا يعاملها هذه المعاملة — وهو الرجل الطيب — إن لم تكن شريرة خبيثة ! الدكتور البوشي احتك بفتاة صغيرة في الخبأ في آخر غارة وضربه رجل محترم . كريمه الماوردى تاجر الخشب فرت مع خادماها وبلغ أبوها القسم .

طابونة الكفراوى تبيع عيشا مخلوط سرا ، إلخ إلخ .
أصبغت الست سنية عفيفى بأذن غير واعية لأنها كانت مشغولة بالأمر الذى
جاءت من أجله . وقد صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذى طال اختباره
بنفسها مهما كلفها الأمر . بيد أنها نازعت المرأة الحديث حتى تنهيا لها فرصة
مواتية . وقد تنهيات هذه الفرصة حين سألتها أم حميدة قائلة :

— وكيف الحال يا ست سنية ؟

فعبست قليلا وقالت :

— الحق أنى تعب يا ست أم حميدة .

فرفعت أم حميدة حاجبها كالمنزعجة وقالت :

— تعب ؟! كفى الله الشر !

وأمسكت ست سنية ريثما تضع حميدة — وكانت دخلت الحجرة فى هذه
اللحظة — صينية القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت ، ثم قالت بامتعاض :
— تعب يا ست أم حميدة . أليس من المتعب تحصيل أجور الدكاكين ؟
تصورى وقوف امرأة مثلى أمام رجل غريب تطالبه بالأجرة ..
وقد خفق قلب أم حميدة لسيرة الأجور ولكنها قالت بنبرات أسيفة :
— صدقت يا ستى .. كان الله فى عونك .

ولم تفتها ملاحظة هامة فتساءلت : لماذا تكثر المرأة من ترداد هذه الشكوى ؟
وذكرت أنها أعادتها على سمعها مرات ! بل ذكرت أن هذه ثانى أو ثالث مرة
تزورها فى غير أول الشهر . وخطر لها خاطر عجيب دهشت له بحكم وظيفتها ،
وكانت فى أمثال هذه المسائل خاصة ذات فراسة لا تجاري ، فصممت أن تسير
الزائرة من وراء وراء ، فقالت بنخبث :

— هذه إحدى شرور الوحدة . أنت امرأة وحيدة يا ست سنية . فى البيت
وحدك ، وفى الطريق وحدك ، وفى « الفراش » وحدك ، ألا قطعت الوحدة ..
وسرت الست سنية بحديث المرأة الذى كأنه يلبي خواطرها ، وقالت وهى

تخفى سرورها به :

— وما عسى أن أصنع ؟ أقارى ذو وأسر ، وأنا لا أرتاح إلا فى بيتى . والحمد لله الذى أغنانى عن الناس جميعا ..

وكانت أم حميدة تلحظها بمكر ، فقالت فاتحة آخر الأبواب :

— الحمد لله ألف مرة ، ولكن بالله خبرينى لماذا قضيت على نفسك بالعزوبة

هذا الدهر الطويل ؟.. !

فخفق فؤاد الست سنية ، ووجدت نفسها وجها لوجه حياى ما تريد ،

ولكنها تنهدت بإنكار وقالت بتأفف متكلف :

— حسبى ما ذقت من مرارة الزواج !..

كانت الست سنية عفيفى قد تزوجت فى شبابها من صاحب دكان روائع عطرية ، ولكنه كان زواجا لم يصادفه التوفيق ، فأساء الرجل معاملتها ، وأشقى حياتها ، ونهب مالها ، ثم تركها أرملة منذ عشرة أعوام . ولبثت أرملة طوال تلك الأعوام لأنها — على حد قولها — كرهت حياتها الزوجية .

ولم يكن هذا القول مجرد كذب تدارى به إهمال الجنس الآخر لها ، فقد كرهت الحياة الزوجية حقا ، وفرحت باسترداد حريتها وأمنها ، وظلت على نفورها من الزواج وفرحها بحريتها عهدا طويلا ، ثم أنسيت تلك العاطفة بمرور الزمن ولم تكن تتردد عن تجربة حظها من جديد لو تقدم لطلب يدها طالب . وجعلت تراود الأمل حيناً بعد حين ، حتى طال به الأمد ، فغلبها القنوط ، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب ، ووطنت النفس على الرضا بحياتها كما هى . ولما كان من الضرورى أن يوجد فى حياة الإنسان شىء تنعقد حوله آماله ، شىء يقرر لحياته قيمة ولو وهمية أو سخيصة ، فقد وجدت ضالتها كذلك . ومن حسن الطالع أنها لم تكن مما ينتقص امرأة عازبة مثلها ، فأولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق المالية الجديدة . وقد كانت فى الأصل تميل قليلا نحو الحرص ، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير ، فجاءت الهواية

الجديدة تؤكد ذاك الميل القديم وتقويه وتتقوى به . وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة في صندوق عاجى صغير أخفته في أعماق صوان ملابسها ، ووزعتها رزما من ذوات الخمس والعشر ، تبسلى بمشاهدتها ومعاودة عدها وترتيبها . ولما كانت الأوراق خرسا لا كالنقود المعدنية فقد أمنت الأخطار ، ولم يدر بها أحد من شطار المدق على شدة حساسيتهم . وجدت في حياتها المالية عزاء . وانتحلت منها اعتذارا لعزوبتها ، وقالت لنفسها إن أى زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج المرحوم ، وبأن يضيع عليها في غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال ، ومع ذلك فما كاد يتسرب إلى قلبها الإيحاء بفكرة الزواج حتى تناست الأعدار والخاوف جميعا . وكانت أم حميدة المسئولة عن هذا التحول العجيب ، سواء عن قصد أو عن غير قصد ، بما قصته عليها مرة من تزويجها لأرملة عجوز ، ففكرت في الأمر على أنه ممكن التحقيق ، وسرعان ما استولى على إرادتها ، فتدافعت إلى طاعته لا تلوى على شيء . ظنت يوما أنها نسيت الزواج . فإذا بالزواج أملها المنشود الذى لا يغنى عنه شيء من مال أو قهوة أو سجائر أو أوراق مالية جديدة . وجعلت تتساءل في خزع كيف ضاع ذاك العمر هباء ؟ كيف قطعت عشرة أعوام حتى شارفت الخمسين وحيدة ؟! وقالت إن هذا هو الجنون ، وحملت زوجها المرحوم تبعته ، وصممت على أن تكفر عنه اليوم قبل الغد إن أمكن . وأصغت الخاطبة إلى تأففها المتصنع بفطنة واستهانة وقالت لنفسها : « لا يجوز على مكرك يا مرة » . ثم خاطبتها بلهجة تنم عن لوم :

— لا تغالى يا ست سنية . إذا كان حظك الأول قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشرق والمغرب ..

فقالت الست سنية وهى تعيد قدح القهوة إلى الصينية شاكرة :

— لا ينبغي لعاقل أن يعاند الحظ إذا تجهم .

فاعترضتها أم حميدة قائلة :

— ما هذا الكلام يا ست العاقلات ! كفاك وحدة كفاك .

فدقت المرأة صدرها الأيسر بباطن يسراها وقالت بإنكار مصطنع :

— يا خبر . أتريدين الناس على أن يرموني بالجنون ؟

— أى أناس تعين ؟ إن أكبر منك يتزوجن كل يوم .

فتضايقت من « أكبر منك » وقالت بصوت منخفض :

— لست من الكبر كما تظنين .. لعن الله الهم .

— ما قصدت هذا يا ست سنية . وما أشك في أنك ما زلت في حدود

الشباب ، ولكنه الهم الذى تلتحفين به مختارة .

فارتاحت الست ، ولكنها كانت لا تزال مصرة على تمثيل دور من يساق إلى

قبول الزواج بلا تعمد ولا رغبة ، فتساءلت بعد تردد :

— ألا يعينى أن أقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة ؟

فخاطبت أم حميدة نفسها قائلة : « لماذا قصدتيني إذا يا مرة ؟ » . ثم خاطبت

الست قائلة :

— كيف يعيبك ما هو شرع وحق ! أنت ست عاقلة شريفة ، والكل يشهد

لك بذلك . والزواج نصف الدين يا حبيبتى ، وربنا شرعه حكمة ، وأمر به النبى

عليه الصلاة والسلام ..

فقالت سنية بإيمان :

— صلى الله عليه وسلم .

— كيف لا يا حبيبتى ! نبى عربى ويحب عبده !

وكان وجه الست سنية قد تورد تحت قناع الأحمر ، وثل فؤادها سرورا ،

فقالت وهى تستخرج سيجارتين من علبتها :

— ومن يرضى بالزواج منى ؟

فثنت أم حميدة سبابة يسراها ، ولصقتها بحاجبها ، وقالت باستنكار :

— ألف رجل ورجل .

فضحكت الست بمجامع قلبها وقالت :

— رجل واحد يكفى ..

فقالت أم حميدة بيقين :

— الرجال جميعا يحبون الزواج فى أعماقهم . ولا يكاد يشكو الزواج إلا المتزوجون . وكم من رجل عازب راغب عن الزواج ، ما إن أقول له : « عندى عروس لك ! » حتى تدب فى عينيه النقطة ، ويغلبه الابتسام ، ويسألنى فى لهفة لا تخفى : « حقا .. من ! .. من ؟ » . الرجل يريد المرأة ولو أقعده الكساح ، وهذه حكمة ربنا .

فهزت الست سنية رأسها فى ارتياح وقالت :

— جلت حكمته ! .

— نعم يا ست سنية ، لذلك خلق الله الدنيا . كان فى وسعه أن يملأها رجالا فحسب ، أو نساء فحسب ، ولكن خلق الله الذكر والأنثى ، ومنحنا العقل كي نفهم مراده ، فلا محيد عن الزواج .

فابتسمت الست سنية عفيفى وقالت بركة :

— كلامك كالسكر يا ست أم حميدة !

— حلّى الله دنياك ، وآنس قلبك بالزوج الكامل .

فتشجعت الست وقالت :

— إن شاء الله ، وبفضلك .

— أنا امرأة — بحمد الله — مباركة . زيجاتى لا انفصام لها . يا ما عمرت

بيوتا ، وأنجبت أطفالا ، وأسعدت قلوبا ، فليكن اعتمادك على الله وعلى ..

— جزاؤك لن يقدر بمال .

فقالت أم حميدة فى سرها : « لا .. لا يا مرة ، ينبغى أن يقدر بمال ، وبمال

كثير . هلمى إلى صندوق التوفير وأعطينى ، وكفاك تقيرا .. » ثم قالت بلهجة

رزينة شأن رجال الأعمال إذا فرغوا من المقدمات وطرقوا الهام من الأمور :

— أظنك تفضلين رجلا متقدما فى السن ؟! ..

لم تدر الأخرى بماذا تجيب . لم تكن تطمع في الزواج من شاب ، ولا كان الشاب بالزوج الذى يناسبها ، ولكنها لم ترتح إلى « متقدم فى السن » هذه ، وكان تدرج الحديث قد خلطها بأمر حميدة فآنست إليها ، واستطاعت أن تقول وهى تضحك لتدارى ارتباكها .
— أصوم وأفطر على بصلة ! .

فضحكت أم حميدة ضحكة عالية رنت رنيناً مزعجاً ، وازدادت اطمئناناً إلى نفاسة الصفة التى هى بصدد عقدها ، ثم قالت بنخث :
— صدقت يا ست . والحق أن التجارب دلتنى على أن أسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج ، ولكم يناسبك رجل فى الثلاثين أو يزيد قليلاً .
فتساءلت المرأة فى قلق :
— وهل يوافق ؟

— يوافق ويوافق ! أنت سيدة جميلة وغنية !

— سلمت من كل سوء !

فقالت أم حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجد والاهتمام :
— أقول له سيدة نصف ، ولا ولد لها ولا حماة ، أدب وكمال . صاحبة دكانين بالحمزاوى وببيت ذى طابقين بالمدق ..

فابتسمت الست وقالت تصحح لها ما حسبت هفوة :

— بل ذى ثلاثة طوابق .

ولكن الأخرى قالت معترضة :

— اثنان فحسب ، لأن الطابق الثالث الذى أسكنه لن تقبضى إيجاره مدى حياتى !

فقالت ست سنية فى سرور :

— لك عيناي يا ست أم حميدة !

— سلمت عيناك . ربنا يهينى ما فيه الخير .

فهزت رأسها الأخرى كالمتعجبة وقالت :
— يا للعجب ! جئتك لمجرد الزيارة فانظري كيف انتهى بنا الحديث ؟ وكيف
أغادرك في حكم المتزوجات ؟!
فجارتها أم حميدة في ضحكها كالمتعجبة أيضا ، وإن راحت تقول لنفسها :
« يا مرة احتشمي ، أتخسبين أن مكرك يجوز على ؟ ! » ثم قالت :
— إرادة ربنا ! أليس كل شيء بأمره ؟!
وعادت الست سنية عفيفى إلى شقتها مسرورة فرحة ، بيد أنها حدثت نفسها
قائلة . « إيجار شقة مدى الحياة ! يا لها من امرأة جشعة » .

ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الست سنية لها . كانت تمشط شعرها
الأسود تفوح منه رائحة الكيوسين . فنظرت أم حميدة إلى الشعر الفاحم اللامع
تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتى الفتاة ، وقالت بأسف :
— واحسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هذا الشعر الجميل !
فبرقت عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وطف ، ولاحت فيهما نظرة حادة
صارمة ، وقالت الفتاة بحدة :
— قمل ؟! والنبي ما وجد المشط إلا قملتين اثنتين !
— انسييت يوم مشطتك من أسبوعين وهزست لك عشرين قملة ؟
فقالت بغير مبالاة :
— كان مضى على رأسى شهران بلا غسيل ..
ثم اشتد ساعدها في التمشيط وهي تجلس جنب أمها . كانت في العشرين ،
متوسطة القامة ، رشيقة القوام ، نحاسية البشرة ، يميل وجهها للطول ، في نقاء

ورواء ، وأميز ما يميزها عيناان سوداوان جميلتان ، لهما حور بديع فاتن ، ولكنها إذا أطبقت شفثيها الرقيقتين وحدث بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها ! وقد كان غضبها دائما مما لا يستهان به حتى في زقاق المدق نفسه . وأمها على ما اشتهرت به من القوة تتحاماها ما استطاعت . قالت لها يوما وهما تتسابان : « لن يلم الله شعثك برجل ، فأى رجل يرضى بأن يضم إلى صدره جمرة موقدة ! » . وكانت تقول في مرات أخرى : إن جنونا لا شك فيه ينتاب ابنتها حين الغضب ، وسمتها لذلك الخمسين باسم الرياح المعروفة . ومع ذلك كانت تحبها كثيرا وإن كانت في الحقيقة أمها بالتبني . كانت الأم الحقيقية شريكة لها في الاتجار بالمفتقة والموغات ، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق في ظروف سيئة ، وأخيرا ماتت بين يديها تاركة طفلتها في سن الرضاع ، فتبنتها أم حميدة ، وعهدت بها إلى زوج المعلم بكرشة القهوجى فأرضعتها مع ابنها حسين كرشة ، فهي أخته بالرضاعة .

مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن تعلق أمها على الزيارة والزائرة ، ولما طال الصمت قالت الفتاة :
— طالت الزيارة ، فيم كنتما تتحدثان ؟
فضحكت أمها في سخرية وتمتمت :
— خمنى !

فقلت الفتاة وقد اشتد اهتمامها :

— طلبت رفع الإيجار .

— لو فعلت لخرجت محمولة على أيدي رجال الإسعاف ، ولكنها طلبت خفضه ؟

فصاحت حميدة :

— هل جنت ؟

— أجل جنت ، ولكن خمنى ..

فنفخت الفتاة وهي تقول :

— أتعبتني !

فأرغشت المرأة حاجبها وقالت وهي تغمز بعينها :

— صاحبك تروم الزواج !

فتولت الفتاة الدهشة وقالت :

— الزواج !

— أجل . وتريد شابا . أسفى عليك من شابة عائرة الحظ لا تجد من يطلب

يدها !

فحدجتها الفتاة بنظرة شزراء وقالت وهي تضفر شعرها :

— بل أجد كثيرين ، ولكنك خاطبة فاشلة تريد أن تدارى فشلك . وماذا

بي مما يعيب ؟ ولكنك كما قلت امرأة فاشلة ، يصدق عليك المثل القائل « باب
النجار مخلص ».

فابتسمت أم حميدة قائلة :

— إذا تزوجت الست سنية عفيفى فلا يصح لامرأة أن تياس ..

ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بخدة :

— لست أجرى وراء الزواج ، ولكنه يجرى ورائى أنا ، وسأنبذه كثيرا ..

— طبعاً ! أميرة بنت أمراء !

فتغاضت الفتاة على سخرية أمها وقالت بنفس اللهجة الحادة :

— أفى هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار ؟

ولم تكن الأم فى الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار ، ولا تشك فى

جمالها ، ولكنها كانت كثيرا ما تثور بعجبها وغرورها فقالت باستياء :

— لا تسلقى الزقاق بلسانك ، إن أهله سادة الدنيا !

— سادة دنياك أنت . كلهم كعدمهم ، اللهم إلا واحدا به رmq جعلتموه

أخى !

وكانت تعنى حسين كرشة أخاها بالرضاعة ، فهال أمها الأمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء :

— كيف تقولين هذا ؟ ما جعلناه أخا ، وما نملك أن نصنع أخا ولا أختا ، ولكنه أخوك بالرضاعة كما أمر الله ..

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة :

— ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدى ورضعت أنا من الآخر ؟
فلكمتها أمها في ظهرها وصاحت بها :
— قاتلك الله ..

فغمغمت الفتاة بازدراء :

— زقاق العدم !

— أنت تستحقين موظفا قد الدنيا !

فتساءلت بتحد :

— هل الموظف إله ؟

فتنهت الأم قائلة :

— آه لو تخففين من غلوائك !..

فقلدت لهجة أمها قائلة :

— آه لو تنصفين ولو مرة في العمر !

— آكلة شاربة ثم لا تشكرين . أتذكرين كيف أطلقت على لسانك الطويل

بسبب جلباب !.

فقالت حميدة بدهشة :

— وهل الجلباب شيء يهون ؟.. ما قيمة هذه الدنيا بغير الملابس الجديدة ؟

ألا ترين أن الأولى بالفتاة التي لا تجذ ما تتزين به من جميل الثياب أن تدفن حية ؟

ثم امتلأ صوتها أسفا وهي تقول مستدركة :

— آه لو رأيت بنات المشغل ! آه لو رأيت اليهوديات العاملات ! كلهن يرفلن

في الثياب الجميلة . أجل ما قيمة الدنيا إذا لم نرتد ما نحب ؟!
فقلت الأم باستياء :

— أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك ، وهيات أن يهدأ لك

بال ..

فلم تعبأ قولها وكانت انتهت من تضفير شعرها ، فاستخرجت من جيبها مرآة صغيرة ، ثبتتها على مسند الكنبه ، ثم وقفت أمامها منحنية قليلا لترى صورتها ، ثم غمغمت بلهجة تنم عن الإعجاب :

— آه يا خسارتك يا حميدة ! لماذا توجدني في هذا الزقاق ؟! ولماذا كانت

أملك هذه المرأة التي لا تميز بين التبر والتراب ؟!

ثم دلفت من النافذة الوحيدة في الحجرة التي تطل على الزقاق ، ومدت يديها إلى مصراعها المفتوحين وجذبتهما حتى لم يعد يفرج بينهما إلا مقدار قيراطين من الفراغ ، وارتفعت النافذة ملقية ببصرها إلى الزقاق ، متنقلة به من مكان إلى مكان ، قائلة وكأنما تتخاطب نفسها في سخرية :

— مرحبا يا زقاق الهنا والسعادة. دمت ودام أهلك الأجلاء. يا لحسن هذا المنظر، ويا لجمال هؤلاء الناس. ماذا أرى؟! هذه حسنية الفرانة جالسة على عتبة الفرن كالزكية عينا على الأرغفة وعينا على جعدة زوجها، والرجل يشتغل بخافة أن تنهال عليه لكلماتها وركلاتها. وهذا المعلم كرشة القهوجى متطامن الرأس كالنائم وما هو بالنائم. وعم كامل يغط في نومه، والذباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب. آه. وهذا عباس الخلو يشرق النظر إلى النافذة في جمال ودلال، ولعله لا يشك في أن هذه النظرة سترمينى عند قدمه أسيرة لهواه، أدركونى يا هوه قبل التلف. أما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة، رفع عينيه يا أماء وغضهما، ثم رفعهما ثانية.. قلنا الأولى مصادفة، والثانية يا سليم بك؟! رباه هذه نظرة ثالثة! ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء؟!.. مصادفة كل يوم في مثل هذه الساعة؟! ليتك لم تكن زوجا وأبا إذا لبادلتك نظرة بنظرة، ولقلت

لك أهلا وسهلا ومرحبا . هذا كل شيء ، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتى يقمل !؟ .. أوه .. ها هو ذا الشيخ درويش قادم يضرب الأرض ببقباقه ..

وهنا قاطعتها أمها في سخرية :

— ما أحق الشيخ درويش أن يكون زوجا لك !

فلم تلتفت إليها ، ورقصت لها عجيزتها وهي تقول :

— يا له من رجل مقتدر ، يقول إنه أنفق في حب السيدة زينب مائة ألف ،

فهل يبخل بعشرة آلاف !؟

ثم تراجعت فجأة كأنها ملت موقفها ، وعادت إلى المرأة ملقية إليها نظرا

فاحصا ، وتنهدت وهي تقول :

— يا خسارتك يا حميدة ..

في الثلث الأول من النهار يكتنف الزقاق جو رطب بارد ظليل : لا تزوره الشمس إلا حين تشارف كبد السماء فتتخطى الحصار المضروب حوله ، بيد أن النشاط يدب في الأركان منذ الصباح الباكر ، يفتتحه سنقر صبي القهوة فيهيئ المقاعد ويشعل الوابور ، ثم يتوافد عمال الوكالة أزواجا وأفرادا ، ثم يلوح جمعة حاملا خشبة العجين ، حتى عم كامل نفسه يشغل في هذه الساعة بفتح الدكان وتناول الإفطار عن النعاس !. وكان عم كامل وعباس الحلو يتناولان إفطارهما معا ، فتوضع بينهما صينية عليها طبق المدمس والبصل الأخضر والخيار المخلل . وكان مزاجهما في الأكل مختلفين ، فالحلوسريع يلتهم رغيفه في دقائق معدودات ، أما عم كامل فبطيء بمضغ اللقمة في أناة حتى يكاد يذيقها في فمه ، وكثيرا

ما يقول : إن الطعام المفيد يهضم في الفم أولاً ، ولذلك فالحلو ينتهي من طعامه ، ثم من احتساء الشاي وتدخين الجوزة ، والآ خر ما يزال يمضغ ويقضم البصل ، ولذلك أيضا فلكي يأمن تعدى الحلو على نصيبه يشق الفول بلقمة شطرين ولا يسمح للشباب بتجاوز حده ! وعم كامل — رغم جسامته وضخامته — لا يعد أكل ولا وإن كان يلتهم الحلوى بشراهة . وهو حلواني ماهر ، ولكنه لا يفرغ ما يتمتع به من فن إلا في الطلبات الخاصة التي يوصى عليها أمثال السيد سليم علوان والسيد رضوان الحسيني والمعلم كرشة . وطار في ذلك صيته حتى جاوز المدق إلى الصنادقية والغورية والصاغة . ولكن رزقه على قد عيشته البسيطة دون زيادة ، فلم يكن كاذبا حين شكّا إلى عباس الحلو أنهم لن يجدوا بعد وفاته ما يدفنونه به . وقد قال — ذلك الصباح — مخاطبا الحلو بعد أن فرغا من طعامهما :

— قلت إنك ابتعت لي كفنا ، وهو صنيع تستحق عليه الشكر والدعاء ،

ولكن ما قولك في أن تنزل لي عنه الآن ... ؟

فتعجب عباس الحلو الذي كاد ينسى الكفن كما تنسى عادة الأكاذيب ، وسأله :

— وماذا تريد أن تفعل به ؟؟!

فقال الرجل بصوته الرفيع الذي يحاكي أصوات الغلمان :

— أنتفع بثمانه !. ألا تسمع ما يقال عن ارتفاع أثمان الأقمشة ؟

فضحك الحلو وقال :

— أنت رجل ماكر على رغم ما تتظاهر به من سذاجة . بالأمس شكوت أنك

لن تجد ما تكفن به بعد موتك ، فلما أعددت لك الكفن تريد أن تنتفع بثمانه !

ولكن هيهات أن تنال ما تريد ، لقد ابتعت الكفن لأكرم به جثتك بعد عمر طويل

إن شاء الله ..

فابتسم عم كامل في ارتباك وقال :

— هب أن العمر قد امتد بي حتى تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل الحرب ،

ألا نكون قد خسرنا ثمن الكفن الغالى !؟

— وهبك تموت غدا !؟ .

فقطب عم كامل وقال :

— لا قدر الله !

فقهقه الحلو ضاحكا وقال :

— عبثا تحاول أن تشينى عما اعتزمت . سيبقى الكفن فى حرز حريز حتى

يقضى الله أمرا كان مفعولا ..

وعاوده الضحك فضحك طويلا حتى شاطره الرجل ضحكه . ثم قال

الشاب معاتبا :

— يالك من رجل لا ترجى منه فائدة ! . هل استفدت منك مليما واحدا فى

حياتى !؟ مطلقا . ذقنك جرداء لا تنبت ، وكذلك شاربك . رأسك أصلع .

وليس بهذه الدنيا الواسعة التى تدعوها جسمك شعرة واحدة أنتفع بحلقها .

سامحك الله ..

فابتسم عم كامل قائلا :

— جسم نظيف طاهر لن يشق على أحد غسله ..

وقطع عليهما الحديث صوت يشبه العواء ، فنظرا إلى داخل الزقاق فرأيا

المعلمة حسنية الفرانة تنهال على زوجها جعدة بالشبشب ، والرجل يتقهقر أمامها

لا يملك لها دفعا ، وصراخه يعلو حتى طبق الآفاق ، فضحك الرجلان وصاح

عباس الحلو مخاطبا المرأة :

— العفو والرحمة يا معلمة ..

ولكن المرأة لم تمسك حتى ارتمى جعدة عند قدميها باكيا مستعطفا . ولبث

عباس ضاحكا وهو يقول لعم كامل :

— ما أنخلق جسمك بهذا الشبشب حتى يذوب شحمه !

وظهر عند ذاك حسين كرشة قادما من البيت فى سرواله وقميصه وقبعته .

كان ينظر في ساعة معصمه ، تياها فخورا ، وعيناه الصغيرتان الحاذقتان تمتلئان زهوا . وقد حيا صديقه الحلاق ، ومضى إلى الكرسي داخل الصالون وجلس عليه ليحلق شعره في يوم عطلته . وقد نشأ الصديقان معا في زقاق المدق ، كما رأيا نور الدنيا في بيت واحد ، بيت السيد رضوان الحسيني ، بيد أن عباس الحلوري في هذا النور الدنيوي قبل صاحبه بثلاثة أعوام . وكان الحلوري في ذلك الوقت يعيش في حضانة والديه ، قبل أن يعرفه عم كامل ويشاطره شقيقته بخمسة عشر عاما . وقد قطع الصديقان الطفولة والصبا معا . وأخى بينهما الحب والمودة ، وظلا على صداقتهما حتى بعد أن فرق بينهما العمل ، فاشتغل عباس صبي حلاق بالسكة الجديدة ، وعمل حسين صبيا في دكان دراجات بالجمالية . وقد تباينت أخلاقهما منذ البدء ، ولكن لعل تباينهما هذا كان من أهم الأسباب التي أبقت على صداقتهما ومودتهما . كان عباس الحلوري — ولا يزال — شخصا وديعا ، دمث الأخلاق ، طيب القلب ، ميالا بطبعه إلى المهادنة والمصالحة والتسامح ، أقصى ما يطمح إليه من فنون اللهو اللعب السلمي ، أو ارتياد القهوة لتدخين الجوزة ولعب الكومى ، مع نفور من اللجاج والشجار ، ودراية في اتقائهما بالابتسامة الحلوة و « الله يسامحك يا عم » . وكان يحافظ على صلاته وصومه ، ولا تفوته صلاة الجمعة في سيدنا الحسين . أجل أهل الآن بعض هذه الفرائض ، لا عن استهتار ولكن عن كسل ، وما زال يحافظ على صلاة الجمعة وصوم رمضان . ولم يكن من النادر أن يتحرش به صاحبه حسين كرشة ، ولكنه كان إذا شد صاحبه أرخى ، فلم تصله قبضته القاسية قط . وعرف إلى ذلك بالقناعة والرضا ، حتى إنه واصل عمله « صبيا » عشرة أعوام كاملة ولم يفتح دكانه الصغير إلا منذ خمسة أعوام ، ومنذ ذلك التاريخ وهو يحسب أنه نال أرفع ما يطمح إليه : وقد ملأت هذه الروح القنوعة الراضية بنفسه ، فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان ، وجسمه البدين ، وطابع المرح الذي لا يفارقه . أما حسين كرشة فكان من شطار الزقاق ، مشتهرا بالنشاط والحدق والجرأة ، بل هو معتد أثم إذا (زقاق المدق)

دعا الداعى . وقد اشتغل بادی أمره فى قهوة أبيه ، ولكنهما لم يتفقا ، فهجرها وعمل بـ دكان الدراجات ، ولبث بها حتى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة المعسكرات البريطانية ، وبلغت يوميته بها ثلاثين قرشا — نظير ثلاثة قروش فى عمله الأول — غير ما يسميه « أكل العيش يحب خفة اليد » فارتفعت حاله ، وامتلاً جيبه ، وزفه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود فتمتع بالثياب الجديدة ، وغشى المطاعم ، وأكثر من أكل اللحوم التى هى فى حسابانه طعام المحظوظين ، وارتاد السينمات والملاهى ، وعافر الخمر ، ورافق النساء ، وربما أخذته نشوة كرم فدعا رفاقه إلى سطح البيت حيث يقدم لهم الطعام والنبذ والحشيش . وفى نشوة من نشواته — كما يحكى عنه — قال لبعض مدعويه : « فى بلاد الإنجليز يسمون من كان مثلى فى بحبوحة العيش بالـ لارج (Large) ولما كان مثله لا يعدم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشة اللارج ، ثم حرفت فيما بعد إلى حسين كرشة الجراج ! » .

أمسك عباس الحلو بالماكينة وأقبل على رأس صاحبه بهمة ونشاط ، يصلح من أطرافها ، دون مساس بالشعر المفلفل الذى يكاد يقف من فظاظته وخشونته . ولم يكن يخلو من شعور بالحزن يساوره كلما التقى بذلك الصديق القديم . أجل ما زالا صديقين ، ولكن الحياة تغيرت بطبيعة الحال ، فلم يعد حسين كرشة يواظب على قضاء سهراته بـ قهوة أبيه كما كان يفعل فى الأيام الخالية ، مما دعا إلى ندرة اجتماع الصديقين . ولم يخل الأمر من عاطفة حسد . خامر فؤاد الحلاق كلما ذكر الهوة الواسعة التى تفصل بينهما ، بيد أنه فى حسده — كما هو فى حياته — وديع عاقل لا يتهور ولا يتورط فى خطأ ، فلم ينل صاحبه بلفظ سوء ، وكأنه يغبطه ولا يحسده ، وربما قال لنفسه معزياً : « سوف تنتهى الحرب يوماً ، ويعود حسين إلى الزقاق معدماً كما خرج منه » .

وجعل حسين كرشة — بثرثرته المعهودة — يحدث صاحبه عن حياة « الأورنس » والعمال والمرتبات والسرقات وما يحدث بينه وبين الإنجليز من

نوادرو ومداعبات ! وعما يكنه الجنود لشخصه من الحب والإعجاب ، وقال :
— قال لي الأونباشي جوليان مرة إني لا أفترق عن الإنجليز إلا في اللون !..
وكثيرا ما نصحني بالاعتصام ، ولكن الساعد (وهناك حرك ساعده في زهو)
الذي يربح النقود في أثناء الحرب خليف بأن يربح أضعافها في زمان السلم ، ومتى
تظن الحرب تنتهي ؟! لا يغرنك هزيمة الطليان فأولئك لا حساب لهم في الحرب ،
ولسوف يحارب هتلر عشرين عاما !. والأونباشي جوليان من المعجبين
بشجاعتي ، ويثق في ثقة عمياء ، وبفضل هذه الثقة يسرحني في تجارته الواسعة
من تبغ وسجائر وشوك وسكاكين وملاءات أسرة وجوارب وأحذية !.. دنيا !
فتمتم عباس الحلو متفكرا :

— دنيا !

فألقي حسين على صورته في المرآة نظرة متفحصة وقال :
— أتدرى أين أذهب الآن ؟.. إلى حديقة الحيوان . أو تدرى مع من ؟.. مع
بنت كالكشدة والشهد (وقبل الهواء قبلة ذات وسوسة) وسأنتلق بها هناك إلى
أقفاص القروود .

وقهقهه عاليا ثم استدرك :

— أراهن على أنك تتساءل : لماذا القروود ؟. وهذا طبيعي من إنسان مثلك لم
ير إلا قرد القرداتي . فاعلم يا حمار أن القروود في حديقة الحيوان تعيش جماعات
في أقفاص . وهي كبيرة الشبه بالإنسان في صورته وسوء أدبه ، تراها تتغازل
وتتحاب في علانية مكشوفة ، فإذا سقت الفتاة إلى هنالك تفتحت لي الأبواب !
فتمتم الحلو وهو يكب على عمله :

— دنيا !.

— النساء علم واسع لا تحذقه بمجرد شعرك الرجل :
فضحك الحلو ونظر إلى شعره في المرآة ، وقال بصوت منكسر :
— أنا رجل مسكين !

فحدج صورته في المرأة بنظرة حادة وتساءل متهمكا :
— حميدة !؟ .

فخفق قلب الحلو بعنف لأنه لم يكن يتوقع سماع هذا الاسم المحبوب ، وتمثلت
لعينيه صورتها ؛ فتورد وجهه ، وغمغم وهو لا يدري :
— حميدة .. !

— أجل حميدة بنت أم حميدة !
ولاذ الحلاق بالصمت وقد لاح في وجهه الارتباك ، وراح الآخر يقول
بحدة :

— يا لك من رجل خامل معدوم الحياة .. عيناك نائمتان ، دكانك نائم ،
حياتك نوم وخمول ، أعياني إيقاظك يا ميت . أتحسب أن هذه الحياة خليقة
بتحقيق آمالك !؟ هيهات ، ولن ترزقك مهما سعيت بأكثر من لقمتك .
فلاح التفكير في العينين الهادئتين وقال متكدرا بعض الكدر :
— الخيرة فيما اختاره الله ..

فقال الشاب ساخرا :

— عم كامل ، قهوة كرشة ، الجوزة ، الكومى ١٢ .
فقال الحلو في حيرة :

— لماذا تهزأ بهذه الحياة ؟

— أهى حياة حقا ؟ . هذا الزقاق لا يحوى إلا موتا . وما دمت فيه فلن تحتاج
يوما للدفن . عليك رحمة الله .

فسأله الحلو بعد تردد وإن كان يدري ما الآخر قائله :
— وماذا تريدنى على أن فعل ؟

فصاح به الفتى :

— طالما أخبرتك . طالما نصحتك . انخلع رداء هذه الحياة القذرة الحقيرة .
أغلق هذا الدكان . اهجر هذا الزقاق . أرح عينيك من جثة عم كامل . وعليك

بالجيش الإنجليزى . الجيش الإنجليزى كثر لا يفنى . هو كنز الحسن البصرى ، ليست هذه الحرب بتقمة كما يقول الجهلاء ، ولكنها نعمة النعم ، لقد بعثها ربنا ليتشلنا من وهددة الشقاء والعوز . على الرحب والسعة ألف غارة وغارة ما دامت تقذفنا بالذهب . ألم أنصحك بالالتحاق بالجيش ؟ وما زلت أقول لك إن الفرصة سانحة . حقا هزمت إيطاليا ولكن ألمانيا باقية ، ووراءها اليابان ، وسوف تطول الحرب عشرين عاما . أقول لك للمرة الأخيرة إنه توجد أماكن شاغرة فى التل الكبير . سافر !

واستيقظ خيال الحلو ، واضطربت عواطفه : حتى وجد صعوبة فى امتلاك عنانه وإتقان عمله . لم يكن ذلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ولكنه نتيجة لإلحاحه المتواصل كلما قابله . كان بطبعه قنوعا ، عزوفا عن الحركة ، هيبا لكل جديد ، مبغضا للأسفار ولو ترك وشأنه ما اختار عن المدق بديلا ، ولولبت فيه مدى الحياة لما مله ولا فتر حبه له . ولكن طموحه صحا بعد سبات ، وكان كلما دبت فيه الحياة امتزج فى نفسه بصورة حميدة ، أو لعل حميدة هى التى أيقظته وبعثته بعثا جديدا ، فكان طموحه وصورته المحبوبة شيئا واحدا لا يتجزأ . وعلى رغم هذا كله خاف أن ييوح بذات نفسه ، وكأنما أراد أن يفسح لنفسه وقتا للتدبر والتفكير ، فقال متظاهرا بالإحجام والإباء :

— السفر ابن كلب !

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به :

— أنت ابن ستين كلب . السفر خير من زقاق المدق ، وخير من عم كامل ؟

سافر وتوكل على الله . أنت لم تولد بعد . ماذا أكلت ؟ ماذا شربت ؟ ماذا لبست ؟ ماذا رأيت ؟ صدقنى إنك لم تولد بعد ..

فقال عباس متأسفا :

— من المحزن أنى لم أولد غنيا .

— من المحزن أنك لم تولد بتنا ! لو ولدت بتنا لكنت من بنات الدقة القديمة ،

حياتك في البيت وللبيت ، لا سينما ولا حديقة الحيوان ، حتى ولا الموسكى الذى ترتاده حميدة في العصارى ..

فضاعف ذكر هذا الاسم من ارتبأكه ، وآله أن ينطق به صاحبه مستهينا ساخرا كأنه لفظ تافه لا يثير مكان من القلوب ، وقال مدافعا عن فتاته :
— أختك حميدة فتاة كريمة الأخلاق ، ولا يعيبها أن تروح نفسها بالمشى في الموسكى .

— أجل ولكنها فتاة طموح ما في ذلك من شك ، ولن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك ..

وعاود قلبه الخفقان العنيف ، والتهب وجهه احمرارا ، وذابت نفسه وجدا وقلقا وانفعالا .. وكان انتهى من حلق رأس الشاب ، فراح يمشطه دون أن ينبس بكلمة ، وفكره لا يستريح من اضطرابه . ثم نهض حسين كرشة وأعطاه نقوده . وقبل أن يغادر الدكان اكتشف أنه نسي منديله فرجع مسرعا إلى البيت . وجعل يتابعه بعينيه من موقفه ، فلاح لعينيه مرحا نشيطا سعيدا ، وكأنه يرى فيه هذه الصفات لأول مرة . « لن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك » . صدق حسين بلا ريب ، إنه يعيش عيشة الكفاف ، ولا يكاد يتمخض كدح يومه عن رزق ذلك اليوم ، فإذا أراد أن يبنى عشه في هذه الأيام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد . إلام يقنع بالأحلام والتمنى وهو قابع هامد مغلول اليد والإرادة ؟ لماذا لا يجرب حظه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون ؟ « فتاة طموح » هكذا يقول حسين ، وإن كان هو لا يدري شيئا على وجه التحقيق ، وربما كان حسين أدري بها ، لأنه — عباس — اعتاد أن يراها بعين الحب الحاملة الخالقة . وإذا كانت فتاته طموحا فلا معدى له عن أن يكون طموحا كذلك . ولعل حسين يحسب غدا — وقد ابتسم لهذا الخاطر — أنه أيقظه من سباته وخلقه خلقا جديدا ، ولكنه يعلم دون الناس جميعا أنه لولا ذاك الشخص المحبوب ما استطاع شيء أن ينزعه من قناعته الوديعة المستسلمة . وشعر عباس في هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوة الحب وسلطانه وسحره العجيب . ولعله أخس —

إحساسا غامضا لا يرتقى لمرتبة الوعي والفكر — بقدرة الحب على الخلق والتعمير ، فموضع الحب من نفوسنا هو مهبط الخلق والإبداع والتجديد . ولذلك خلق الله الإنسان محبا ، وترك مهمة تعمير الوجود أمانة في رعاية الحب . وقد تساءل الفتى في وجدده وانفعاله لماذا لا يسافر ؟ ألم يعيش في هذا الزقاق حوالى ربع قرن من الزمان ؟! فماذا أفاده ؟ إنه زقاق لا يعدل بين أهله ، ولا يجزيهم على قدر حبهم له . وربما ابتسم لمن يتجهمه وتجهم لمن يتسم له ، فهو يقتر عليه الرزق تقطيرا ، ويغدقه على السيد سليم غدقا ، وعلى كئيب منه تتكدس رزم الأوراق المالية حتى ليكاد يشم عرفها الساحر ، في حين أن راحته لا تقبض إلا على ثمن الرغبة ، فليكن سفر ، وليتغيرن وجه الحياة .

جرى فكره هذا الشوط البعيد ، ولبث واقفا أمام دكانه ينظر إلى عم كامل وقد مضى يغط غطيطا والمذبة في حجره ، ثم سمع وقع أقدام خفيفة آتيا من أعلى الزقاق ، فتحول إليه فرأى حسين كرشة عائدا في خطوات واسعة . واستمر به الانفعال والقلق ، ونظر إليه كما ينظر المقامر إلى كرة الروليت الدائرة ، حتى حاذاه وأوشك أن يفوته ، فوضع يده على كتفيه وقال له بقوة وعزم :
— حسين ، أريد أن أحدثك في أمر هام ..

العصر ...

عاد الزقاق رويدا رويدا إلى عالم الظلال : والتفت حميدة في ملاءتها ، ومضت تستمع إلى دقات شبشبها على السلم في طريقها إلى الخارج . وقطعت الزقاق في عناية بمشيتها وهيئتها لأنها تعلم أن أعينا أربعا تتبعها متفحصة ثاقبة ، عيني السيد سليم علوان صاحب الوكالة ، وعيني عباس الحلو الحلاق . ولم تكن

تفاهة ثيابها لتغيب عنها ، فستان من الدمر وملائة قديمة باهتة وشبشب رق
نعلاه ، بيد أنها تلف الملائة لفة تشى بحسن قوامها الرشيق ، وتصور عجيزتها
الملحومة أحسن تصوير ، وتبرز ثديها الكاعين ، وتكشف عن نصف ساقها
المدملجتين ، ثم تنحسر في أعلاها عن مفرق شعرها الأسود ووجهها البرنزي
الفاتن القسمات ، وكانت تعتمد ألا تلوى على شيء فتحدّر من الصناديق إلى
الغورية ثم إلى السكة الجديدة فالموسكى .. حتى إذا غابت عن الأعين الثاقبة
علت شفيتها ابتسامة ، وراحت تنهب الطريق الزاخر العامر بعينها الجميلتين .
هي فتاة مقطوعة النسب ، معدمة اليد ، ولكنها لم تفقد قط روح الثقة
والاطمئنان . ربما كان لحسنها الملحوظ الفضل في بث هذه الروح القوية في
طواياها ، ولكن حسننها لم يكن صاحب الفضل وحده ، كانت بطبعها قوية ، لا
يخذلها الشعور بالقوة لحظة من حياتها ، وكانت عيناها الجميلتان تنطقان أحيانا
بهذا الشعور نطقا يذهب بجمالها في رأى البعض ويضاعفه في رأى البعض الآخر .
فلم تفتأ أسيرة لإحساس عنيف يتلهف على الغلبة والقهر ، يتبدى في حرصها على
فتنة الرجال ، كما يتبدى في محاولتها التحكم في أمها ، ويتعري في أسوأ مظاهره
فيما يشجر بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك ، حتى أبغضنها
جميعا ، ورمينها بكل سوء . وربما كان من أغرب ما رميت به أنها تبغض
الأطفال ، وأنها بالتالى متوحشة محرومة من نعمة الأنوثة ، وهذا ما جعل امرأة
المعلم كرشة القهوجى — أمها بالرضاعة — تتمنى على الله أن تراها أما ترضع
الأطفال في كنف زوج جبار يبيتها بالضرب ويصبحها بالضرب ! مضت في
سبيلها مستمتعة بنزهتها اليومية ، مرددة الطرف في معارض المتاجر المتعاقبة .
كانت تهوى مشاهدة المعروضات النفيسة من الثياب والآنية ، فتثير في نفسها
الطموح المتلهفة على القوة والسيطرة أحلاما ساحرة ، ولذلك تركزت عبادتها
للقوة في حب المال على اعتبار أنه المفتاح السحري للدنيا ، المسخر لجميع قواها
المذخورة . فجل ما كانت تعرفه عن نفسها أنها تحلم بالمال ، المال الذى يأتى

بالثياب وبكل ما تشتهيهِ الأنفس. وعسى أن تتساءل: أيمكن يا ترى أن تبلغ يوماً ما. تتمنى؟! لم تكن الحقائق لتغيب عنها، ومع ذلك فهي لا تنسى قصة فتاة من بنات الصناديق، كانت فقيرة في الأصل مثلها، ثم أسعفها الحظ بزواج ثرى من المقاولين فانتشلها من وهبتها، ونقلها من حال إلى حال. فماذا يمنع القصة أن تتكرر، والحظ أن يتسم مرتين في هذا الحى؟! ليست ذون صاحبها جمالا، والحظ الذى لعب دوره فى حياة الأخرى يستطيع أن يعيده مرات ومرات دون عناء أو خسارة. بيد أن هذا الطموح كان يضطرب فى دنيا ضيقة تنتهى عند حدود ميدان الملكة فريدة، لا يدرى عما وراءها شيئا، ولا عما تحويه هذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ، ولا كم منهم يلقى خيرا وسعدا، وكم منهم يتردد مثلها حائرا لا يعلم لنفسه مرسى، فعلى كئيب من هذه المنطقة رأت صويجباتها من عاملات المشغل قادمات، فهرعت نحوهن وقد تخلصت من جميع أفكارها وابتسمت أساريرها، وسرعان ما سلمن وأخذن فى تافه الأحاديث، وهى تتفحص وجوههن وثيابهن بأعين ناقدة، ذاهبة نفسها حشرات على ما يتمتعن به من حرية وجاه. أولئك فتيات صغيرات من أهل الدراسة، خرجن بحكم ظروفهن الخاصة البائسة وظروف الحرب عامة عن تقاليدهن الموروثة، واشتغلن بالحال العامة مقتديات باليهوديات. ذهبن إليها مكدودات هزيلات فقيرات، وسرعان ما أدركهن تبدل وتغير فى ربح قصير من الزمن، شعبن بعد جوع، وكسين بعد عرى، وامتلأن بعد هزال، ومضين على أثر اليهوديات فى العناية بالمظهر وتكلف الرشاقة، ومنهن من يرطن بكلمات، ولا يتورعن تأبط الأذرع والتخبط فى الشوارع الغرامية، تعلمن شيئا واقتحمن الحياة. أما هى فقد فوت عليها عمرها وجهلها ما يمرحن فيه من فرص. وهى تمشح بهن والحسرة ملء حناياها، غابطة حياتهن المرفهة وثيابهن المزركشة وجيوبهن العامرة. كانت تضاحكهن فى صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها، ثم لا تتردد عن نهشهن ولو على سبيل الدعاية الساخر— لأقل هفوة، فهذه فستانها قصير معدوم الحياء، وهذه ذوقها سقيم، وتلك عيناها تزوغان من التحديق فى الرجال، والرابعة كأنها نسيت أيام كان القمل يزحف على رقبتها

كأنمل ؟ كان هذا اللقاء بلا ريب من بواعث تمردها الدائم ، ولكنه كان كذلك أكبر تسلية لها في يومها الطويل المفعم تبرما وعراكا ، ولذلك قالت يوما لأُمها وهي تنهد :

— حياة اليهوديات هي الحياة حقا !

فانزعجت أمها وقالت :

— إنك من نبع أبالسة ودمى برىء منك ..

فقالت الفتاة إمعانا في إغاظتها :

— ألا يجوز أن أكون من صلب باشوات ولو عن سبيل الحرام ؟

فهزت المرأة رأسها وقالت ساخرة :

— رحم الله أباك بائع الدوم بمرجوش ..

سارت وسط صويحباتها تياهة بجماها ، مدرعة بلسانها الطويل ، يلذها أن الأعين تمر بهن مر الكرام وتستقر عليها دونهن . ولما انتصف الموسيقى أو كاد لاحت منها التفاتة إلى الطريق فرأت عباس الحلوى يسير متأخرا عنهن قليلا وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المألوفة ، وتساءلت عما دعاه إلى ترك دكانه في هذه الساعة على غير عادة . هل تبعها عمدا ؟ ألم يعد يقنع برسائل النظر ؟ . كان على فقره متأنقا كأكثرية أهل فنه ، فلم يضايقها ظهوره . وقالت لنفسها إن أية واحدة من صاحباتها لا تطمع في زوج خير منه ، وكانت تجد نحوه شعورا غريبا معقدا ، فهو من ناحية الشاب الوحيد في الزقاق الذي يصلح لها زوجا ، وهي من ناحية أخرى تحلم بزواج على مثال المقاول الغنى الذي حظيت به جاريتها في الصناديق فهي لا تحبه ولا تتمناه ، وفي الوقت نفسه لا تقطعه ، ولعلها تسرها نظراته المشوقة .. وكان من عادتها أن توصل الفتيات حتى نهاية الدراسة ثم تعود بمفردها إلى الزقاق ، فسارت بينهن وهي تسترق النظر ، فلم تعد تشك في أنه يتبعها عامدا ، وأنه ينوى أن يخرج عن صمته أخيرا . ولم تخطئ ظنونها فما كادت تودع آخر الفتيات وتدور على عقبيها حتى انحدر نحوها من الطوار ، في خطوات

مضطربه ووجه ينطق بالانفعال ، وقاربها حتى حاذاها ، ثم قال بصوت متهدج :
— مساء الخير يا حميدة ..

فالتفت نحوه كالمنزعجة وكأنها بوغتت بظهوره مباغته ، ثم قطبت وأوسعت
خطاها دون أن تنبس بكلمة ، فتورد وجهه . ولكنه عاد يقول بصوت ينم عن
العتاب :

— مساء الخير يا حميدة .

وخافت إن هي لازمت الصمت مع هذا الخطر الحثيث أن ينتهيا إلى الميدان
المأهول قبل أن يقول ما يريد ، وكانت راغبة في سماعه ، فقالت في لهجة تنطق
بالاستياء :

— يا للعار ! جار وتفعل كالغريب !

فقال عباس بلهفة :

— بل جار حقا ، ولا أفعل كالغريب ، أحرام على الجار أن يتكلم ؟

فقالت عابسة :

— نعم ، الجار يحمي جارته ، لا أن يهاجمها ..

فقال الشاب بصدق حار :

— أنا جار أعلم واجبات الجار ، ولم يخطر ببالى قط أن أهاجمك — لا سمح

الله — بيد أنى أريد أن أحدثك ، ولا عيب أن يحدث الجار جارته ..

— كيف تقول هذا ؟! أليس من العيب أن تتعرض لى فى الطريق ، وتعرضنى

للفضيحة ..

فهاه قولا . وقال بأسف :

— الفضيحة ؟ .. معاذ الله يا حميدة . صدرى طاهر ، ولا يكن لك إلا الطهر

وحياة الحسين ، وستعلمين أن كل شىء سينتهى بما أمر به الله لا بالفضيحة ، فأصغى

إلى قليلا ، أريد أن أحدثك عن أمر هام . ميلى بنا إلى شارع الأزهر بعيدا عن أعين

الذين يعرفوننا ..

فقلت باستياء متصنع :

— بعيدا عن أعين الناس ؟ ما شاء الله ..! دمت من جار طيب حقا !.

وكان قد تشجع بمنازعتها إياه الحديث فقال بحرارة :

— ما ذنب الجار ؟!.. أيموت قبل أن ييوح بذات نفسه !

فقلت بسخرية :

— ما أظهر كلامك ..

فقال عباس بلهفة وشت بإشفاقه من اقتراب الميدان المأهول :

— طاهر النية وسيدنا الحسين . لا تسرعى هكذا يا حميدة . ميلى بنا إلى

شارع الأزهر . أريد أن أقول لك كلمة هامة . ينبغي أن تصغى إلى . أنت

تعلمين ولا شك بما أريد أن أقوله . ألا تعلمين ؟ ألا تشعرين ؟ قلب المؤمن

دليله ..

فقلت كالغاضبة :

— لقد جاوزت حدك . كلا .. كلا .. دعنى ..

— حميدة .. أنا أريد أن .. أنا أريدك ..

— يا للعار . دعنى وإلا فضحتنى أمام الخلق ..

وكانا قد بلغنا ميدان الحسين ، فمرقت من جانبه إلى الطوار الأيسر وحشت

خطاها على عجل ، ثم انعطفت إلى الغورية وهى تبسم ابتسامة خفيفة . كانت

تعلم ما يريد قوله كما قال ، ولم تنس أنه الفتى الوحيد الصالح لها فى الزقاق ، وقد

قرأت فى عينيه البارزتين آى الحب كما قرأتها مرارا من نافذتها فى الماضى القريب ،

ولكن هل حرك ذلك جميعه قلبها الجحود ؟ أما حالته المالية التى تعلم عنها الشئ

الكثير فلا يمكن أن تحرك فيها ساكنا ، وأما شخصه فوديع تنم عيناه عن القناعة

والخضوع ، مما يجعله خليقا بأن يرتاح إليه فؤادها المغرم بالسيطرة ، بيد أنها

وجدت نحوه — رغم ذلك — نفورا لم تدر له سببا . ماذا تريد إذا ؟ ومن يرضيها

إذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيب ؟ لم تهتد لجواب بطبيعة الحال ، وقد

عزت نفورها منه إلى فقره !.. والظاهر أن حبها السيطرة كان تابعا لحبها العراك
لأالعكس ، فلم تهش للمسألة ، ولم تفرح بظفر هين سهل المنال . وكان قلبها
ما يزال في غفوته لم يستب بعد رغائبه ، فملأها شعورها المبهم الغامض حيرة
وقلقا .

ونكص عباس الحلو عن ملاحقتها خيفة الأعين ، فراجع مفعم الفؤاد خيبة
وحسرة ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن اليأس . قال لنفسه وهو يسير متمهلا
غافلا عما حوله : إنها بادلتها الكلام طويلا . ولو قصدت صده ونبذه ما منعها ولا
أعيتها الحيلة ، فهي لا تكرهه ، ولعلها تتدلل شأن الفتيات جميعا ، ولعله الحياء
الذى جعلها تقطع عليه سبيل التودد بالفرار . فكان أبعد الناس عن اليأس ، بل
راح يستسلم لمغازلة الأمل وتوثب للكرة التالية . وقد سكر قلبه برحيق نشوة
ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل . كان محبا صادقا ملتهب العاطفة ، وكان
يشعر حيال نظرتها النافذة الجميلة بخضوع كلى . ولذة لا حد لها ، وحب لا
يبيد . أجل كان كأمثاله من الفتیان مولعا بالنساء عامة ، ولكنه كان كالحمام يخلق
في السماء ويطوف بأطرافها ثم يقع في النهاية على برجه مليبا صغير صاحبه ، فهي
دون النساء جميعا أمله المنشود . أجل لم تعد مخاطرته خائبة ، وتفتحت له أكام
الأحلام عن زهر الآمال ، فعاد منتشيا مسرورا بحبه وبشبابه . ولما عرج إلى
الضنادقية صادف الشيخ درويش قادما من ناحية الحسين ، فالتقيا عند مطلع
الزقاق ، وأقبل على الشيخ يريد أن يصفحه تبركا ، ولكن الشيخ أشار نحوه
بسيابته محذرا ، وحملق في وجهه بعينييه الذابلتين وراء نظارته الذهبية وقال :

— لا تمش بلا طربوش ! احذر أن تعرى رأسك في مثل هذا الجو ، في مثل

هذه الدنيا ، فمخ الفتى يتبخر ويطير ، وهذا أمر معروف في المأساة ومعناه

بالإنجليزية Tragedy وتهجيتها Tragedy .

وكان المعلم كرشة قد شغل بأمر هام ، ومن النادر أن ينصرف عام من حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر ، على ما يسببه له من الكدر والتنغيص ، بيد أنه كان رجلا مسلوب الإرادة ، لم يترك له الحشيش من إرادته نفعا . ومع ذلك كان على خلاف الأكثرية من تجار هذا الصنف في حكم الفقراء ، لا لأن تجارته غير نافقة ، ولكن لأنه كان مبذرا — في غير بيته — يبعثر ما يربحه ، وينثر المال بلا حساب ، جاريا وراء شهواته ، خصوصا هذا الداء الويل .

وعندما أذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن ينبئ سنقر عن طيته ، مرتديا عباءته السوداء ، متوكئا على عصاه العجرا ، ينقل على مهل خطواته الثقيلة ! ولا تكاد تدل عيناه المظلمتان المختفيان تقريبا وراء جفنيه الغليظين على أنه يحسن رؤية طريقه ، وكان قلبه يخفق ! والقلب يخفق ولو شارب صاحبه الخمسين ، ومن عجب أن المعلم كرشة قد عاش عمره في أحضان الحياة الشاذة ، حتى نال لظول تمرغه في ترابها أنها الحياة الطبيعية . هو تاجر مخدرات اعتاد العمل تحت جناح الظلام ، وهو طريد الحياة الطبيعية وفريسة الشذوذ ، واستسلامه لشهواته لا حد له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه . بل إنه ليظلم الحكومة في تعقبها لأمثاله ، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته الأخرى ماثرا للازدراء والاحتقار ، فيقول عن الحكومة : « إنها تحلل الخمر التي حرمها الله ، وتحرم الحشيش الذي أباحه ! وترعى الحانات الناشرة للسموم ، في حين تكسب (الغرز) وهي طب النفوس والعقول . وربما هز رأسه آسفا وقال : « ماله الحشيش ! » راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هذا وذاك فهو مدر للنسل ! » وأما شهوته الأخرى فيقول بقنحته المعهودة : « لكم دينكم ولي دين ! » ولكن

إيلافه شهواته لا يمنع من أن يخفق قلبه كل مطلع هوى جديد . وقد سار متمهلا في الغورية ومستسلما لخواطره ، يتساءل والأمل ملء قواده : « ماذا يا ترى وراءك أيها المساء ؟ » وعلى رغم انهماكه في مخاطره كان يحس بالدكاكين على الصفيين إحساسا غامضا ، ويرد بين الفينة والفينة تحيات بعض أصحابها من معارفه . وكان يسيء الظن بهذه التحيات وأمثالها ، ولا يدرى إن كانت لمحض السلام أم أن وراءها من الغمز واللمز . فالناس لا يريحون ولا يستريحون ، ويتلقفون المثالب بأفواه نهمة جشعة . ولطالما قالوا فيه وأعادوا ، فماذا أفادهم التشهير ؟ لا شيء ! وكأنه ولع بتحديثهم فراح يجهر بما كان يسره ، وهكذا مضى في سبيله حتى اقترب من آخر دكان على يساره فيما يلي الأزهر ، فاشتد خفقان قلبه وتناسى تحيات الناس التي أثارت سوء ظنه ، وانبعث من عينيه المنطفعتين نور خافت شرير . وراح يدنو منه بفيه الفاغر وشفته المتدلية ، وجزاز عتبه ، دكان صغير يجلس في صدره شيخ عجوز وراء مكتب صغير ، ويستند إلى أحد رفوفه المكدسة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليافع . ما إن رأى القادم حتى استقام ظهره ، وتلقاه بابتسامة البائع اللبق . وارتفع الجفنان الثقيلان لأول مرة ، واستقرت العينان على الشاب ، ثم حيا بركة . ورد الشاب التحية في لطف ، وقد أدرك لأول وهلة أنه يرى هذا الرجل للمرة الثالثة في ثلاثة أيام متتابعات . وقد تساءل : لماذا لا يبتاع ما يريد مرة واحدة ؟!

وقال المعلم :

— أرني ما عندك من جوارب ..

فأحصر الشاب أنواعا منها وبسطها على « طاولة » المحل ، وأخذ المعلم يتفحصها وهو يخالس النظر إلى وجه الشاب ، والشاب لا يخفى أمره عليه ، وقد دارى ابتسامة كادت ترسم على ثغره . وتعمد أن يطيل الفحص والتقصي ، ثم قال للشباب بصوت منخفض :

— لا تؤاخذني يا بني فبصرى ضعيف ، هلا اخترت لي لونا مناسبا بذوقك

الجميل ..

وسكت لحظات يتفرس في وجهه ، ثم أردف وهو يرسم ابتسامة على شفته

المتدلّية :

— كوجهك الجميل ..

فأراه الشاب الجميل نوعا متجاهلا إطرأه ، فاستدرك الرجل قائلا :

— لف لي ستة ..

وتريث حتى مضى الشاب يلف الجوارب ، ثم قال :

— الأفضل أن تلف لي اثني عشر .. أنا رجل لا ينقصني المال والحمد لله !!

ولف الشاب له ما أراد صامتا ، ثم غمغم وهو يناوله الليفة :

— مبارك ..

فابتسم المعلم كرشة ، أو بمعنى آخر انفرج فمه انفراجة آلية قصيرة يرافقها

اضطراب خفيف في جفنيه ، وقال بخبث :

— شكرالك يا بني (ثم بصوت خفيض) الحمد لله !

وغادر الدكان بعد أداء الثمن منفعلا كما دخله . واتجه نحو شارع الأزهر ، ثم

عبره مهرولا إلى الناحية الأخرى ، ووقف لصق شجرة في مقابل الدكان مستظلا

بالظلمة الآخذة في الانتشار . وقف يدا متوكعة على العصا ويذا قابضة على

الليفة ، وعيناه لا تتحولان عن الدكان من بعيد . كان الشاب بموقفه حين دخل

الدكان وقد شبك ذراعيه على صدره ، فجعل ينظر نحوه ، لا يكاد يرى منه

إلا صورة غامضة المعالم ، ولكن ذاكرته وخياله أسعفاه بما لم يسعفه به البصر

الكليل . وراح يقول لنفسه : « أدرك المراد بلا ريب ! » ثم ذكر كيف كان

رقيقا لطيفا مؤدبا . ورجعت أذناه صوته وهو يغمغم : « مبارك » فأثلج صدره

وتنهّد من الأعماق . لبث في مكانه سويعة مضطربا بالقلق والتوتر ، حتى رأى

الدكان يغلق أبوابه ، وقد افترق عنده الشيخ العجوز الذي اتجه صوب الصاغة ،

والشاب الذى سار نحو شارع الأزهر . وابتعد المعلم عن الشجرة رويدا رويدا ،
ونسار فى الاتجاه الذى يتسمته الشاب . فرآه هذا بعد أن عبر ثلثى الطريق ولكنه
لم يبد اهتماما ، وأوشك أن يمر به دون اكتراث لولا أن دنا منه المعلم وقال برقة :
— مساء الخير يا بنى .

فنظر الشاب وقد نمت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتمتم :

— مساء الخير يا سيدى .

فسأله بمحض الرغبة فى مجاذبته الحديث :

— أغلقت الدكان ؟

ولاحظ الشاب أن الرجل يتأقل كأنما يدعوهُ إلى التريث ، ولكنه ثابر على
مشيته وهو يقول :

— أجل يا سيدى ..

فاضطر الرجل إلى مسيرته ، فسارا معا على الطوار والمعلم لا يحول عنه
رأسه ، ثم قال :

— ساعات عملك طويلة ، كان الله فى عونك ..

فنفخ الشاب قائلا :

— ما الحيلة ؟ أكل العيش يحب التعب .. !

فسر المعلم بإقبال الفتى على محادثته ، واستبشر خيرا برقته وقال :

— رزقك الله بتعبك يا بنى ..

— أشكر لك يا سيدى ..

فقال الرجل بحماسة :

— تعب كلها الحياة حقا ، ولكن من النادر جدا أن ينال التعب الجزاء الذى

يستحقه ، فما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا ..

فشد هذا الكلام على وتر حساس فى قلب الفتى وقال بتبرم :

— صدقت يا سيدى ، ما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا ..

(زقاق المدق ،

— الصبر مفتاح الفرج . أجل ما أكثر المظلومين ، ومعنى هذا بالحرف الواحد ما أكثر الظالمين . ولكن من لطف الله أن الدنيا لا تخلو من رحماء كذلك ..

فتساءل الفتى :

— أين هؤلاء الرحماء ؟

وكاد يجيبه : « ها أنذا واحد منهم » ، ولكنه أمسك عن ذلك ، وقال بلهجة العاتب :

— لا تكن متشائما يا بنى فامة محمد بخير ، (ثم غير لهجته قائلا) علام

تسرع ؟ أمستعجل أنت ؟؟

— ينبغي أن أذهب إلى البيت لأغير ملابسى ..

فسأله باهتمام :

— وبعد ذلك ؟

— أنطلق للقهوة .

— أية قهوة ؟

— قهوة رمضان .

فابتسم المعلم ابتسامته الآلية حتى لمعت أسنانه الذهبية في الظلمة ، وتساءل

في إغراء :

— لماذا لا تشرف قهوتنا ؟

— أية قهوة يا سيدى ..؟

فاخشوشن صوت المعلم وهو يقول :

— قهوة كرشة بالمدق ، محسوبك المعلم كرشة !

فقال الفتى بامتنان :

— تشرفنا يا معلم ، هذه قهوة ذائعة الصيت ..

فسر المعلم ، وسأله بلهجة تشى بالرجاء :

— أتأتى ؟

— إن شاء الله ..

فقال المعلم كمن نفذ صبره :

— كل شيء بمشيئة الله . ولكن أتوى الحضور حقا أم تقول ذلك تملصا

منى ؟

فضحك الشاب ضحكة رقيقة وقال :

— بل أنوى الحضور حقا ..

— الليلة إذا !

ولما لم ينبس الفتى بكلمة ، قال الآخر بتوكيد وقلبه يرقص طربا :

— لا بد ..

فغمغم الشاب :

— بإذن الله .. !

فتهد الرجل بصوت مسموع ثم سأل :

— أين تقيم ؟

— عطفة الوكالة ..

— نحن جيران تقريبا . متزوج ؟

— كلا .. مع أهلى ..

فقال برقة :

— أنت ابن ناس طيبين كما يبدو لى ، الإناء الطيب ينضج ماء طيبا . وينبغى

أن ترعى مستقبلك بعين الاهتمام . إذ لا يجوز أن تبقى مدى العمر عاملا بسيطا

فى دكان ..

فلاح الاهتمام والطموح فى الوجه الجميل ، وتساءل الشاب فى خبث :

— وهل لمثل أن يطمع فى أكثر من هذا ؟!

فقال المعلم كرشة باستهانة :

— هل ضاقت « بنا » الحيل ! ألم يكن جميع الكبار صغارا !

— بلى كانوا ، ولكن ليس من المحتم أن ينقلب الصغير كبيرا ..

فأردف المعلم يتم كلام الفتى :

— إلا إذا صادفه التوفيق ! فلنذكر هذا اليوم الذى تعارفنا فيه على أنه توفيق

عظيم . أنتظرك الليلة ١٢

فتردد الفتى قليلا ، ثم قال مبتسما :

— لا يأتى الكرامة إلا لئيم !..

وتصافحا عند بوابة المتولى ، ثم رجع المعلم يخبط فى الظلماء ، صحا الرجل
الذاهل وسرى فى صدره دفء السرور ، ولم يكن يستيقظ من دنيا النسيان التى
يغط فيها إلا إذا لطمته موجة عنيفة من شهواته الخبيثة ، ومر فى طريقه بالدكان
المغلق فألقى عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق ، وعاد إلى الزقاق وقد أغلقت
دكاكينه . وكانت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من القهوة . وكان جو
القهوة — على خلاف الجو البارد فى الخارج — دافئا يحفظ حرارته دنخان الجوز
وأنفاس السمار ووهج « النصبة » ، وقد تربع الحاضرون على الأرائك يتحدثون
ويحتسون الشاي والقهوة ، والراديو يذيع ما فى جوفه فلا يلقى إلا الإعراض
والإهمال كأنه خطيب ثقيل يخطب صما ، ودار سنقر كالنحلة لا يسكن
ولا يكف عن الصياح ، واتفق عند حضوره أن كان عم كامل يسأل أصحابه أن
يقنعوا عباس الحلو بالنزول عن الكفن المحتفظ له به ، ولكنهم أبوا عليه ذلك
وأنكروا غرضه ، وقال له الدكتور البوشى :

— لا تفرط فى كسوة الآخرة . إن الإنسان ليعيش كثيرا فى دنياه عاريا ، أما عتبة

القبر فلا يمكن أن يجوزها عاريا مهما كان فقره ..

وتكرر الرجاء من ناحية الرجل الساذج فاصطدم كل مرة بالسرفض
والسخرية ، حتى كف الرجل يائسا . وراح الحلو بعد ذلك يعلن للإخوان ما
اعتزم من العمل فى الجيش البريطانى ، ويستمع إلى آرائهم ونصائحهم ، وقد

اجتمعت كلمتهم على الموافقة على مشروعه ، وتمنوا له النجاح والثراء . وكان السيد رضوان الحسيني منهمكا في حديث طويل من أحاديثه المليئة بالوعظ والإرشاد ، وقد مال على محدثه وأنشأ يقول :

— ... فلا تقل مللت ! الملل كفر . الملل مرض يعتور الإيمان . وهل معناه إلا الضيق بالحياة ! ولكن الحياة نعمة الله سبحانه وتعالى ، فكيف لمؤمن أن يملها أو يضيق بها ! ستقول ضقت بكيت وكيت ، فأسألك من أين جاءت كيت وكيت هذه ؟ أليس من الله ذى الجلال ؟ فعالج الأمور بالحسنى ، ولا تتمرد على صنع الخالق . لكل حالة من حالات الحياة جمالها وطعمها ، بيد أن مرارة النفس الأماراة بالسوء تفسد الطعوم الشهية . صدقنى إن للألم غبطته وللأس لذته وللموت عظته ، فكل شيء جميل وكل شيء لذيد ! كيف نضجر وللسماء هذه الزرقة ، وللأرض هذه الخضرة ، وللورد هذا الشذا ، وللقلب هذه القدرة العجيبة على الحب ، وللروح هذه الطاقة اللانهائية على الإيمان . كيف نضجر وفي الدنيا من نحبههم ، ومن نعجب بهم ، ومن يحبوننا ، ومن يعجبون بنا . استعذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت ..

وخسنا حسرة من قدح القرقة ، ثم أردف وكأنه يعبر عن خلجات ضميره :
— أما المصائب فلنصمد لها بالحب ، وسنقهرها به . الحب أشفى علاج .
وفي مطاوى المصائب تكمن السعادة كفصوص الماس في بطون المناجم الصخرية ، فلنلقن أنفسنا حكمة الحب .

كان وجهه الأبيض الوردى يفيض بشرا ونورا ، تحيط به لحيته الصهباء إحاطة الهالة بالقمر . وكان كل شيء حوله يلوح بالقياس إلى طمأنينته الراسخة قلعا مضطربا . وكان نور عينيه صافيا نقيا ينطق بالإيمان والخير والحب والترفع عن الأغراض . ربما قيل إنه رجل خسر الجاه يوم أخفق في دراسته الأزهرية ، وإنه آيس من خلود الدنيا حين ثكل الأبناء ، ففرغت نفسه إلى تعويض خسراتها الفادح بالاستيلاء على القلوب بالحب والجود ! ولكن كم من المصابين مثله من

سلك سبيله ، وكم منهم من سقط فريسة الجنون ، وكم منهم من صب جام غضبه على الدنيا والدين ؟! ومهما يكن من أمر نفسه الخافية فما من شك في إخلاصه ، كان مؤمنا صادقا ، ومحبا صادقا ، وجوادا صادقا ، ومن عجب أن يكون هذا الرجل — الذى طار صيته فى الخير والحب والجود كل مطار — حازما حاسما وعلى فظاظلة وحرص فى بيته ! ربما قيل إنه وقد آيس من كل سلطان حقيقى فى هذه الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذى يدعن لإرادته ، ألا وهو زوجه ! وإنه يشبع شهوته الجائعة للنفوذ والسلطان باصطناع الحزم والمهابة معها . ولكن ينبغى ألا نسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمكان ، وما تسنه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها ، وما تراه أكثرية أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقا لسعادتها هى نفسها قبل كل شيء . على أن زوجه نفسها لم يكن لديها ما تشكوه نحوه ، ولولا الجروح التى تركها الأبناء تذكارا خالدا فى قلبها ، لعدت نفسها امرأة سعيدة ، فخورا بزوجه وحياتها .

أما المعلم كرشة فكان حاضرا غائبا ، لم يطمئن به المجلس لحظة واحدة ، وعانى مرارة الانتظار فى صمت كئيب . وكلما مرت دقائق لوى عنقه واشرب به نحو مطلع الزقاق ، ثم يعود إلى صندوق الماركات متصبرا متجلدا قائلا لنفسه : « سيأتى حتما ، سيأتى كما أتى إخوان له من قبل .. » . وتمثل له وجهه ، ثم نظر إلى الكرسي القائم بينه وبين أريكة الشيخ درويش فرآه بعين الخيال يطمئن إليه ، لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة أحد أمثال هذا الشاب إلى قهوته تسترا أو حياء ، ثم افتضح أمره ، وذاعت فضيحته ، فكشف وجهه وارتاد الإثم جهارا . وكان يقع بينه وبين زوجه من المآسى ما يبقى حديثا فاضحا تتناقله الألسن ، ويتلقفه بشغف أمثال الدكتور بوشى وأم حميدة ، ولكنه لم يعبا شيئا . وما تكاد النار تخمد إلى حين حتى يصب عليها نفطا بسوء سيرته فيضرمها ضراما ، وكأنه وجد أخيرا فى الجهر لذة فلهج بها . وهكذا جلس قلقا لا تعرف السكينة سبيلا إلى نفسه الملوثة ، كأنه يجلس على مشواة ، يكاد ينبرى عنقه من

كثرة ليه ، حتى لاحظ الدكتور بوشى اضطرابه وقال للحلو فى خبث :
— هذه علامات الساعة !

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة ، وأنشد يقول :
حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتى الأمر طائعا . وتجزع إن داعى الصباية أسمعا
آه يا ست . الحب يساوى الملايين .. أنفقت فى حبك يا ست مائة ألف جنيه ،
ولإنه لقدر زهيد ..

* * *

وأخيرا رأى الدكتور بوشى المعلم كرشة يحدق باهتمام شديد فى مطلع
الزقاق ، ورآه يستوى جالسا وقد ابتسمت أساريره ، فنظر إلى مدخل القهوة
مترقبا ، وما لبث أن طالعه وجه الشاب ، وقد ألقى على السمار نظرة المتردد من
عينيه الساجيتين ..

تقع الفرن فيما يلي قهوة كرشة ، لصق بيت الست سنية عفيفى . بناء مربع
على وجه التقريب ، غير منتظم الأضلاع ، تحتل الفرن جانبه الأيسر ، وتشغل
الرفوف جدرانها : وتقوم مصطبة فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبها
الدار : المعلمة حسنية وزوجها جعدة . وتكاد الظلمة تطبق على المكان ليل نهار
لولا الضوء المنبعث من قهوة الفرن . وفى الجدار المواجه للمدخل يرى باب
خشبي قصير يفتح على خرابة ، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة ، إذ ليس بها
إلا كوة فى الجدار المواجه للمدخل تطل على فناء بيت قديم . وعلى بعد ذراع من
الكوة ، وعلى رف ممتد ، مضباح يشتعل ، يلقي على المكان ضوءا خفيفا يفضح

أرضه المتربة المغطاة بأنواع لا يحصوها العد من القاذورات المتنوعة ، كأنها مزبلة . أما الرف الذى يحمل المصباح فطويل ممتد بطول الجدار قد رصت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وأدوات مختلفة وأربطة كثيرة ، كأنه رف صيدلى لولا قذارته النادرة . وعلى الأرض — تحت الكوة مباشرة — كان يوجد شيء مكوم لا يفرق عن أرض المكان قذارة ولونا ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تهبه الحق — على رغم كل شيء — فى لقب إنسان ؟ ذلك هو زبطة مستأجر هذه الخرابة من المعلمة حسنية الفرانة . وحسبه أن يرى مرة واحدة كيلا ينسى بعد ذلك أبدا ، لبساطته المتناهية ، فهو جسد نحيل أسود وجلباب أسود ، سواد فوقه سواد ، لولا فرجتان يلمع فيهما بياض مخيف هما العينان . ولم يكن زبطة — على ذلك — زنجيا ، بل إنه مصرى أسمر اللون فى الأصل ، ولكن القذارة الملبدة بعرق العمر كونت على جثته طبقة سوداء . كذلك جلاببه لم يكن فى البدء أسود ، ولكن السواد مصير كل شيء فى هذه الخرابة . وهو لا يكاد يمت بسبب للزقاق الذى يعيش فيه ، فلا يزور ولا يزار ، لا نفع فيه لأحد ولا نفع فى أحد له ، اللهم إلا الدكتور بوشى ، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم . وأما صناعته فمعروفة لدى الجميع ، وهى صناعة العاهات ، ليست صناعة تعطيه الحق فى لقب دكتور وإن لم يتخذه إكراما لبوشى . كان يصنع العاهات ، ليست هذه العاهات الطبيعية المعروفة ، ولكن عاهات صناعية من نوع جديد . يقصده الراغبون فى احتراف الشحاذة ، فبفنه العجيب — الذى يحشد أدواته على الرف — يصنع لكل ما يوافق جسمه من العاهات . يجيئون به صباحا ويغادرونه عميانا وكسحانا وأحدابنا وقسعانا ومبثورى الأذرع أو الأرجل . وقد اكتسب البراعة فى فنه من تجارب الحياة التى صادفته ، وعلى رأسها جميعا اشتغاله عهدا طويلا فى شرك متجول ، ولاتصاله بأوساط الشحاذين — اتصالا يرجع عهده إلى صباه حين كان يعيش فى كنف والدين الشحاذين — فكر فى تطبيق فن « الماكياج » الذى تلفنه فى الشرك على بعض الشحاذين ، فى بادئ الأمر على سبيل الهواية ، ثم على

سبيل الاحتراف حين ضاقت به أوجه العيش . ومن مشاق عمله أنه يبدأ في الليل ، أو عند منتصف الليل على الأصح ، ولكنها مشقة غدت بالعادة مألوفة ميسرة ، أما في أثناء النهار فلا يكاد يفارق الخرابة بحال ، يجلس القرفصاء يأكل أو يدخن ، أو يتسلى بالتجسس على الفران والفرانة ، ولكم كان يلذه أن يسترق السمع لما يدور بينهما من حديث ، أو أن يشاهد من ثقب الباب انهيال المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء ، حتى إذا أتى الليل رآهما وقد شملهما الصفاء وقد أقبلت المعلمة على زوجها القرد تمازحه وتبسطه السمر . وكان زبطة يمقت جعدة ويحتقره ويستقبح وجهه ! وفضلا عن ذلك كله كان يحسده على ما حباه الله به من زوج « كاملة الجسم » أو على حد تعبيره « امرأة بقرى ! » . وكان كثيرا ما يقول عنها إنها في دنيا النساء تقابل عم كامل في دنيا الرجال ! . وكان من أهم الأسباب التي دعت أهل الزقاق إلى تجنبه رائحته المنتنة ، فلم يكن الماء يعرف سبيلا إلى وجهه أو جسده . وقد آثر وحشة العزلة على الاستحمام ! وبادل الناس مقتا بمقت عن طيب خاطر ، فكان يرقص طربا إذا قرع مسمعيه صوات على ميت ، ويقول وكأنه يخاطب الميت : « جاء دورك لتذوق التراب الذي يؤذيك لونه ورائحته على جسدى ! » . وربما قطع وقت فراغه الطويل في تخيل صنوف التعذيب التي يتمناها للناس واجدا في ذلك لذة لا تعادلها لذة ، يتصور جعدة الفران هدفا لعشرات الفؤوس تضربه حتى تتركه كتلة مهشمة كلها ثقوب ! . أو يتخيل السيد سليم علوان وقد استلقى على الأرض ووابور الزلط يروح عليه ويجيء ودمه يجري نحو الصناديق .. أو يتمثل له السيد رضوان الحسيني تجره الأيدي من لحيته الصهباء نحو الفرن الملتهب ثم يستخرجونه منها زكية من الفحم .. أو يرى المعلم كرشة مطروحا تحت عجلات الترام يمزق أوصاله ثم يلمون أشلاءه في مقطف قذريبيعونه لهواة الكلاب .. وغير هذا كثير مما يراه دون ما يستحق الناس . وكان إذا باشر عمله وأخذ في صنع العاهة لطالبا ، اشتد عليه في قسوة مقصودة مستخفيا وراء سر المهنة ، حتى إذا نددت التأوهات عن فريسته

لمعت عيناه الخيفتان بنور جنونى . ومع ذلك كان الشحاذون أحب البشر إلى نفسه ، وتمنى كثيرا لو كان الشحاذون أكثرية أهل الأرض .

هكذا جلس زينة غارقا فى أخيلته يترقب وقت العمل ، وعندما انتصف الليل أو كاد نهض قائما ، ونفخ المصباح فانطفأ وساد ظلام ثقيل ، ثم تلمس طريقه إلى الباب وفتحته فى هدوء بالغ ، ثم اخترق الفرن إلى الزقاق . والتقى فى سبيله بالشيخ درويش يغادر القهوة ، وكثيرا ما يلتقيان فى منتصف الليالى دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، ولذلك كان للشيخ حظ موفور فى محكمة التفتيش التى ينصبها زينة فى خياله للبشر . وانعطف صانع العاهات إلى سيدنا الحسين فى خطوات قصيرة وثيدة ، وكان يقترب فى سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الخالكة — كانت بعض قيود الإضاءة ما تزال موجودة — فلا يراه المقبل فى الطريق حتى يصطدم بعينيه البراقتين يلمعان فى الظلام لمعان القطعة المعدنية فى حزام الشرطى . وفى الطريق ، يداخله شعور بالانتعاش والزهو والسرور ، فهو لا يشقه إلا حين يكاد ينقطع إلا من الشحاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة .

وشق ميدان الحسين منعطفًا صوب الباب الأخضر فبلغ القبر القديم ، وجعل يردد عينيه الخيفتين بين أكوام الشحاذين على جانبيه ، فملأه الارتياح .. ارتياح السيد إلى قوته ، وارتياح التاجر يرى بين يديه السلع النافقة . ودنا من أقرب الشحاذين إليه ، وكان جالسا القرفصاء معتمدا رأسه على ركبتيه ويغط غطيظا ، فوقف حياه لحظة متفرسا كأنما يسير نومه هل هو نوم حقيقة أو تظاهر بالنوم ، ثم ركله فى رأسه الأشعث ، فانتبه الرجل من نومه — غير مذعور — كأنما أيقظته أنامل ناعمة ، ورفع رأسه متثاقلا وهو يحك جنبه وظهره بأظافره ، فوقع بصره على الشبح المشرف عليه ، وحملق فيه لحظة ، فعرفه — على عماه — لأول وهلة . وتهد الرجل فند عن صدره صوت كالوحوحة ، ثم دس يده فى صدره واستخرج مليما غمز به كف الرجل . وانتقل زينة إلى من يليه ، ثم إلى من يليهما ، حتى إذا فرغ من جناح القبر جميعا اتجه نحو الجناح الآخر ، ثم مضى إلى

بأزقة والحوارى المحيطة بالجامع الكبير لا يفلت منه شحاذا واحد . ولم يكن كبابه على تحصيل يوميته لينسيه واجب رعاية العاهات التى صنعها ، وربما سأل نذا أو ذاك « كيف عمالك يا فلان ؟ » أو « كيف كساحك يا فلان ؟ » فيجيبونه الحمد لله .. الحمد لله . ثم دار حول المسجد من الناحية الأخرى وابتاع فى لريقه رغيفا وحلاوة طحينية وتبغا ورجع إلى الزقاق . كان الصمت شاملا قطعه بين آونة وأخرى ضحكة أو سعلة ساقطة من أعلى بيت السيد رضوان الحسينى حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة .. وجاز الرجل عتبة الفرن فى هدوء بالغ أن يوقظ الزوجين ، ودفع بابه الخشبى فى حذر ورده فى سكون .. لم تكن المنزل مظلمة كما غادرها ، ولم تكن خالية . كان المصباح مشتعلا ، وعلى الأرض تحته يجلس رجال ثلاثة . ودلف الرجل بينهم فى هدوء لأن وجودهم لم يدهشه ولم يزعجه ، وعانينهم بعينيه البراقتين فعرف منهم الدكتور بوشى . ووقفوا له جميعا ، وقال له الدكتور بوشى بعد أن حياه تحية طيبة :

— هاك رجلين مسكينين يستشفعان بى إليك ..

فتظاهر زبطة بعدم المبالاة ، وقال متظاهرا بالملل :

— فى مثل هذه الساعة يا دكتور ؟!

فوضع الدكتور يده على كتفه وقال له :

— الليل ستار وربنا أمر بالستر !

فقال زبطة وهو ينفخ :

— ولكنى متعب الآن ..!

فقال البوشى برجاء :

— لا رددت لى يدا .

وراح الرجلان يضرعان ويدعوان له ، فتظاهر بإذعان مرغما ، ووضع الطعام والتبغ على الرف ووقف حياهما متفرسا فى أناة وهدوء ، ثم ثبتت عيناه على أطولهما ، كان عملاقا قويا فدهش زبطة لمنظره وسأله :

— أنت بغل بلا زيادة ولا نقصان ، فلماذا تروم احتراف الشحاذاة ؟

فقال الرجل بصوت منكسر :

— لم أفلح في عمل أبدا ، حاولت أعمالا كثيرة ، حتى الشحاذاة نفسها ، ولكن لم يقدر لي التوفيق ، حظي أسود ، وعقلي وسخ لا أفهم شيئا ولا أتقن شيئا ..

فقال ربطة بحقد :

— كان ينبغي إذا أن تولد غنيا ..

ولم يفطن الرجل لمرماه ، وراح يستعطفه بتصنع البكاء قائلا بصوت كالحوار :

— أخفقت في كل شيء ، حتى الشحاذاة لم تجذب لي رحيمًا واحدًا . كل الناس يقولون أنت قوى ويجب أن تشتغل ، هذا إذا لم يشتموني وينهروني ، لا أدري لماذا !

فقال زيطه وهو يدلك رأسه :

— يا سلام . حتى هذا لا تدركه .

— الله يخليك ويجبر بخاطرك ..

وكان زيطه لا يكف عن فحصه متفكرا ، فقال بحزم وهو يغمز أعضائه :

— أنت قوى حقا . أعضاؤك سليمة . إني أعجب ماذا تأكل ؟

— الخبز إذا وجد ولا شيء غيره .

— هذا جسم شيطاني بلا ريب . ترى ماذا تكون لو أكلت كما يأكل حيوانات

الله التي يؤثرها بخيره ونعمته ؟

فقال الرجل ببساطة :

— لا أدري ..

— طبعا طبعا .. أنت لا تدري شيئا ، فهمنا هذا ، وخير ما فعلت ، فلو كنت

تدري لا نقلبت واحدا منا . اسمع يا هذا لا فائدة ترجى من تشويه أعضائك ..

ولاح الانقباض في الوجه الثور ، وأوشك أن يتباكى كرة أخرى لولا أن
ادرة زيطه قائلًا :

— عسير أن أكسر لك رجلاً أو ذراعاً ، ومهما صنعت بك فلن تستثير عطف
أحد . إن البغال أمثالك يثيرون الحق أينما يحلون . ولكن لا تيأس (كان الدكتور
بوشي ينتظر هذه العبارة بصبر نافذ) فهناك طرق شتى ، أعلمك فن العته مثلاً .
وأنت لا ينقصك منه شيء ذو بال ، أجل العته ، وأحفظك بعضاً من مدائح
الرسول ..

فتهلل وجه الرجل ودعاه كثيراً ، حتى قاطعه زيطه متسائلاً :

— لماذا لم تشتغل قطاع طرق ؟

فقال الرجل بانكسار :

— أنا رجل طيب مسكين ، لا أقصد إنساناً بسوء ، وأحب آل البيت .

فقال زيطه باحتقار :

— أتبدؤني أنا بهذه البوليتيكا .. ؟

ثم التفت إلى الرجل الآخر ، كان قصيراً هزلاً ، فقال زيطه بارتياح :

— استعداد طيب ..

فابتسمت أسارير الرجل وقال ممتناً شاكراً :

— الحمد لله كثيراً ..

— خلقت لتكون أعمى مقعداً .

فقال الرجل بسرور :

— هذا من فضل ربى .

فهرز زيطه رأسه وقال ببطء :

— العملية دقيقة وخطيرة . ودعنى أسألك عن أسوأ الاحتمالات ، هبك

فقدت بصرك حقيقة عن خطأ أو إهمال فماذا تفعل ؟

فتردد الرجل لحظة ، ثم قال بغير مبالاة :

— نعمة من الله ! وهل أفدت من بصرى شيئا حتى آسف على ضياعه ؟

فقال زينة بارتياح :

— بهذا القلب تستطيع أن تواجه الدنيا حقا ..

— بإذن الله يا سيدى . ستكون روحى ملك يديك . سأنزل لك عن نصف

ما يجود به المحسنون ..

— هذا كلام لا يجوز على ، حسبى مليمين غير أجر العملية ، وإنى أعرف

كيف أستخلص حقى إذا سولت لك نفسك المماثلة ..

وهنا قال البوشى محذرا :

— لم تذكر نصيبك من الخبز .

فاستدرك زينة قائلا :

— طبعا . طبعا .. والآن فلنشرع فى العمل ، العملية شاقة ، ولسوف نمتحن

قوة احتمالك ، فاکتم الألم ما استطعت إلى ذلك سبيلا ..

وتصور ما سوف يكابده هذا الجسم الهزيل من هرس يديه القاسيتين ،

فارتسمت على شفثيه الباهتتين ابتسامة شيطانية ..

كانت الوكالة مثار ضجيج لا ينقطع فى الزقاق طول النهار . عمال كثيرون لا

يكفون عن العمل فيما عدا فترة الغداء القصيرة ، وسيل من البضائع الواردة

والصادرة يطرد فى تتابع متواصل ، وعدد من سيارات العمل الضخمة يجمع

أزيرها فيطبق على الصناديق وما يتاخمها من الغورية والأزهر ، وتيار زاهر من

الزبائن والعملاء . هى وكالة عطارة بالجملة والتجزئة ، وليس من شك فى أن

انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد أحدث فى سوقها أثرا ملحوظا ، ولكن

الوكالة على رغم ذلك حافظت على سمعتها ومركزها ، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها وأرباحها . وفضلا عن هذا وذاك فقد أغرت ظروف الحرب السيد سليم بالالتجار بمواد لم يكن يلقي إليها بالا كالشاي ، فغامر في السوق السوداء ، وربح أرباحا طائلة . وكان السيد سليم علوان يجلس إلى مكتبه الضخم في نهاية الردهة الموصلة إلى فناء الوكالة الداخلى التى تحقق به المخازن ، وهو مركز وسط يستطيع أن يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها ، ويسر له مراقبة العمال والحمالين والزبائن جميعا . لذلك كله فضل هذا المركز على الانفراد في حجرة كما يفعل أقرانه من كبار التجار ، ولأن التاجر الحق — على حد تعبيره — « ينبغي أن يكون مفتوح العينين دائما » . وكان الرجل في الواقع من النماذج العملية الموفقة ، خبيرا في مهنته ، قادرا على النهوض بأعبائها . ولم يكن من حديثي النعمة الذين أنجبتهم الحرب ، لأنه على حد تعبيره أيضا « تاجر ابن تاجر » ، بيد أنه لم يكن في البدء معدودا من الأغنياء ، ثم خاضت تجارته غمار الحرب الأولى وخرجت ظافرة ، وأدركتها هذه الحرب فأثقلت موازينها حتى أتمختها بالثراء . على أن الرجل لم يخل من الهموم ، وبحسبه أن يناضل في الميدان وحده بلا معين ولا نصير . أجل كان ما يتمتع به من صحة جيدة وحيوية فائضة خليقا بأن يهون عليه همومه ، ولكن لم يكن بد من التفكير في الغد ، القريب أو البعيد ، إذا انصرم العمر أو كاد ، وافتقدت الوكالة من يديرها . فمن المؤسف حقا أن أحدا من أبنائه الثلاثة لم يقع له في خاطر أن يتقدم لمعاونة أبيه في عمله ، وكانوا جميعا سواء في الإعراض عن التجارة ، وضاعت محاولاته في ثنيهم عن إعراضهم كلها سدى . فلم يجد مناصا — على بلوغه الخمسين — من النهوض بالأمر كله . وليس من شك في أنه كان المسئول عن هذا الختام المرهق ، فقد كان على رغم عقليته التجارية — جوادا كريما ، أو كان كذلك على الأقل في بيته وبين أهله ، فكان بيته كالقصور جمال بناء ونفاسة أثاث وكثرة خدم وحشم . وفضلا عن ذلك فقد انتقل عقب زواجه من البيت القديم بالجمالية إلى قصر منيف

بالحلمية ، فترعرع الأبناء في وسط جديد منقطع الأسباب بيئة التجار وأوساطهم ، وسط يضمربلا ريب نوعا من الاحتقار للمهن الحرة جميعا ، فتعلقوا بمثل عليا جديدة . بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته . وحين جد الجد توردوا على نصحه وأبوا الالتحاق بمدرسة التجارة أن تكون فخا لهم ، وشقوا سبيلهم إلى الحقوق والطب ، فهم قاض ومحام بأقلام القضايا وطبيب بقصر العيني . ومع ذلك كانت الحياة سعيدة ، وقد بدت آثارها الطيبة في جسمه البدين المتين ، ووجهه الممتلئ المورد ، وحيويته الشابة المتوثبة سعادة منشؤها أن كل شيء في موضعه المأمول ، تجارة رابحة ، صحة جيدة ، أسرة سعيدة . أبناء موفقون قد عرف كل منهم وجهته واطمأن إليها . وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع ، تزوجن جميعا وبارك الله في زيجاتهن . فبدا كل شيء باسماء منبسطة لولا ما ينتابه بين الحين والحين من التفكير في مصير الوكالة والتجارة . وبكرو الأيام تنبه الأبناء إلى متاعب الأب ، ولكنهم قدروها من ناحية أخرى ، فساورهم خوف أن يفلت الزمام يوما من يد والدهم ، أو أن يتركها لهم بغتة فلا يدرون ماذا يصنعون . وكان أن اقترح عليه أحدهم — محمد سليم علوان القاضي أن يصفى تجارته ليتفرغ لحقه المشروع من الراحة بعد ذلك النضال الطويل . بيد أن السيد لم يغب عنه حقيقة مخاوفه ، واستاء استياء لم يحاول إخفاءه ، فقال له « أتريد أن ترثني حيا ! » ودهمه قوله هذا وهاله ، لأنه وإخوته يحبون أباهم حبا صادقا ، فلم يعد أحد منهم إلى طرق هذا الموضوع الخطير . ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحد فراحوا يقولون — واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرة — إن شراء أرض أو تشييد عمارات أفضل بلا ريب من كنز الأموال في المصارف . وفطن إلى بواعث هذا القول الحقيقية بعقله الذي يحسن إدراك مسائل المال وما يتفرع عنها ، فهو يعلم حق العلم أن التجارة التي تدر المال بلا حساب قد تبتلعه أيضا في ساعة نحس واحدة ، وأن التاجر الذي يحتاط للمستقبل بشراء عقار مثلا حقيق إذا وقعت هذه

الساعة — وخاصة إذا سجل ما ابتاع من عقار باسم أبنائه مثلاً أو زوجه — أن يخرج من شدته ببعض المال ، وعسى أن يكون مالا كثيرا ، لا صفر اليدين . وهو إلى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا أموالا طائلة ، وانتهوا إلى الإفلاس والفقر المدقع ، أو إلى شر من ذلك كالانتحار أو الموت كمدا . أجل إنه يعلم ذلك كله ، ويعلم أن أبناءه على حق فيما يريدون ، ولعل التفكير في هذا الذي يريدون لم يكن جديدا عليه ، ولكن هل تسمح ظروف الحرب بالشروع في مثل هذا العمل ؟! كلا ، هذا بين بلاريب . وإذا فليؤجل إلى حين ، وليطو في نفسه حتى يتيسر تحقيقه . ولم يكده يحسب أنه فرغ من هذا الهم حتى اقترح عليه ابنه القاضي أيضا أن يسعى للحصول على رتبة البكوية . قال له : كيف لا تكون بيكا والبلد ملأى بيكوات وباشوات دونك مالا وجاها ومقاما .

وسره هذا الإطراء . وكان في الحق — وعلى خلاف التجار الحصفاء — مغرما بالجاه والجلال ، ولكنه تساءل في سذاجة عن السبيل إلى التماس هذه الرتبة ، وغدا الأمر شغل الأسرة شاغل ، وتحمسوا له جميعا وإن اختلفوا في الوسيلة . فاقترح البعض عليه أن يشتغل بالسياسة وأن يدلي فيها بدلوه ! حقا كان السيد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئا — فيما عدا التجارة — من أمور الدنيا ، ولا تكاد تسمو آراؤه أو معتقداته على آراء ومعتقدات عباس الحلو مثلاً ، فكان مثله يضرع خاشعا إلى ضريح الحسين ، وكان مثله يبجل الشيخ درويش ويتبرك به . كان بإيجاز معدة قوية وجبة زاهية . بيد أن السياسة لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى أكثر من هذا ، وقد مضى يفكر في الأمر تفكيرا قويا ، لولا أن اعترضه ابنه المحامي — عارف سليم علوان — فقال له محذرا :

— السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا . ستجد نفسك ملزما بالإنفاق على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك . وعسى أن ترشح للبرلمان فتستغرق الانتخابات آلافا من أموالك دون جدوى ثمنا لكرسي غير مضمون ، وهل البرلمان في بلادنا إلا كمريض بالقلب تهدده السكتة في أية (زقاق المدق)

لحظة ! ثم أى حزب تختار ؟ إذا اخترت حزبا غير الوفد أضعت مكانتك فى الوسط الذى تعمل فيه ، وإذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصدقى باشا يجعل تجارتك هشيما تذروه الرياح .

وتأثر السيد بقول ابنه ، وكان يثق فى أبنائه « المتعلمين » ثقة كبيرة ، وزاده انحيازاً إلى طرح السياسة جانبا جهله التام بشئونها ، وبروده حياها ، فلم يكن يعلم من أمورها إلا أسماء ورث حبها أو بغضها عن عهد سعد زغلول .

واقترح عليه البعض أن يتبرع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيرية لعله أن يجزى عليه بالرتبة . ولم يرقه الاقتراح من بادئ الأمر ، لأن غريزة التجارة الكامنة فيه تنفر نفورا طبيعيا من البذل والعطاء ، ولا يتعارض هذا مع كرمه المعروف ، لأنه فى الواقع كان كرمًا لنفسه وبيته ، على أنه لم يقطع بالرفض ، فما زالت الرتبة مغرية محبوبة ، وما زال يطمع فيها ويريدها . وقد أدرك أنها تقتضيه قدرا من المال لا يقل عن الخمسة الآلاف جنيه ، فما عسى أن يصنع ؟ لم يبت برأى قاطع ، وإن قال لأبنائه « كلا » بيد أنه أضاف الرتبة إلى همومه الأخرى القائمة بلا فـض كإدارة الوكالة وشراء العقار ، تاركاً أمر الجميع للمستقبل وللظروف .

* * *

ومهما يكن من أمر هذه الهموم فهى ليست بالخطر الذى ينغص صفو الحياة وخصوصا حياة رجل يستغرقه العمل نهارا ، والغريزة ليلا ، والحق أنه إذا شغله العمل لم يعد يفكر فى شىء سواه ، وقد جلس إلى مكتبه مركزا انتباهه كله فى كلام سمسار يهودى ، مستجمعا يقظته ، مستحضرا حذره ، يعجب لرقه محدثه ولطفه ، حتى ليحسبه الجاهل صديقا ودودا ، وهو فى الحقيقة نمر يتوثب ، يتمسكن ويتمسكن حتى يتمكن ، والويل لمن يتمكن منه . وقد علمته التجارب أن هذا الخواجا وأمثاله أعداء ما من صداقتهم بد ، أو أنه — على حد تعبيره — شيطان مفيد ، وكان يساومه بصفقة شاي مضمونة الربح غزيرته ، فجعل السيد

يفتل شاربه الضخم ويتجشأ شأنه إذا استغرقه التفكير الخطير ! وحاول الخواجا بعد أن فرغ من الشاي أن يعرض عليه شراء عقار صالح — وكان على علم برغبته في الشراء — ولكن السيد كان قد صمم على تأجيل الشروع في ذلك إلى ما بعد الحرب ، وأبى أن يصغى إليه ، فغادر الرجل الوكالة قانعا بصفقة واحدة . وجاء غير هذا الخواجا آخرون . وواصل السيد العمل بما عرف عنه من مقدرة وهمة . وعند منتصف النهار نهض للغداء ، وكان يتناول غداءه في حجرة أنيقة أعد بها فراشا للمقيل . وكان غداؤه يتكون عادة من خضر وبطاطس وصينية فريك . ولما انتهى من طعامه مضى إلى الفراش يستجم ساعة أو ساعتين . وفي أثناء ذلك تسكن حركة الوكالة ، فيسود السكون الزقاق جميعا ، وكان لصينية الفريك قصة يعرفها أهل الزقاق جميعا . هي طعام ووصفة في آن واحد ، وقد برع في تهيئتها أحد عماله المقربين ، فظلت حقيقتها سرا بينهما لولا أنه لا يؤمن على سر في زقاق المدق . هي صينية فريك محشو بالحمام ، ومخلوط بقدر من مسحوق جوزة الطيب ، يلتهمها في الغداء ، ويحتسى بعدها شاي مرتين أو ثلاث مرات ، قدحا كل ساعتين ، فتحدث مفعولها ليلا ، ويستمر تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين في بهجة خالصة ! . وقد ظلت الصينية سرا لا يدره إلا الرجلان والمعلمة حسنية الفراانة . وكان أهل الزقاق يرونها فيحسبون أنها غداء خالص ، فيقول البعض : « بالهنا والشفاء » ويغمغم البعض : « يطفحها سما بإذن الله ! » . ثم لعب الطمع يوما بقلب المعلمة حسنية ، فسولت لها نفسها أن تجرب هذه الوصفة في زوجها جعدة الفران ، واختلست من الصينية قطعة موفرة ملأت فراغها بفريك خالص ، ودأبت منذ ذلك اليوم على اختلاس نصيبها مطمئنة إلى غفلة السيد ، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ ! بيد أن السيد سليم لم يغفل عن الأمر طويلا ، ولاحظ بسهولة ما طرأ من تغير على لياليه ، وعاد باللائمة بادئ الأمر على العامل الذي يهين الوصفة . فلما أن أبرأ الرجل ذمته داخله الشك في الفراانة ، واكتشف السرقة بغير صعوبة ، فدعا الفراانة ووبخها ، وعدل عن

إرسال الصينية إلى فرنسا ، مستبدلاً بها الفرن الأفرنجي بالسكة الجديدة . وبدأ السر ينكشف ويذيع فعلمت به أم حميدة ، وكان في ذلك الكفاية كل الكفاية ، فسرعان ما أحاط به أهل الزقاق جميعاً ، وراحوا يتلقون الصينية بالغمز واللمز . وأدرك السيد غاضباً أن سره قد افترضح ، ولكنه لم يعبأ ذلك طويلاً ! أجل . قطع أكثر عمره في الزقاق ، ولكنه لم يكن يوماً من أهله ، ولم يعمل لواحد منهم حساباً ، ولولا السيد رضوان الحسيني والشيخ درويش لما عني برفع يده تحية . وكادت الصينية تصبح في وقت من الأوقات موضة الزقاق جميعاً ، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها أحد . فجربها المعلم كرشة والدكتور بوشي ، حتى السيد رضوان الحسيني ذاقها بعد أن تأكد أنها لا تحوى مادة يحرمها الشرع الحنيف ! أما السيد سليم فكان يواظب عليها إلا فيما ندر ، والواقع أنه كان يضطرب من الحياة في مضطرب ضيق نهاره نهب للوكالة ، وليله خال مما يتسلى به أمثاله من الناس ، فلا قهوة ولا ناد ولا ملهى ، ولا شيء مطلقاً إلا زوجه ، ولذلك تفنن في مسراته الزوجية تفنناً شديداً عن جادة الاعتدال .

* * *

وقد استيقظ قبيل العصر فتوضأ وصلى ، وارتدى قفطانه وجبته ، وعاد إلى مكتبه فوجد قدح الشاي الثاني مهياً ، فاحتساه بتلذذ وهو يتجشأ جشأت مجمعجة يدوى صداها في الفناء الداخلي ، وأقبل على عمله بنفس الهمة التي استقبله بها في الصباح ولكنه كان يبدو في فترات وكأن قلماً ينتابه . كان يتلفت نحو الزقاق ، وكان ينظر في ساعته الذهبية الضخمة ، وكان يعبث بأنفه على غير شعور منه . وعندما ارتفع ضوء الشمس إلى أعلا الجدار الأيسر للزقاق ، أدار مقعده اللولبي وجعل وجهه للطريق . ومرت دقائق ثقيلة لم تتحول فيها عيناه عن الطريق . ثم أرهف السمع ولمعت عيناه لوقع شبشب على أحجار الطريق المنحدر ، ثم مرت حميدة أمام باب الوكالة في ثواني معدودات ، وقتل شاربه بعناية ، ودار بكرسيه إلى المكتب وقد لاح في عينيه السرور ، وإن وجد شعوراً

عدم الارتياح ! . من العسير أن يقنع بهدوء الرؤية الخاطفة بعد ساعة كاملة من
لانتظار والقلق والشوق . ولم يكن يتاح له رؤيتها في غير هذا الوقت إلا من قبيل
ستراق النظر إلى نافذتها في أويقات نادرة كلما جازف بالظهور أمام الوكالة كأنما
ريح أعصابه بالمشى . كان شديد الحذر بطبيعة الحال صونا لمنزلته وكرامته ، فهو
لسيد سليم ، وهي فتاة مسكينة ، والزقاق زخار بالألسن الحداد والأعين
المتطفلة . وتوقف عن العمل وجعل ينقر المكتب بسبابته متفكرا . أجل هي
مسكينة وفقيرة ولكن الرغبة لا ترحم وأسفاه ، والنفس أمارة بالسوء ! .
مسكينة وفقيرة ولكن وجهها البرنزي ونظرة عينيها وقد هما المشوق ، كل أولئك
مزايا تستهين حقا بفوارق الطبقات ! . وما جدوى المكابرة ؟ إنه يهوى العينين
الفاتنتين والوجه المليح ، والجسم الذي يقطر إغراء ، وهذه العجيزة الأنيقة التي
تزرى بورع الشيوخ . إنها أنفوس من وارد الهند جميعا . ولقد عرفها منذ كانت صبية
صغيرة تتردد على الوكالة لابتياح ما تحتاجه أمها من الحناء ومواد المفتحة والمغات .
رأى ثدييها وهما نبقتان ثم وهما دومتان ، حتى استوتا رمانتين . وعائين عجيزتها
وهي أساس أملس لم ينهض عليه بناء ، ثم وهي تكور رقيق يتمطى به النضج ،
وأخيرا وهي كرة تنضج أناقة وأنوثة . وراح الرجل يحضن إعجابه المترعرع حتى
أفرخ في النهاية رغبة عارمة . إنه يعلم ذلك ، ولم يعد يحاول إنكاره . ولطالما قال
لنفسه : « ليتها كانت أرملة كالست سنية عفيفي ! » لو كانت أرملة لوجد
لنفسه مخرجا . أما وهي عذراء فينبغي أن يطيل التفكير في أمره . وتسائل كما اعتاد
أن يتسائل : ماذا يروم ؟ وذكر وهو لا يدري زوجه وأسرته . كانت زوجه امرأة
فاضلة ، تتحلى بكل ما يحب الرجل من أنوثة وأمومة وإخلاص ومهارة فائقة في
شئون البيت ، وكانت على شبابها مليحة ولودا . فهو لا يأخذ عليها نقيصه
واحدة ، وفضلا عن ذلك كله كانت من أسرة كريمة تتفوق عليه كثيرا في الأصل
والمحتد . وهو يقر بفضلها جميعا ، ويضممر لها ودا صادقا ، ولا يضايقه إلا أنها
استوفت شبابها وحيويتها ، فقصرت عن مجاراته ، وعجزت عن احتماله ، فبدأ

بالقياس إليها — وبسبب حيويته الخارقة — شابا نهما لا يجد فيها ما يشتهي من متاع !. والحق أنه لا يدري إن كان ذلك ما علقه بحميدة ، أم أن هواه ما جعله يستشعر هذا الفراغ الأليم !. ومهما يكن الأمر فقد أحس رغبة لا تقاوم إلى دم جديد !، وقال لنفسه صراحة : « مالى أحرم على نفسى ما أحل الله لها ! ». على أنه كان رجلا محترما ، حريصا جدا على أن يقر له كل إنسان بالاحترام ، ويكرمه غاية الكرب أن يكون مضغة الأفواه . كان من الذين يعملون للناس وآرائهم كل حساب ، وكان يقول مع القائلين : « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس ». وإنه لياكل صينية الفريك ، أما حميدة .. ! رباه ! لو كانت من أسرة كريمة ما تردد لحظة في طلب يدها . ولكن كيف تصير حميدة ضرة للسيدة عفت ؟! وكيف تصبح أم حميدة الخاطبة حماته كما كانت يوما المرحومة ألفت هانم ؟! وعلى أى وجه تكون حميدة امرأة أب لمحمد سليم القاضى وعارف سليم المحامى والدكتور حسان سليم ؟! وهناك أمور أخرى — لاتقل عن هذه خطورة — ينبغي تقديرها حق قدرها ، هنالك بيت جديد لا بد — فى هذه الحالة — أن يتها ، ونفقات جديدة ربما ضاعفت من نفقاته القديمة ، وورثة جدد خليقون أن يمزقوا وحدة أسرته المتأسكة ، وأن يلوثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء . وفى سبيل أى شىء كل هذه المتاعب ؟.. ميل رجل — بل زوج وأب — فى الخمسين لفتاة فى العشرين ! لم يغب عنه شىء من هذا ، لأنه رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التى تتصل بالمال وأحوال المعيشة ، ومضى يراجع نفسه حائرا مترددا لا يقر له قرار . وباتت هذه العاطفة إحدى الهموم المعلقة فى حياته ، وانتظمتها سلسلة مشاكله التى لم تفض كإدارة الوكالة ومستقبلها ، وشراء العقار وتشيد العمارات ، ورتبة البيكوية ، بيد أنها كانت أشد إلحاحا وأبعث شجنا .

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر إذا خلا إلى نفسه ومد له حبل التفكير ، أما إذا خطرت حميدة أمام عينيه ، أو لاحت لهما فى النافذة ، فلم يكن يفكر إلا فى أمر واحد ..

أصبحت أم حسين — امرأة المعلم كرشة — في هم مقيم . فانقطاع عادة
ألوفة لا يمكن أن يمر دون تساؤل ، خصوصا إذا كان انقطاعها في الماضي يقترن
ائما بشئ مستطير . وقد قطع المعلم كرشة عادة محبوبة لا يصح أن تقطع لغير
سبب خطير ، فراح يمضى سهرته الليلية بعيدا عن البيت ، بعد أن كان يدعو
رفاقه المدمنين إلى حجرة السطح كل منتصف ليل فيمتد بهم السهر حتى مطلع
لفجر . وطافت بالمرأة الذكريات المحزنة فعاودها الألم الذى ينغص عليها صفو الحياة .
ما الذى يدعو به إلى قضاء الليل خارج داره ؟ أليكون ذاك السبب القديم ؟ ذاك
لداء الوبيل ؟ . سيقول الفاجز إنه مجرد تغيير يراد به دفع الملل ، أو الانتقال لمكان
وفق لفصل الشتاء ، ولكن هيات تهضم نفسها أمثال هذه المعاذير الكاذبة ،
زإنها لتعلم من أمر نفسه ما يعلمه الناس جميعا . لذلك أصبحت المرأة في هم
مقيم ، وباتت تتحرق على فعل شئء حاسم مهما كانت عواقبه . وكانت امرأة
قوية — على دنوها من الخمسين — لا تنقصها أسباب الجراءة التى تجاوز الحد في
كثير من الأحيان ، وكانت من نسوة الزقاق المشتهرات بالبأس — كحسنية
الفرانة وأم حميدة — واشتهرت بوجه خاص لما يقع بينها وبين زوجها من دواعى
الملاحاة بسبب شذوذ سلوك الرجل ! ، كما اشتهرت بأنفها الكبير الغليظ
الأفطس . وكانت زوجها ولودا ، أنجبت بناتا ستا وذكرا واحدا هو حسين كرشة
وجميع بناتها متزوجات ، وجميعهن يحين حياة زوجية مقلقة ، لا تخلو من نكد
وإن كانت تسير ولا تنقطع . وقد حدثت لصغراهن مأساة كانت حديث الزقاق
يوما ، إذ اختفت بغتة في عامها الأول من الزواج ، ثم ضبطت في بيت عامل
بيولاقي ، وانتهى بها وبه المطاف إلى السجن . كانت مأساة الفتاة كرها شديدا

للأسرة ، ولكنها لم تكن المأساة الوحيدة التي ابتليت بها ، فللمعلم نفسه مأساة قديمة جديدة لا يعرف لها انتهاء . وكانت أم حسين تعرف السبيل إلى معرفة ما خفى عليها من الأمر ، فراحت تستخبر عم كامل وتستنطق سنقر صبي القهوة حتى علمت بالشاب الذي أخذ يتردد في عهده الأخير على القهوة فيحتفى به المعلم كل احتفاء ويقدم له الشاي بنفسه ! وأخذت تراقب القهوة خفية حتى رأت الشاب بنفسها وشاهدت مجلسه إلى يمين المعلم ، ولمست احتفاءه به . وجن جنونها ونكأ الجديد القديم من جروحها ، فباتت ليلة جهنمية ، وأصبحت على شر حال وأسوأ نفس . ولم يكن رأيها قد استقر على حال ، كانت تغلى غليانا ولكنها لا تدري أى سبيل تسلك . ولطالما جربت العراك فيما سلف دون جدوى ولم تكن تتردد عن إعادة الكرة ، بيد أنها تريثت قليلا — لا تأفقا منه — ولكن دفعا لشماتة الشامتين . وكان حسين كرشة يتهيا للخروج إلى عمله فقصدته هائجة النفس ثأرتها ، وقالت له بانفعال شديد :

— يا بنى أما علمت أن أباك يعد لنا فضيحة جديدة ؟

وأدرك حسين لتوه ما تعنيه ! فلا يمكن أن يعنى قولها إلا معنى واحدا معروفا مشهورا . وامتلاً حنقا ، واتقدت عيناه الصغيرتان فتطايير منهما الشرر . ما بال هذه الحياة لا تكاد تعفيه يوما من المتاعب والفضائح . ولم تكن دواعى السخط لتنقصه حتى بدون هذه الفضائح . كان برما بكل شيء مما حوله . ولعل برمه هذا الذى دفعه إلى الارتقاء بين أحضان الجيش البريطانى . ثم ضاعفت حياته الجديدة من سخطه بدل أن تسكنه وتطامنه ، فضاق بآله وبيته وبالزقاق جميعا . وجاء أخيرا قول أمه نفطا على لهيب ، فقال غاضبا :

— ماذا تريدون ؟ وما حيلتى فى هذا كله ! لقد تدخلت فيما سلف وحاولت

الإصلاح ، فكاد يبلغ بنا الحال أن نتعارك وأن نتضارب ، فهل تريدننى على أن أمسك بتلابيب أبى ؟

لم يكن يعنيه الإثم فى ذاته ، ولكن كان يغيظه ما يثيره حولهم من فضيحة

وجرسه ، وما يشعله في البيت من نيران السباب والشتائم والعراك . أما الإثم ذاته فلم يكن يهمه على الإطلاق ، بل إنه حين تناهى إليه خبره أول مرة هز منكبيه استهانة وقال دون مبالاة « إنه رجل والرجل لا يعيبه شيء ! » . ثم سخط مع الساخطين ونقم على والده ، حين وجد أسرته مضغة الأفواه ونادرة المتندرين . وكانت علاقته بأبيه في الأصل متوترة ، ذلك التوتر الذي ينشأ عادة من تصادم طبيعتين متشابهتين ، فكلاهما فظ شرس غضوب ، ثم جاء هذا الإثم فضاعف من أسباب شقاقهما حتى أصبحا كعدوين ، يحاربان حيناً ، ويتهادنان حيناً ، ولا يسكت عنهما السخط أبداً .

ولم تدر أم حسين ماذا تقول ، ولكنها لم تراجعه أن تكون السبب في إلقاء عداوة جديدة بين الابن وأبيه ، وتركته يغادر الشقة وهو يهدر غاضباً شامتا ، وقطعت نهارها على أسوأ حال . ولم تكن تدعن للهزيمة على كثرة ما عركها الزمن بالتعاسة والمهانة ، فصدقت عزيمتها على تأديب الرجل الآثم ولو عرضها ذلك لشماتة الشامتين ، بيد أنها رأت أن تقدم إنذارها بين يدي بأسها ، فانتظرت حتى انتصف الليل ، وتفرق السمار ، وتأهب زوجها لإغلاق القهوة ، ثم نادته من النافذة ! فصعد الرجل رأسه منزعجا وعلا صوته متسائلا :

— ماذا تريدان يا أم حسين ؟

فجاءه صوتها يقول :

— اصعد يا معلم لأمر هام ..

وأوما المعلم لفتاه أن ينتظر حيث هو ، وراح يرتقى السلالم متاقلا ، ووقف على عتبة باب شقته لاهثا ، ثم سألها بصوته الغليظ :

— ماذا تريدان ؟ أما كنت تستطيعين الانتظار حتى الصباح ؟

رأته المرأة وقد تسمرت قدماه بالعتبة لا يريد أن يزايها كأنه يتعاشى أن يخرق حرمة بيت غريب ، فتميزت غيظا ، وحدجته بعينين محمرتين من السهر والغضب ، ولكنها لم ترد أن تبادره بالغضب ، فقالت وهي تغالب انفعالها :

— تفضل بالدخول يا معلم .

وتساءل المعلم كرشة لماذا لا تتكلم إذا كان لديها حقا ما تريد أن تقوله ثم سأها
بخشونة :

— ماذا تريدین ؟ .. انطقی !

يا له من رجل نافذ الصبر ! يقطع الليالى الطوال خارج البيت دون ملل ،
ولكنه يضيق ذرعا بحديث دقيقتين معها . ومع ذلك فهو رجلها أمام الله
والناس ، وأبو أبنائها جميعا ، ومن عجب أنها لم تستطع — على إساءته إليها —
أن تبغضه أو تهمل شأنه . فهو رجلها وسيدها الذى لا تنى عن الاستئثار به ،
واسترداده كلما مد الإثم يدا لاخطافه . بل إنها لفخور به حقا ، فخور بفحولته
ومكانته فى الزقاق وسيطرته على المعلمين من أقرانه ، ولولا هذه النقيصة المنكرة
لما وجدت له ضريعا فى الدنيا . ها هو يستجيب لداعى الشيطان ، ويود لو أعفته
من حديثها لينطلق إليه من توه ! واشتد بها الغيظ فقالت بحدة :

— ادخل أولا .. لماذا تقف على العتبة كالأغراب ؟!

فنفخ المعلم مغيظا محنقا ، وجاز العتبة إلى الدهليز برما ساخطا وهو يتساءل
بصوته الأجش :

— ماذا وراءك ؟

قالت وهو ترد الباب :

— استرح قليلا .. لدى كلمة قصيرة ..

ونظر إليها مستريا ! ماذا تريد المرأة ؟ هل تعترض سبيله مرة أخرى ؟!
وصاح بها :

— تكلمى لماذا تضيعين الوقت سدى ؟

فسأله بحنق :

— أمتعجل أنت يا معلم ؟

— أتجهلين هذا ؟

— ما الذى يدعو لهذه العجلة ؟

فازدادت رييته ، وامتلاً صدره حنقا ، وتساءل إلام يحتمل هذه المرأة ؟
كانت عواطفه نحوها مضطربة متناقضة . كان يكرها حيناً ويحبها حيناً آخر .
ولكن كانت الكراهية تغلب عليه إذا جره الإثم إلى هاويته ، ويزيد الأمر وبالا إذا
توثبت المرأة للالتقضاض عليه . وكان يتمنى فى قرارة نفسه لو كانت امرأته
« عاقلة » فتركته وشأنه . ومن عجب أنه كان يرى نفسه على حق دائماً ،
ويعجب لاعتراضها سبيله بلا مبرر ! أليس من حقه أن يفعل ما يشاء ؟ وأليس من
واجبها أن تطيع ، وأن ترضى ما دامت حاجاتها مقضية ورزقها موفوراً ؟! وقد
أمست من ضرورات حياته ، كالنوم والحشيش والبيت بخيرها وبشرها ، فلم
يفكر جاداً فى التخلص منها ، ولو أراد ما منعه مانع ، ولكنها كانت تملأ فراغاً ،
وتقوم على العناية بأمره ، ويريدها — على أية حال — زوجاً له .. ولكنه تساءل
على رغم هذا كله — فى حنقه — إلام يحتمل هذه المرأة ؟ وصاح بها :

— لا تكونى حمقاء وتكلمى أو دعينى أذهب لحال سبيلى ..

سألته باستياء وحنق :

— ألا تجد قولاً أفضل من هذا تخاطبنى به ؟

فزجر المعلم قائلاً :

— الآن علمت أنه ليس لديك ما تقولينه : والأفضل أن تنامى شأن النساء

العاقلات ..

— ليتك تنام أيضاً شأن الرجال العقلاء !

فضرب المعلم كفا بكف وصاح :

— كيف لى بالنوم فى هذه الساعة ؟

— فلماذا خلق الله الليل ؟

فقال الرجل بدهشة وغيظ :

— ومتى كنت أنام الليل ؟ هل أنا مريض يا مرة ؟!

فقلت بلهجة ذات معنى خاص علمت أنه سيدركه من فوره :
— تب إلى الله يا معلم وادع الله يقبل التوبة ولو جاءت متأخرة !
وأدرك ما تريد ، وقطع الشك باليقين ، ولكنه قال متجاهلا وهو يتميز
غيظا :

— ما في السهر من ذنب يتوب الإنسان عنه .

فزادها تجاهله لها حنقا وقالت :

— تب عن الليل وعمّا في الليل .. !

فقال المعلم بخبث :

— أتريديني أن أهجر حياتي !

فصاحت به وقد غلبها الغضب :

— حياتك !

فقال بخبث :

— أجل . الحشيش حياتي !

فتطاير الشرر من عينيها وهي تقول وقد حدثتها نفسها بأن تصبك خديه

السوداوين :

— والحشيش الآخر ؟ !

فقال متهمكا :

— أنا لا أحرق إلا صنفا واحدا .

— أنت لا تحرق إلاي . لماذا لا تسهر في مكانك المعتاد من السطح !

— ولماذا لا أسهر حيث يروقتي السهر ؟ على السطح ، في المحافظة ، في قسم

الجمالية ؟ ما شأنك أنت ؟

— لماذا غيرت مكان سهرتك ؟

فصعد الرجل رأسه وصاح :

— اللهم فاشهد . أعفيتني حتى الآن من محاكم الحكومة ونصبت لي محكمة

دائمة في بيتي (ثم طامن رأسه كرة أخرى واستدرك) ألا فاعلمي أن بيتنا قد أصبح مشبوها . والخبرون يجوسون حوله .

فسأله بسخرية مرة :

— ترى هل هذا الشاب المتهتك من بين هؤلاء المخبرين الذين أطاروك عن عثك .

آه ، صار التلميح تصريحاً ! واربد وجهه الضارب للسواد ، وسأها بصوت ينم عن الضجر :

— أي شاب هذا ؟

— الفاجر الذي تقدم له الشاي بنفسك كأنك رددت ضييا كسنقر !

— ما في ذلك من عيب ، فالمعلم يخدم زبائنه كالصبي سواء بسواء .

فسأله متهمكة بصوت متهدج من الغضب :

— لماذا لا تخدم عم كامل مثلاً ؟ لماذا لا تخدم إلا الفاجر ؟

— الحكمة توجب خدمة الزبائن الجدد !

— الكلام سهل على من يريده ، ولكن فعلك فاضح فاجر .

فأوماً إليها بيده منذراً وهو يقول :

— امسكي لسانك يا مجنونة .

— الناس جميعاً يكبرون فيعقلون ..

فقرض أسنانه وسب ولعن ، ولكنها لم تناله واستطردت تقول :

— أناس يكبرون فيعقلون ، أما أنت فكلما كبرت قل عقلك .

— خرفت يا مرة ! خرفت وحياة الحسين ! عليه العوض !

فصاحت بصوت غليظ مرتعش النبرات :

— الرجال أمثالك يستأهلون العذاب . هلا كفيتنا شر الفضائح ! هلا كفيتنا

ذل الشماتة !

— عليه العوض ! عليه العوض !

وغلّبها اليأس والغضب فصاحت به مندرة :

— اليوم تسمعى أربعة جدران ، غدا تسمعى الحارة كلها ؟
فرفع جفنيه الثقيلين وسألها بقوة :

— تهددينى ؟!

— أهددك ، وأهدد أهلك ! أنت تعرف من أنا !

— يبدو أنى سأهشم هذا الرأس الخرف !

— هىء .. هىء ، والله ما ترك الحشيش والفجر قوة فى ساعديك ، والله

ما تستطيع أن ترفع يدا ! .. انتهيت ، انتهيت يا معلم ..

— انتهيت بفضلك . وهل ينهى الرجال إلا النساء ! ..

— أسفى على من دون النساء جميعا !

— لمه ؟ .. خلقت بناتا ستا ورجلا .. غير حالات الإجهاض والسقط .

فصاحت فى غضب جنونى :

— ألا تستحى من ذكر الأبناء ؟ ألا يزجرك ذلك عما تتردى فيه من

الفجور !.

فضرب الجدار بقبضته ، وتحول عن موقفه متجها نحو الباب ، وهو يقول :

— امرأة مجنونة خرفة ..

فصرخت وراءه :

— هل نفذ صبرك حقا ؟ .. أتشفق عليه من طول الانتظار ؟ .. سترى عاقبة

فجرك يا داعر .. ؟

وأغلق المعلم الباب بعنف ، فرنت صفقته رنينا مدويا مزق سكون الليل ،

وجعلت أم حسين تكور يدها فى غضب وحنق ، وقد امتلأت نفسها رغبة فى

الانتقام .

ألقي عباس الحلو على صورته في المرأة نظرة فاحصة ناقدة حتى لاحت في عينيه البارزتين نظرة ارتياح : وكان قد رجل شعره بأناة ، ونفض الغبار عن بدلته بعناية ، ثم دلف من باب دكانه ووقف ينتظر . هي ساعة الأصيل المحبوبة ، والسماء صافية عميقة الزرقة ، والجو ملطف بدفء طارئ جادت به الطبيعة غب رذاذ اتصل يوما كاملا ، وقد اغتسلت أرض الزقاق التي لا تستحم إلا مرتين أو ثلاثا في العام ، وظلت بعض منخفضات الصناديق مغمورة بالماء ملبدة بالطين . وكان عم كامل داخل دكانه الصغير يهوم على كرسيه ، فأشرق وجه الحلو بابتسامة لطيفة ، وما لبث أن دب الوجد في أعماقه فراح يدندن بصوت منخفض :

هليت يا قلبي على طول الزمن ترتاح
وتنول وصال اللي تهوى ، وفيه ترتاح
مسير جروحك على طول الزمن تبرى
ويجيلك الطب . لا تعلم ولا تدري
مثل سمعناه منقول عن ذوى الخبرة
الصبر يا مبتلى ، جعلوه للفرج مفتاح
وفتح عم كامل عينيه وتثاءب ، ثم نظر إلى الشاب الواقف على باب دكانه ، فضحك هذا وعبر الطريق إليه وقرصه في ثديه الهش ، وقال بسرور :
— عشقنا وستضحك لنا الدنيا ..

فتهد عم كامل وقال بصوته الرفيع :
— مبارك يا عم ، ولكن هلا سلمتني الكفن قبل أن تبيعه لتحصل على المهر !
فضحك عباس الحلو ضحكة عالية ، وغادر الزقاق متمهلا . كان يرتدى

بدلته الرمادية ، وهى الوحيدة أيضا ، وكان قد قلبها منذ عام ، ثم رفا الرفاء بعض أطرافها ، ولكنه كان يعنى بتنظيفها وكيها ، فبدا — على نحو ما — أنيقا ! وكان يضطرم حماسة ونشوة وشجاعة ، ويضطرب بهذا الضيق الشديد الذى يسبق عادة البوح بمكنون الفؤاد . كان فى تلك الفترة يحيا بالحب ، للحب ، ويدور بجناحيه الملائكيين فى سماء السرور . وكان حبه عاطفة رقيقة ورغبة صادقة وشهوة جائعة ، يهوى الشدين كما يهوى العينين ويلتمس وراء الشدين حرارة الجسد ، كما يتلمس فى العينين نشوة غامضة ساحرة . وقد سر سرور الظفر يوم تعرض للفتاة فى الدراسة ، وصور له خياله إعراضها كما لو كان ذلك الإعراض السلبي الذى تلبى به النساء نداء الهوى . واستأثرت به النشوة أياما ، ثم مضت حماسته تفر ونشوته تنجو ، لا لجديد جد ، ولكن لتيقظ الشك وفعله . وراح يتساءل لماذا يظن الإعراض دلالا ؟؟ ولم لا يكون إعراضا حقا ؟! لأنها صديته فى غير قسوة ولا فظاظة ؟ ولكن هل يتوقع الإنسان من جارة العمر أقل من هذه المجاملة ؟.. حقا لقد غالى فى سروره ، وإنها لنشوة كاذبة . بيد أنه لم ينكص على عقبيه ، وكان كلما لسعه الشك اندفع فى سبيله ذائدا عن سعادته . كان عند الضحى يبرز أمام دكانه فيراها إذ تفتح النوافذ لتشمس الشقة ، وفى المساء يجلس بكرسيه على عتبة القهوة تحت نافذتها ، يدخن الجوزة ، ويخطف النظرة تلو النظرة من الشباك المغلق يجثم وراء خصاصه الشبح المحبوب . ولم يقنع بهذا فتعرض لها مرة ثانية فى الدراسة ، ولكنها صديته كما صديته أول مرة ، وأعاد الكرة فأفلتت منه أيضا . ولكنه رجع وقد عاوده الأمل وأظله الفرح والسرور . وقال لنفسه إن السعادة مهياة له ولا تقتضيه إلا مزيدا من الشجاعة والصبر . وهكذا انطلق هذه المرة ممتلئا شجاعة وثقة وهياما ، ورأى حميدة وصويحاتها قادمات فانتحى جانبا حتى مررن به ، ثم تبعهن متمهلا . وقد لاحظ أن أعين البنات يثقبه بنخب مريب فداخله سرور وزهو ، وتابع سيره حتى انفرط عقدهن عند نهاية الدراسة ، فحث خطاه حتى صار منها على مرمى ذراع ، وابتسم إليها

ابتسامة رقيقة متعثرة بالارتباك ، وغمغم بتحيته المحفوظة :
— مساء الخير يا حميدة ..

كانت تنتظره بلا ريب ، ولكنها كانت في حيرة من أمر نفسها . لم تكن تحبه ولم تكن تكرهه ، ولعل كونه الفتى الوحيد الذى يصلح لها فى الزقاق هو ما جعلها تشفق من قطعه أو صده بحزم وفضاظة . فأغضت عن تعرضه لسبيلها مرة أخرى ، مكتفية بزجر لين ، وإفلات لطيف ، ولو شاءت أن تصعقه لصعقته ، وكانت على رغم تجربتها المحدودة فى الحياة تشعر بالفارق الكبير بين هذا الفتى الوديع وبين طموحها النهم الذى يضرمه نزوعها الغريزى إلى القوة والجموح والسيطرة والعراك ! . حقا كانت تهيج جنونا إذا قرأت فى نظرة عين معنى للتحدى أو الثقة ، ولكن لم تبعثها إلى الرضا هذه النظرة الوديدة الطيبة التى تلوح دواما فى عينى الحلو ، وتولاها شعور بالحيرة والقلق لتردها بين الحرص عليه بوصفه الفتى الصالح لها فى الزقاق ، والنفور منه لا ينهض على أسباب واضحة يطمأن إليها . فلا ميل صريح ولا نفور صريح . ولولا إيمانها بالزواج كنهاية طبيعية محتومة لما ترددت فى نبذه والقسوة عليه . لذلك أحبت مجاراته ، وسبر غوره ، واستخراج مكنون لسانه ، لعلها تجد فى ذلك كله أو فى بعضه مخرجا لها من حيرتها المؤسسية . وخاف الفتى أن يمتد صمتها حتى ينطوى الطريق ، فغمغم كالضارع :

— مساء الخير ..

وانبسط وجهها البرنزى الجميل ، وتمهلت فى مشيتها وهى تنفخ فى ضجر مصطنع قائلة :

— ماذا تريد !

ولمح انبساط وجهها فلم يعبا بضجرها ، وقال بأمل ورجاء :

— ملى بنا إلى شارع الأزهر فهو طريق مأمون والظلام وشيك ..
وعدلت صامتا عن طريق الدراسة إلى الأزهر ، فتبعها وهو يكاد يخرج من زقاق المدق (

جلده فرحا . ورجع رأسها صدى هذه الكلمات « طريق مأمون .. الظلام وشيك » ، فأدركت أنها تقارف فعلا تحاذر عليه أعين الرقباء . وابتسمت بجانب ثغرها في تحد ! . كانت « الأخلاق » أهون شيء على نفسها المتمردة ، وقد نشأت في جو لا يكاد يتفياً ظلها ، أو يتقيد بأغلالها . وزادها استهانة طبع جموح وأم مهمة قليلا ما تستكن في بيتها ، فانطلقت على سجيتها تخاصم هذه وتعارك تلك فلا تعمل لشيء حسابا ، ولا تقيم لفضيلة وزنا . وأما عباس الحلوف فقد لحق بها ، وسار لصقها وهو يقول بصوت ينم عن الفرح والسرور :

— دمت من فتاة كريمة !..

ولكنها قالت له في شبه ضجر :

— ماذا تريد مني ؟

فقال الفتى وهو يتالك أنفاسه المضطربة :

— الصبر طيب يا حميدة ، تلطفني معي ولا تكوني قاسية على ..

فعطفت نحوه رأسها وهي تغطيه بطرف ملاءتها وقالت بجدة :

— هلا قلت لي ماذا تريد !

— الصبر طيب .. أريد .. أريد كل شيء طيب ..

فقالت بتأفف :

— لا تريد أن تقول شيئا ، ونحن نجد في السير فنبتعد عن طريقنا ، والوقت

يمضي ، وأنا لا أستطيع أن أتأخر عن موعد عودتي ..

فأشفق من ضياع الوقت وقال بلهفة :

— سنعود في وقت قريب فلا تخافى ولا تجزعى . وسنجد عذرا تتحلينه

لأمك ، إنك تفكرين كثيرا في الدقائق أما أنا فأفكر في العمر كله ، في حياتنا

جميعا ، هذا هو شغلي الشاغل . ألا تصدقيني ؟ إنه جل تفكيرى وهمى وحياة

الحسين الذى يبارك هذا الحى الطاهر !..

كان يتكلم في بساطة وصدق فشعرت بحرارة حديثه ، ووجدت لذة في

الإصغاء إليه ، وإن لم يتحرك قلبها الجامد ، فتناست حيرتها المعذبة ، وألقت إليه بانتباهها ، ولكنها لم تدر ماذا تقول فلاذت بالصمت ، وتشجع الفتى فاستدرك قائلاً في انفعال :

— لا تعدى على الدقائق ولا تلقى على هذا السؤال الغريب . تسألينى يا حميدة عما أريد ، أتجهلين حقاً ما أريد قوله ؟! لماذا أتعرض لك فى الطريق ؟ لماذا أتبع عينى ظلك حيث تكونين ؟ لك ما تشائين يا حميدة . ألم تقرئ شيئاً فى عينى ؟ يقولون إن قلب المؤمن دليله ؟ فماذا علمت ؟ اسألى نفسك . اسألى أهل الزقاق جميعاً ، كلهم يعرفون .

وقطبت الفتاة وتمتت وهى لا تدرى :

— فضحتنى ..!

فهاهنا قولها ، وهتف متأثراً :

— لا فضيحة فى حياتنا وما أكن لك إلا الخير ، وهذا الحسين يشهد قولى ويعلم بسريرتى . أنا أحبك ، ولطالما أحبيتك ، أحبك أكثر مما تحبك أملك ، وأحلف لك على صدقى بالحسين ، وجد الحسين ورب الحسين ..

وشعرت بسرور ولذة ، ودخلها زهو تملق نزوعها الجامع إلى القوة والسيطرة . والحق أن كلمات الحب الحارة خليقة بأن تطرب الآذان ولو لم ترجع القلوب أنغامها ، فهى كالأفاويه للنفس المسدودة ! بيد أن خيالها وثب وثبة قوية عبر بها قنطرة الحاضر إلى المستقبل ، فساءلت ترى كيف تكون حياتها فى كنفه لو صدقت الأيام أمله ؟ إنه فقير ، رزقه كفاف يومه ، ولسوف يأخذها من الطابق الثانى لبيت الست سنية عفيفى إلى الطابق الأرضى فى بيت السيد رضوان الحسينى . وأحسن ما يمكن أن تجهزها أمها فراش نصف عمر وكنبة وعدد من الأواني النحاسية . ولا يدخر لها بعد ذلك إلا الكنس والطبخ والغسل والإرضاع . وربما قطعت طريقها حافية فى جلباب مرقع . وريعت كأنما اطلعت على مشهد مخيف . وتحرك فى أعماقها هيامها المفرط بالثياب ، وتيقظ ذلك

النفور الوحشى من الأطفال الذى تعيرها به نسوة الزقاق . وعأودتها حيرتها
المعذبة ، فلم تدر أأصاب أم أخطأت فى مطاوعتها له وسيرها معه . وكان عباس
ينعم إليها النظر فى افتتان وهيام وأمل ، فأول صمتها وتفكيرها على هواه ، وقال
لها بصوت ينبعث من أعماق فؤاده :

— لماذا تصمتين يا حميدة !.. كلمة واحدة تشفى الفؤاد وتغير الدنيا . كلمة
واحدة تكفينى . تكلمى يا حميدة . اخرجى عن هذا الصمت ..

ولكنها لم تنبس بكلمة ، وظلت فريسة للحيرة ، فاستطرد عباس قائلاً :
— كلمة واحدة تملأ روحى أملاً وسعادة . لعلك لا تدريين ما فعله حبك بى !
إنه يبعث فى روحا جديدة لا عهد لى بها ! إنه يخلقنى خلقاً جديداً ، ويدفعنى
لاقتحام الدنيا غير هباب ، أما علمت هذا ؟.. لقد استيقظت من سباتى ، وغدا
تريننى شخصاً جديداً ..

ماذا يعنى ؟ وانعطف رأسها كالمسائل . فأنشرح صدره لاهتمامها وقال
بحماسة وفخار :

— أجل . توكلت على الله وسأجرب حظى كالأخرين . سألتحق بخدمة
الجيش البريطانى ، وعسى أن يصادفنى من التوفيق ما صادف أخاك حسين .
فلاح الاهتمام فى عينيها وسأله على غير وعى منها :
— حقاً .. متى يكون ذلك ؟

كان يؤثر بلا شك أن تحدثه حديثاً آخر ، وأن يلمس انفعالها قبل أن يستثير
اهتمامها . أن يسمع هذه الكلمة العذبة التى تذوب نفسه شوقاً لسماعها ، ولكنه
ظن هذا الاهتمام قناعاً نسجه الحياء ليستر به عاطفة مشبوبة كعاطفته تهاب البوح
بسرّها . واهتز صدره فرحاً ، وقال مفتر الشجر :

— عما قريب أسافر إلى التل الكبير ، وسأشتغل بادیء الأمر بيومية مقدارها
خمسة وعشرون قرشاً ، وقد أكّد لى جميع الذين استشرتهم فى الأمر أن هذا المقدار
قليل من كثير مما يصيب جميع المشتغلين فى الجيش . وسأجعل همى فى أن أوفر من

يوميتى أقصى ما أستطيع توفيره ، حتى إذا عدت إلى هنا عقب انتهاء الحرب —
وهى بعيدة كما يقولون — فتحت صالونا جديدا فى السكة الجديدة أو شارع
الأزهر ، واستقبلت حياة رغيدة ناعم بها .. معا .. إن شاء الله . ادعى لى
يا حميدة ..

هذا شىء جديد . لم يخطر لها ببال . وإذا كان الفتى جادا فقد حقق لها كثيرا مما
تصبو إليه نفسها . وإن نفسا كنفسها مهما تناهى بها التمرد والجموح حرية بأن
يروضها المال ويستأنسها . وغمغم عباس معاتبا :
— ألا تريدان أن تدعى لى ؟

فقلت بصوت خافت وقع من أذنيه موقعا جميلا وإن كان صوتها نقطة ضعف
فى جمالها :

— الله يوفق خطاك ..

فتهد مسرورا وقال :

— آمين . استجب لها يا رب . ستبسم لنا الدنيا بإذن الله . ارضى أنت على
ترض الدنيا جميعا .. أنا لا أسألك شيئا إلا الرضا .

وأخذت تخرج من حيرتها رويدا رويدا ، فقد وجدت فى الظلمة التى كانت
تتخبط فيها بصيص نور . نور الذهب اللامع . وإذا كان شخصه لا يرضيها ،
ولا يحرك أنوثتها ، فعسى أن يبرز منه هذا الضوء اللامع الذى يستهويها ، ويلبى
نزوعها الصارخ إلى القوة والجاء . وهو بعد هذا كله — وقبل هذا أيضا — الفتى
الوحيد الصالح فى الزقاق ! أجل ، هذا حق لا ريب فيه . وقد خامرها شعور
بالارتياح ، وأنصتت إليه وهو يقول :

— ألا تسمعينى يا حميدة ؟ أنا لا أسألك إلا الرضا !

فارتسمت على شفثيها الرقيقتين ابتسامة ، وغمغمت :

— وفقك الله ..

فعاد يقول فى ابتهاج :

— ليس من الضروري أن ننتظر حتى نهاية الحرب !.. سنكون أسعد مخلوقين في الزقاق ..

وقطبت في تقزز ، وندت عنها هذه الكلمة بلا وعى ، وفي ازدراء شديد :
— زقاق المدق !

فنظر إليها في ارتباك ولم يجرؤ على الدفاع عن الزقاق الذى يحبه ويؤثره على الدنيا جميعا . وتساءل منزعجا : ترى هل تزدري هذا الزقاق الطيب كأخيها حسين ؟ حقا لقد رضعا من ثدى واحد !. وأراد أن يمحو ما تركه فيها من أثر سيئ فقال :

— نختار المكان الذى تحبين . هاك الدراسة والجمالية وبيت القاضى ، اختارى بيتك حيثما تشائين !

وتنبت لقوله في حيرة ، وأدركت أنها تكلمت أكثر مما ينبغى ، وأن لسانها خانها بلا وعى منها ، فعضت على شفتها ، ثم قالت بإنكار :
— بيتى ؟ أى بيت تعنى ؟ ما شأنى أنا فى هذا الأمر !
فهتف بها فى عتاب :

— كيف تقولين هذا القول ؟ ألم يكفك ما عانيت من عذاب ؟ ألا تدريين أى بيت أعنى ؟ سامحك الله يا حميدة . أعنى البيت الذى سنختاره معا ، بل الذى تختارينه أنت وحدك ، لأنه بيتك أنت دون الناس جميعا . وإنى أهاجر فى سبيل هذا البيت كما علمت . ولقد دعوت لى بالتوفيق ، فلا مفر من الحقيقة السعيدة الرائعة . اتفقنا يا حميدة وانتهى الأمر .

هل اتفقا حقا ؟ أجل اتفقا ! ولولا ذلك ما رضيت بالسير معه ومنازعة الحديث والخوض فى أحلام المستقبل . وماذا يضيرها من ذلك ؟ أليس هو فتاها على أى حال ؟ ومع ذلك ساورها شعور بالقلق والتردد . أخقا أصبحت فتاة أخرى لا تكاد تملك من أمر نفسها شيئا ؟ وأحست عند ذاك يده تتلمس راحتها وتقبض عليها وتضفى على أناملها الباردة حرارة ودفا . أتنزعها منه وتقول له

« كلا .. لا شأن لى فى هذا الأمر ! » ؟ ولكنها لم تفعل شيئا ، ولم تنبس بكلمة ، ومضيا معا وراحتها فى كفه الساخنة . وشعرت بأصابعه تشد عليها بحنان ، وسمعته يقول :

— ستتقابل دوما .. أليس كذلك ؟

وأبت أن تنبس بكلمة ، ففنع بلغة الصمت وقال مرة أخرى :

— ستتقابل كثيرا ، ونزن أمورنا جميعا . ثم أقابل أمك .. لا بد من الاتفاق معها قبل السفر .

وانترعت راحتها من يده وهى تصيح فى جزع :

— سرقنا الوقت ، وابتعدنا كثيرا .. هلم إلى العودة ..

ودارا على عقبيهما معا وهو يضحك ضحكة سعيدة رجعت بعض أصدقاء السعادة التى يجيش بها قلبه . واستحثا الخطى حتى بلغا الغورية فى دقائق ، وافترقا عندها ، فمالت هى إليها ، واتجه هو نحو الأزهر ليعود إلى الزقاق عن طريق الحسين ..

« اللهم عقوك ورحمتك ».

نطقت الست أم حسين بهذه العبارة وهى ماضية إلى مسكن السيد رضوان الحسينى . كانت تسأل الله العفو والرحمة فى يأس وغيظ وحنق مما تعانيه . أعياءها إصلاح زوجها وعجزت عن ردعه ، فلم تر بدا فى النهاية من مقابلة السيد رضوان ، لعله أن يفلح هو — بصلاحه وهيبته — فيما أخفقت هى فيه . ولم يكن سبق أن فاتحت السيد فى مثل هذا الأمر الفظيع ، ولكن يأسها من ناحية ، وإشفاقها من شماتة الأعداء إذا جأهت بالخصومة والطعان من ناحية أخرى ،

دفعها إلى طرق هذا الباب الصالح الآمن لعل وعسى .! وفي البيت استقبلتها حرم السيد رضوان فجلسا معا بعض الوقت ، وحرم السيد في منتصف الحلقة الخامسة من عمرها ، وهي حلقة يعتز بها نساء كثيرات ، ويعتبرنها الغاية من النضج الأنثوى ، ولكن المرأة كانت مهزولة مهدمة ، تلوح في جسمها وروحها آثار السهام التي سددها إليها الدهر حين انتزع من بين ذراعيها أطفالها طفلا بعد طفل . وكانت لذلك تضيء على بيتها الساكن روحا من الحزن والكآبة لم يجد إيمان السيد العميق في تبديد غشاوته . وكانت تبدو ، في هزالها وحزنها ، صورة مناقضة لصورة زوجها القوى المشرق المطمئن البسام . كانت امرأة ضعيفة فلم يقلها إيمانها — على رسوخه — من عثرتها المضنية . وكانت أم حسين تعلم بأمرها ، فأقبلت تشكو بثها ، وهمها بقلب مطمئن إلى أنه سيجد أذنا صاغية تستميلها الشكوى والأحزان . ثم استأذنت في مقابلة السيد رضوان فغابت المرأة لحظات ثم رجعت تدعوها إلى لقائه . وقادتها إلى حجرته .

وكان السيد يجلس على فروة مسبحة ، المجمة أمامه ، وإبريق الشاي على يمينه . كانت حجرته الخاصة صغيرة أنيقة ، تحديق بأركانها الكنبات ، ويغطي أرضها سجاد شيرازي ، تقوم في وسطها مائدة مستديرة رصت عليها الكتب الصفرة ، ويتدلى فوقها من السقف مصباح غازي كبير . وكان السيد يرتدى جلبابا رماديا فضفاضا ، وطاقيّة صوفية سوداء يضيء تحتها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالبدن المنير . في هذه الحجرة كان يخلو إلى نفسه كثيرا ، قارئاً أو مسبحة أو متأملاً . وفيها كان يجتمع بأصدقائه من العلماء والصوفيين وأئمة الأذكار يتذاكرون الأخبار ويروون الأحاديث ويناقشون ما يعرض لهم من الآراء ، ولم يكن السيد رضوان معدودا من العلماء المتفقهين في الدين ، ولا من الأذكياء الأفذاذ ، ولا من أولئك الذين يجهلون أقدارهم فيضعونها من حيث يريدون أن يرفعوها فوق طاقتها ، ولكنه كان مؤمنا صادقا ، وورعا تقيا ، يستأسر نفوس العلماء بقلبه الكبير وصدره المسماح وخلقه القويم وعطفه وحنانه

ورحمته ، فكان بحق من أولياء الله الصالحين .
وقد استقبل أم حسين واقفا ، غاضا بصره ، فأقبلت عليه في ملاءتها
مبرقة ، وسلمت عليه بيد ملتفة بطرف الملاعة كيلا تنقض وضوءه ، ورحب
الرجل قائلا :

— أهلا وسهلا بجارتنا الفاضلة ..

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكنية قبالة ، وتربع الرجل على الفروة
وراحت أم حسين تدعوه :

— الله يكرمك يا حضرة السيد ويطيل عمرك بحق جاه المصطفى ..
وكان يحدس ما حملها على مقابلته ، فلم يسألها عن صحة المعلم زوجها كما
تقضى بذلك آداب الضيافة ! وكان يعلم كالأخوين بسيرة المعلم كرشة ،
وتناهى إليه ما قام بين الرجل وزوجه من شقاق وشجار في ظروف سابقة مماثلة ..
فأيقن أنه أقحم في هذا النزاع المتجدد على غير إرادة . وسلم للأمر الواقع ، وتلقاه
بصدره الرحب كما يتلقى غيره مما يكره ، وابتسم ابتسامة لطيفة وقال يشجعها
على الكلام :

— خير إن شاء الله .

لم تكن المرأة تعرف التردد ، ولا كان الحياء من أسباب ضعفها في يوم من
الأيام ، بل هي امرأة على قدر كبير من الشراسة والوقاحة ، ولم تكن امرأة تفوقها
مراسا في الزقاق كله إلا حسنية الفرانة ، لذلك قالت للسيد بصوتها الغليظ :

— يا سيد رضوان ، أنت الخير والبركة ، وأنت رجل زقاقنا الفاضل ، لذلك
قصدتك أسألك المعونة في شدتي ، وأشكو إليك الرجل الفاجر زوجي ..
وعلا صوتها في آخر كلامها وانخوشن ، فابتسم السيد مرة أخرى ، وقال
بصوت لا يخلو من رنة الأسف .

— هاتي ما عندك يا ست أم حسين . إني مصغ إليك ..

فتهدت المرأة وقالت :

— الله يرفع قدرك يا زين الرجال : الرجل يا سى السيد لا يحتشم ولا يرعوى . وكلما حسبت أنه قد تاب عن غيه طلع على بفضيحة جديدة . إنه رجل فاجر لا يرده عن شهوة لا سن ولا زوجة ولا أبناء . ولعلك علمت بأمر هذا الشاب الرقيق الذى يوافيه كل ليلة إلى القهوة ؟! هذه هى فضيحتنا الجديدة ..

ولاحت فى العينين الصافيتين سيماء الكدر ، وأطرق متفكرا مغتما . اغتم الرجل الذى عجز ألم الشكل المبرح عن أن ينال من صفاء نفسه ، لبث صامتا ساكنا ، يتعوذ قلبه من الشيطان وعبه . واتخذت المرأة من حزنه مبررا قويا لغضبها فانفعلت ، وهدرت قائلة بنبرات فظيعة :

— فضحنا الرجل المتهتك . والله لولا عشرة العمرة والأبناء لهجرت بيته لغير رجعة أبدا . أيرضيك هذا العار يا سى السيد ؟! أيرضيك هذا السلوك الشائن ؟! لقد نصحته فلم ينتصح ، وأنذرتة فلم يرعوى ، فلم أجد سبيلا إلّاك . وما كنت أحب أن ألقى على سمعك الطاهر هذه الأنباء المخجلة ، ولكن لا حيلة لى ، وأنت سيد الحى جميعا ، ورجله الفاضل ، وأمرك مطاع . فلعلك بالغ منه ما لم يبلغه كلامى ولا كلام الناس جميعا ، حتى إذا تبين لى أن نصحك لا يجدى كان لى معه شأن آخر . أجل إلى أدارى اليوم غضبى ، ولكنى إذا يئست من صلاحه فسأشب النار فى الزقاق جميعا وأجعل من جسده النجس خطاما لها ..!

فحدجها السيد بنظرة عتاب وقال لها بهدوئه المألوف :

— أفرخى روعك يا ست أم حسين ، ووحدى الله ، ولا تغلبى الغضب على نفسك . أنت ست طيبة ! والكل يشهد لك بالفضل ! فلا تجعلى من نفسك وزوجك نادرة تلوكها الألسن . والزوجة الطيبة غطاء محكم يستر ما أمر الله به أن يستر ، عودى إلى دارك آمنة مطمئنة ، ودعى لى هذا الأمر ، والله المستعان ..

فقالت المرأة وهى تتمالك انفعالها :

— الله يكرمك ، الله يسعدك ، الله يشرف قدرك . أنت يا سيدى الملاذ

والمأوى ، وسأدع هذا الأمر بين يديك وأنتظر ، وربنا بينى وبين هذا الرجل الفاجر ..

وسكن الرجل خاطرها بما وسعه من كلم طيب ، وكان كلما ذكر كلمة طيبة دعت له المرأة وانهاالت بالشتائم على زوجها وراحت تسرد عليه طرفا من فضائحه . حتى أوشك صبر الرجل أن ينفد ! ثم ودعها مكرمة وهو يتهد من الأعماق ! وعاود جلسته متفكرا . كان يتمنى بلا شك لو لم يقحم في هذا الأمر ، أما وقد وقع المحذور فلا معدى عن إنجاز وعده . ونادى خادمه ، وأمره أن يدعو إليه المعلم كرشة ، فمضى الغلام على عجل . وانتظر ساكنا ، وذكر أنه يدعو لحجرتة — لأول مرة — فاسقا ، فلم يدخلها قبل ذلك إلا الفقهاء والصوفيون . وتهد من الأعماق ثم قال لنفسه : « إن من يهدى فاسقا خير ممن يجالس مؤمنا » . ولكن هل يبلغ هداية الرجل حقا ؟ . وهز رأسه الكبير . واستشهد بقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ . ومضى يتعجب من غواية الشيطان للإنسان ، وكيف يشذ به عن فطرة الله السوية . ثم قطع عليه حبل تأملاته ودخول خادمه معلنا حضور المعلم ، فأذن له ، ونهض لاستقباله . وجاء المعلم كرشة بجسمه الطويل النحيل ، وألقى على السيد من تحت جفنيه الثقيلتين نظرة تجلة واحترام ، وانحنى على يده مسلما . ورحب به السيد رضوان ودعاه للجلوس ، فجلس الرجل في المكان الذى كانت تجلس فيه زوجته قبل هنيئة ، وملاأ له قدحا من الشاي . كان المعلم آمنا مطمئنا لا يتوجس خيفة ، ولا يدرى شيئا عما دعا السيد إلى استدعائه . والحق أن من بلغ مبلغه من الذهول والشرود خليق بأن يفقد كل قدرة على التوجس والحيلة والحدس . وقد قرأ السيد في عينيه نصف الغمضتين الطمأنينة فقال له بهدوء مبتسما :

— شرفت دارنا يا معلم .

فرفع المعلم يديه إلى عمامته وقال :

— شرف الله قدرك يا سى السيد .

فقال السيد :

— لا تؤاخذنى على دعوتك فى أثناء عملك ، فقد رأيت أن أحداثك فى أمر هام كما يتحادث الإخوان ، ولم أجد لذلك مكانا أنسب من البيت .
فأحنى المعلم رأسه وقال بأدب جم :

— إنى طوع أمرك يا سى السيد ..

وخاف السيد الاسترسال فى المجاملات فيضيع الوقت سدى ، وتطول مدة غياب المعلم عن عمله ، فأراد أن يخوض الموضوع بلا تردد ، ولم تكن تنقصه الشجاعة ولا تعوزه الصراحة ، فقال بلهجة جدية :

— أحب أن أحدثك كما يتحدث الإخوان ، أو كما ينبغى أن يتحدث الإخوان إذا كان رائدهم المودة والإخلاص . والأخ المخلص من إذا رأى أخا له يهوى تلقاه بذراعيه ، أو وجده يتعثر أقالاه من عثرته ، أو حسبه فى حاجة إلى النصيح محضه النصيحة ..

وفترت حماسة المعلم ، وأدرك فى تلك اللحظة فحسب أنه وقع فى فخ ، فلاحت فى عينيه المظلمتين نظرة ارتياب ، وتمتم فى ارتباك وهو لا يدرى ماذا يقول :

— نطقت بالحق يا سى السيد ..

ولم يخف على السيد شيء من ارتبائه وارتياجه ، فقال بلهجة جدية أيضا لطفها نظرتة الوديدة الصافية :

— أخى ، سأصارحك بما فى نفسى فلا تؤاخذنى على صراحة ، فما استحق الموجدة من كان هدفه الإصلاح وباعثه المودة والإخلاص . والحق يا أخى أنى رأيت فى بعض سلوكك ما ساءنى ، وما لا أعده خليقا بك ..

وقطب المعلم كرشة منزعجا ، وجعل يخاطب السيد فى سره قائلا « مالك أنت ولهذا ! » . ثم قال متصنعا الدهشة :

— أساءك سلوكي حقا يا سي السيد ؟! .. معاذ الله ..

ولم يعبأ السيد دهشته المتصنعة واستدرك قائلا :

— إن الشيطان ليجد أبواب الشباب مفتحة فيلجها خفية وعلانية ويعيث

فسادا ، ومع ذلك فنحن لا نتساعح مع الشباب مفتح الأبواب ، ونلزمه أن يغلق

أبوابه في وجه الشيطان ، فماذا يكون الحال مع الشيوخ الذين وهبهم العمر

مفاتيح العصمة ؟ ماذا يكون الحال لو رأيناهم يفتحون أبوابهم طواعية ويدعون

الشيطان بأنفسهم ؟! .. هذا ما ساءني يا معلم كرشة ..

شباب شيوخ ! أبواب مفاتيح ! شيطان شياطين ! لماذا لا يريح نفسه ويدع

الناس يستريحون ؟! .. وهز رأسه حيرة ، ثم قال بصوت منخفض :

— لا أفهم شيئا يا سيد رضوان ..

وحدجه السيد بنظرة ذات معنى وسأله بلهجة لا تخلو من عتاب :

— حقا ؟!

فغمغم المعلم وقد بدأ يستشعر البرم والخوف :

— حقا ..

فقال السيد رضوان بحزم :

— حسبك تعلم ما أعني . والحق أني أعني هذا الشاب الرقيق ..

وسدت المنافذ في وجهه ، فاحتدم الغيظ في نفسه ، ولكنه كالفأر الواقع في

المصيدة جعل يتخبط وراء المنافذ المسدودة ، فتساءل بصوت ينم عن الهزيمة :

— أي شاب يا سي السيد ؟

فقال السيد بلهجة وديعة متحاميا إثارته :

— أنت تعرفه يا معلم . وإني لم أفاتحك بأمره لأسئ إليك أو أخجلك ، معاذ

الله ، ولكن لأرشدك لما فيه الخير . ما فائدة النكران ؟. الجميع يعرفون والجميع

يتكلمون . وهذا لعمرى ما آلمني أشد الألم ، آلمني أن أجذك مضغة الأفواه ..

فغلب المعلم الغضب ، وضرب فخذه بقبضة قاسية ، وقال بصوت أجش

تطائرت فظاظته مع نثار ريقه :

— ما بال الناس لا يريحون ولا يستريحون ! أحقا تراهم يتكلمون يا سي السيد ؟ هكذا هم أبدا منذ خلق الله الأرض ومن عليها . إنهم يخوضون في الأعراض لا لقبح يستقبحون ، ولكن لينتقصوا إخوانهم . ولو لم يجدوا نقيصة لخلقوها خلقا ثم خاضوا فيها ، أتحسبهم يتهامسون تأفقا وازدراء ؟ كلا والله . إنه الحسد يأكل قلوبهم أكلا .. ؟

وهال السيد هذا الرأي ، فقال له دهشا :

— ياله من رأى خاسر ! أتحسب أن هذا الفعل الشائن مما تحسد عليه ؟!

فتهانف ضاحكا وقال بحقد :

— لا تشك في قولي يا سيد رضوان ! إنهم طغمة هالكة . وليس للخير من رجع في نفوسهم (وأدرك عند ذاك أنه سلم بالتهمة وكاد يدافع عنها فاستدرك) ألا تدري من هذا الشاب ؟ إنه شاب مسكين أدارى بؤسه بالإحسان !! فضجر السيد من مراوغته ، وحده بنظرة كأنما يقول له « أيجوز هذا القول ! » ثم قال :

— يا معلم كرشة ، الغالب أنك لا تفهمنى . أنا لا أحاكمك ولا أعيرك ، فكلانا فقير إلى رحمة الله وعفوه ولكن لا تحاول النكران . إذا كان هذا الشاب مسكينا فدعه لخالقه والدنيا ملأى بالمحتاجين إن أحببت إحسانا ؟ — ولماذا لا يكون إحسانى لهذا الشاب ؟ يوسفى أنك لا تصدقنى وأنا رجل برىء .

ونظر السيد إلى الوجه المشرب بالسواد فى استياء مكتوم ، وقال بتؤدة : — هذا شاب رقيق سيئ السمعة ، ولقد أخطأت فى محاولة خداعى ، وكان الأخلق بك أن تقدر نصحى ، وتواجهنى صادقا صريحا . وأدرك المعلم أن السيد قد استاء وإن لم يلح الاستياء فى وجهه ، فلاذ بالصمت كاظما غيظه ، وأخذ يفكر فى الانصراف . ولكن السيد استدرك قائلا :

— إني أدعوك لما فيه صلاحك وصلاح بيتك ، ولست يائسا من جذبك للخير . اهجر هذا الشاب إنه رجس من عمل الشيطان . وتب إلى ربك إنه غفور رحيم . لو كنت من الصالحين لكنت الآن من الموسرين ، ولكنك تربح كثيرا وتحسر في بالوعة الرجس كثيرا ، وتبقى على الأيام فقيرا معدما . فماذا قلت ؟ وعدل المعلم عن المكابرة بصفة نهائية ، وخاطب نفسه قائلا إنه حر يفعل ما يشاء ، وليس لأحد من سلطان عليه ولو كان السيد رضوان الحسيني نفسه ! ولكنه لم يفكر لحظة واحدة في إغضاب السيد ولا تحديه ، فأطبق جفنيه على عينيه المظلمتين ، وقال بصوت منكر :

— هذا أمر الله !

فلاح الانزعاج في الوجه الصبيح وقال بحدة :

— بل أمر الشيطان ! حرام عليك يا شيخ .

فغمغم المعلم قائلا :

— لما يأمر الله بالهدى !

— لا تطع الشيطان يهدك الله لما فيه صلاحك : اهجر هذا الشاب أو دعني

أصرفه بسلام ..

فانزعج المعلم وغلبه الجزع ، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه فقال بحزم :

— كلا ياسى السيد ، لا تفعل ..

فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء ، وقال بصوت ينم عن الأسى !

— رأيت كيف تؤثر الغواية على الهداية ؟!

— ربنا الهادى ؟

وتولاه اليأس من هدايته ، فقال متضجرا :

— أقول لك للمرة الأخيرة اهجره أو دعني أصرفه بسلام ..

فقال المعلم بعناد وهو يتزحزح إلى طرف الكنية كأنما يهم بالنهوض :

— كلا ياسى السيد : أضرع إليك أن تدع هذا الأمر حتى يأمر الله بالهداية .

فتعجب السيد من عناده الوقح ، وتساءل متقززا :

— ألا ينجلك هذا الحرص على هذا الفعل الشائن ؟!

ونهض المعلم قائما وقد ضاق صدره بالسيد ووعظه ، وهو يقول :

— إن الإنسان ليقارف أفعالا كثيرة شائنة ، وهذا واحد منها ، فادع لي

بالهداية ، ولا تغضب علي ، وتقبل عذري وأسفى . ماذا يملك الإنسان من أمر

نفسه ؟

فابتسم السيد ابتسامة حزينة ، وقال وهو ينهض قائما كذلك :

— يملك كل شيء لو أراد ، ولكنك لن تفقه معنى لقولى ، فالأمر لله .

ومد له يده قائلا :

— مع السلامة .

وغادر المعلم كرشة البيت مقطبا مدمدما ، يسب الناس والزقاق والسيد

رضوان .

وانتظرت أم حسين متصبرة متجلدة يوما ويومين . كانت تقف وراء

خصاص النافذة المطلة على القهوة تترقب مقدم الشاب ، فتراه قادما يخطر ثم تراه

مرة أخرى — عند انتصاف الليل — وزوجها منصرفين صوب الغورية !

ابيضت عيناها من المقت والغضب ، وتساءلت يا ترى هل ذهبت نصيحة السيد

رضوان هباء ؟ وزارت السيد مرة أخرى ، فhez رأسه أسفا وقال لها « دعيه لحاله

حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » ، فرجعت إلى شقتها تغلى غليانا ، وتتوعد

شرا . لم تعد تقيم وزنا لشماتة الشامتين ، وانتظرت بالنافذة حتى أتى الليل وقدم

الشاب ، فتلفعت بملاءتها وغادرت الشقة كالجنونة ، ونزلت السلام وثبا ،

فكانت أمام القهوة فى دقيقة واحدة . كانت الدكاكين قد أغلقت وأوى

أهل الزقاق إلى القهوة كعادتهم كل ليلة ، وكان المعلم كرشة مكبا على صندوق المراكات في شبه نعاس فلم ينتبه لحضورها . واستقر بصرها الزائف على الشاب وهو يرشف الشاي من قدح في يده ، فاقتربت منه مارة أمام المعلم الذي لم يرفع بصره إليها ، وضربت القدح بكفها فاندلق على حجر الشاب الذي قام فزعا صارخا ! وصاحت به بصوت كالرعد :

— تشرب شايا يا ابن العاهرة !

وأحدقت الأعين بالمرأة سواء من يعرفها من أهل الزقاق أو من لا يعرفها من بقية الجلوس . والتفت نحوها المعلم كرشة كأنه يستيقظ بصب دلو ماء على وجهه . وهم بالوقوف ، ولكن المرأة دفعته في صدره ، وهي تصرخ في وجهه وقد أخرجها الغضب عن وعيها :

— إياك وأن تتحرك يا فاجر (والتفتت نحو الشاب واستدركت) ماذا أفرعك يا شاطر . يا مرة في ثياب رجل ، هلا أخبرتني عما يدعوك إلى المجيء هنا ؟!

ووقف المعلم كرشة وراء الصندوق وقد ألجم الغضب لسانه ، واربد وجهه ، ولكنها صاحت في وجهه :

— إن حدثتك نفسك بالدفاع عن رفيقك هشمت عظمك أمام الناس .
واندفعت نحو الشاب الذي تفهقر حتى التصق بالشيخ درويش وهي تصيح :
— أتريد أن تخرب بيتي يا رقيع يا ابن الرقعاء !
فقال لها الشاب مرتعدا :

— من أنت يا ستي ، ماذا فعلت حتى ..

— من أنا ؟ ألا تعرفني ؟! .. أنا ضرتك ..

وانهالت عليه ضربا ، فسقط طربوشه ، وسال الدم من أنفه . ثم قبضت على ربطة رقبته وشدت عليها بعنف حتى اختنق صوته . وقد ذهل الجلوس ، وجملقوا فيما يقع أمامهم بأعين دهشة ، ولكن قلوبهم رقصت جذلا ، ومنوا أنفسهم (زقاق المدق)

برؤية منظر بهيج مسل . فى حين دعا صراخ أم حسين المعلمة حسنية الفرانة فجاءت مهرولة يتبعها زوجها جعدة فاغرا فاه . ثم ظهر بعد قليل زينة صانع العاهات ، ولكنه وقف بعيدا كأنه شيطان انشقت عنه الأرض . ولم تلبث نوافذ البيت أن فتحت وأطلت منها الرعوس تستطلع ما هنالك . وأهاج الغضب المعلم كرشة ، ورأى فتاه يتضور ملتويا ، محاولا عبثا أن يخلص عنقه من قبضة المرأة القوية ، فاندفع نحوها ثائرا وهو يرغى زبدا كالفحول ، وشد على ساعدى امرأته صائحا فى وجهها :

— اتركه يا مرة وكفى فضيحة !

وأجبرت المرأة تحت ضغط زوجها على ترك غريمها وقد سقطت ملاءتها عند قدميها ، فجن جنونها ، وتعالى صراخها ، وأمسكت بتلابيب المعلم وهى تصيح :

— أتضربنى يا فاجر دفاعا عن رفيقك ! اشهدوا يا ناس على الرجل الفاجر ! وانتز الشاب فرصة إفلاته فطائر خارج القهوة ، وعدا لا يلوى على شىء . واستمرت المعركة بين المعلم وزوجته ، هى تشد على تلابيبه ، وهو يحاول دفعها والتخلص منها ، حتى نهض إليهما السيد رضوان الحسينى وخلص بينهما ، وتلفتت المرأة بملاءتها وهى تلهث ، وصرخت بصوت كادت تتصدع له أركان القهوة :

— يا حشاش ، يا مذهول ، يا وسخ ، يا بن الستين ، يا أبا الخمسة وجد العشرين ، يا عرة ، يا رطل ، سفخص على وجهك الأسود ..

فحدجها المعلم بنظرة قاسية وهو ينتفض من الانفعال ، وصاح بها :

— لى لسانك يا مرة ، وسدى هذا المرحاض الذى يقذفنا بوسخه !

— قطع لسانك ، ما مرحاض إلا أنت ، يا خرع ، يا مفضوح ، يا ظل

العيال ..

فلوح لها بقبضته وهو يقول :

— تخرفين كعادتك . كيف سولت لك نفسك الاعتداء على زبائن القهوة ؟

فضحكت المرأة ضحكة مروعة وقالت بسخرية مريرة :

— زبائن القهوة ؟! العفو ! ما قصدت زبائن القهوة بسوء ، ولكنى اعتديت

على زبون المعلم الخصوصى !

وتدخل السيد رضوان مرة أخرى ، وطلب من المرأة أن تمسك ، وأن تعود

إلى بيتها ، ولكنها قالت وقد غيرت نبرات صوتها بجهد شديد :

— لن أعود إلى بيت الفاسق ما حييت ..

فألح عليها ، وتطوع عم كامل لمعاونته ، فقال لها بصوته الرفيع الملائكى :

— عودى إلى بيتك يا ست أم حسين . عودى ووحدى الله واسمعى كلام

السيد رضوان ..

وحال السيد بينها وبين مغادرة الزقاق ، ولم يتركها حتى رجعت إلى البيت

مظهرة السخط والتذمر . واختفى عند ذاك زينة ، وانسحبت حسنية الفرانة

يسبقها زوجها ، وقد لکمته فى ظهره وهى تقول له :

— لا تفتأ تندب حظك وتقول مالى أضرب من دون الرجال جميعا ! أرايت

كيف يضرب أسياذك وأسياذ من خلفوك !..

ونخلت جمعجة المعركة صمما ثقيلًا . وتبادلت اللحاظ نظرات ساخرة

تشى بالخبت والسرور ، وكان أشد الحاضرين سرورا وارتياحا الدكتور بوشى ،

وهو الذى هز رأسه أسفا وقال فى نبرات حزينة :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم أصلح الحال ..

وكان المعلم « كرشة » لا يزال ملازما مكانه — الذى باشر فيه المعركة —

فتنبه إلى فرار فتاه ، قطب فى عناد ، وبدا أنه يريد اللحاق به ، ولكن السيد

رضوان — وكان غير بعيد عنه — وضع يده على كتفه وقال بهدوء :

— اقعد يا معلم واسترح ..

فنفخ مغیظا محنقا ، وتراجع متثاقلا وهو يخاطب نفسه فى حقد شديد :
— لبؤة ، فاجرة ، ولكن الحق على ، أنا أستاھل أكثر من هذا ، مغفل من
لا یبیت امرأته بالعصا ..

وعلا صوت عم كامل وهو یقول :

— وحدوا الله یا هوه ..

وارتمى المعلم كرشة على مقعده . ثم أخذ الغضب كرة أخرى ، فثارت
ثأثرته ، وراح یضرب جبهته بكف غلیظة قاسية صائحا :
— أنا فى الأصل مجرم قاتل . وجميع هذا الحى عرفنى مجرما یرتوى بالدماء .
أنا مجرم ، أنا ابن كلب ، أنا وحش ، ولكنى أستاھل كل إهانة لأنى تبت بمنحض
إرادتى عن الشر ، (ورفع رأسه) انتظرینى یا مرة یا وسخة ، ستلقین الليلة كرشة
الزمان الأول ..

وصفق السید رضوان بیديه وهو یتربع على الأریكة وخاطب المعلم قائلا :

— وحد الله یا معلم كرشة . نرید أن نشرب الشای فى هدوء !

ومال البوشى على أذن عباس الحلو وهمس قائلا :

— لا بد أن نصلح بینهما ..

فسأله الحلو بنخبث :

— بین من ومن ؟

فكتم الدكتور ضحكة فخرجت من أنفه ریحا كالفحیح ، وقال :

— أتظنه یعود إلى القهوة وقد حصل ما حصل ؟

فمط الحلو بوزه وقال :

— إن لم یعد هو جاء غیره !

ثم شمل القهوة جوها المألوف ، وعاد القوم إلى ما كانوا فیهم من لعب وسمر ،
وكادت تنسى المعركة وتذهب آثارها ، لولا أن هاج المعلم كرشة مرة أخرى ،
وصاح مرعدا كالوحوش الضارية :

— لا لا .. لا يمكن أن أذعن لإرادة امرأة ، أنا رجل ، حر ، أفعل ما أشاء ،
لترك البيت إذا شئت ، ولتسكع مع الشحاذين ، أنا مجرم .. أنا من آكل لحوم
البشر ..

ورفع الشيخ درويش رأسه بغتة وقال دون أن يلتفت نحو المعلم :
— يا معلم ، امرأتك قوية ، فيها من الرجولة ما يعوز الكثيرين من الرجال ،
هي ذكر وليست بأنثى ، فلماذا لا تحبها ؟
وصوب المعلم نحوه عينين ناريتين وصاح في وجهه :
— اقطع لسانك !

وصاح أكثر من واحد من الجالسين :
— حتى الشيخ درويش !
وولاه المعلم ظهره صامتا ، وراح الشيخ درويش يقول :
— هذا شر قديم ، يسمونه في الإنجليزية Homosexuality وتهجيتها
homosexuality ولكنه ليس بالحب . الحب الحقيقي لآل البيت . تعالى يا
حبيبتى .. تعالى يا ست .. أنا عاجز يا أم العواجز ..

كانت مقابلة الأزهر فتحا جديدا في حياة عباس الحلو . عهد الحب ، شعلة
وهاجة تضطرم في الفؤاد ، نشوة سحر تسكر العقل ، شهوة تصهر الأعصاب ،
كان مرحا مختالا مزهوا ، كأنه فارس لا يشق له غبار ، أو ثمل قد أمن عوادي
الخمار . وتقابلا بعد ذلك مرات ، فلم يملا الحديث عن مستقبلهما . أجل بات
مستقبلهما واحدا ، ولم تنكر حميدة ذلك ، لا في حضوره ولا في غيابه ! ولكن
تساءلت : ترى هل تظهر واحدة من صويحاتها بنات المشغل بخير منه ؟ ..

وتعمدت أن تسير معه وقت ظهورهن ، وجعلت تسترق النظر إلى أعينهن الفاحصة وكأنها ارتاحت إلى ما تركه فيهن من أثر ، وقد سألتها يوما عن الشاب « الذى رأيته معها » فقالت :

— خطيبى .. صاحب صالون حلاقة !

وقالت لنفسها إن أية واحدة منهن لتعد نفسها سعيدة إذا خطبها صبي قهوة أو صبي حداد ، وهذا صاحب دكان ، أوسطى . وأفندى أيضا ! كانت مشغولة أبدا بالموازنة والاختبار والتفكير ، فلم تنجذب إلى الدنيا السحرية التى يهيم فى سماواتها . بيد أنه كان يبلغ بها التأثير فى لحظات منتهاه ، فكأنها كانت — فى تلك اللحظات — محبة حقا . وفى إحدى هذه اللحظات استوهبها قبلة . فلم تقل لا ولم تقل نعم . أرادت أن تذوق هذه القبلة التى سمعت عنها كثيرا وتغنت بها كثيرا . ونظر هو محاذرا يراقب المارة ، وتحسس ثغرها فى ظلمة المساء . ثم وضع شفثيه على شفثيها وهو يرتعد ، وغمرتها أنفاسه الملهبة ، فسالت على نحرها وطرقت عيناها .

ثم دنا موعد سفره فرأى أن يخطو الخطوات الحاسمة — واختار الدكتور بوشى — الذى تيسر له مهنته التردد على بيوت الزقاق — سفيرا له لدى أم حميدة . وسرت المرأة بالشاب الذى تراه الصالح الوحيد لابنتها فى الزقاق ، وكانت تعده دائما « صاحب صالون وقد الدنيا » ، ولكنها خافت شماس ابنتها المتمردة ، وظنت أنها مقبلة على معركة طاحنة ، فما أدهشها بعد ذلك إلا أن تتلقى الفتاة الخبر برضا وتسليم مما جعلها تهز رأسها وتقول :

— هذا فعل النافذة وراء ظهري !

وكلف الحلو عم كامل بصنع صينية بسبوسة فاخرة وإرسالها لأم حميدة ، واستأذن فى مقابلتها ، ومضى إليها مصحوبا بعم كامل شريكه فى بيته وحياته ، وقد وجد عم كامل صعوبة شديدة فى ارتقاء السلم وجعل يتوقف كل درجتين لاهثا متوكئا على الدرايزين . حتى قال للحلو عند أول « بسطة » :

— هلا أجلت الخطبة لحين عودتك من الجيش ؟!
وزحبت بهما أم حميدة . وجلس ثلاثهم يتبادلون طيب المجاملات ، حتى قال
عم كامل :

— هذا عباس الحلو ابن زقاقنا ، وابنك ، وابني ، يطلب يد حميدة ..
فابتسمت المرأة وقالت :

— أهلا بالحلو الذى هو حلو ، ستكون ابنتى عنده وكأنها لم تفارقنى ..
وتحدث عم كامل عن الحلو وأخلاقه ، وعن الست أم حميدة وأخلاقها ، ثم
قال :

— سيغادرنا الفتى فتح الله عليه ، وقرىبا تتحسن حاله فيتم له ولنا المراد بإذنه
تمالى ..

ودعت أم حميدة له ، ثم داعبت عم كامل قائلة :
— وأنت يا عم كامل متى تنوى وتتوكل على الله !
فضحك عم كامل حتى صار وجهه كالطماطم فى إبانها ، ومسح على كرشه
المحيط وقال :

— دون ذلك هذا الحصن المنيع ..!
وقرأوا الفاتحة وشربوا الشرابات ..
ثم كان بعد ذلك يومين اللقاء الأخير بالأزهر . ساروا واجمين . والحلو يشعر
بدموعه تدق أبواب صدره لتجد سبيلا إلى مجارى عينيه . وقد سأله :
— هل تغيب طويلا ؟

فقال الشاب بصوت رقيق حزين :
— ربما امتدت خدمتى عاما أو عامين ولكن لن تفوتنى فرصة مناسبة
للحضور ..

فغمغمت قائلة ، وكانت تجد نحوه فى تلك اللحظة ودا عميقا :
— يا له من زمن !

فابتهج قلبه — على أساه — لهذه العبارة التى تنم عن الجزع ، وقال منفعلا :
— هذا آخر لقاء قبل السفر ، والله وحده يدري متى يكون اللقاء التالى . وإني
لفى حيرة يا حميدة ما بين الحزن والسرور . أجدنى محزوناً لأنى مبتعد عنك ، ثم
أجدنى مسروراً لأن هذا الطريق الطويل الذى اخترت هو الطريق الوحيد المفضى
إليك . ولكنى سأترك قلبى ورائى فى الزقاق ، فتصورى رجلاً مهاجراً بلا
قلب ، رمى به السفر إلى بلد ناء ، وأبى قلبه أن يسافر معه . وغدا فى التل الكبير ،
وعند مطلع كل صباح ، سأفتقد النافذة المحبوبة التى كنت أراك تكنسين حافتها .
أو تمسطين شعرك وراء فرجة مصراعها ، وهيهات أن أجد لها أثراً . ولقاؤنا فى
الموسكى والأزهر ماذا يبقى لى منه ؟ أواه يا حميدة ، هذا ما يتقطع له قلبى .
دعيني آخذ منك كل ما أستطيع أخذه . ضعى راحتك فى يدي ، وشدى على
يدي كما أشد على يدك . لله ما أطيب مسك ، إنه يرعش قلبى ، إنه قلب كبير بين
يديك ، يا عزيزة ، يا حبيبة ، يا روح قلبى يا حميدة . ما أجمل اسمك ، كأنى إذا
نطقت به أستحلب سكرًا ..

واستنامت الفتاة إلى كلامه المتدفق الحار ، فلانت نظرة عينيها ، وغمغت
قائلة :

— أنت الذى اخترت السفر ..

فقال بصوت كالنواح :

— أنت السبب يا حميدة . أنت أنت السبب . أنا والله أحب زقاقنا ، وأحمد
الله على ما يرزقنى به من كفاف . وما أحب أن أناى عن الحسين الذى أقوم وأقعد
باسمه . ولكنى وأسفاه لا أستطيع أن أهيب لك الحياة التى ترضيها ، فلم أجد عن
السفر مذهباً . وربنا يأخذ بيدي ، ويجمعنا على أهناً حال ..

فقالت حميدة بتأثر شديد :

— سأدعوك بالتوفيق ، وسأزور سيدنا الحسين وأسأله أن يرعاك ويكتب

لك النجاح . والصبر طيب ، والحركة بركة ..

فتهد من الأعماق وقال :

— أجل الحركة بركة ، ولكن يا ويلي من بلد لا أجد لك فيه ظلا ..

فغمغمت برقة :

— لن تكون هكذا وحدك ..

فالتفت نحوها وقد سكر بقولها ، ورفع يدها حتى مست قلبه ، وهمس :

— حقا ؟!

فابتسمت ابتسامة عذبة لاحت لعينيه الغائمتين على الضوء المنبعث من بعض

الدكاكين . وغاب في تلك اللحظة عن كل شيء ما عدا وجهها المحبوب ،

وسالت هذه الكلمات من بين شفتيه :

— ما أجملك ، ما أرقك ، ما أعذبك . هذا هو الحب . إنه عذب جميل

يا حميدة الدنيا من غيره لا تساوى مليما واحدا ..

ولم تدر ماذا تقول فتعوذت بالصمت ، وجرت كلماته متناغمة في أذنيها ،

فأخذتها نشوة الطرب ، وودت ألا يسكت أبدا . وكانت حرارة العاطفة قد

أذهلته عن وعيه فراح يقول :

— هذا هو الحب . هو كل مالنا . فيه الكفاية وفوق الكفاية . هو في القرب

السروز . وفي البعد العزاء ، وفي الحياة حياة فوق الحياة ..

وسكت لحظة متهدا ، ثم استطرد :

— أسافر باسمه ، وبفضله أعود وقد ربحت كثيرا .. فتمتت وهي

لا تدري :

— كثيرا إن شاء الله ..

— بإذن الله ، وببركة الحسين . وسوف يحسدك جميع أولئك الفتيات .

فابتسمت في سرور قائلة :

— آه .. ما أمتع هذا !

وانطوى الطريق وهما لا يشعران ، فضحكا معا في فرح ، ثم دارا على

عقبهما . وأحس في العودة أن اللقاء يقترب من نهايته ، فعاودته أفكار الوداع والفراق ، وخبث كثيرا نشوته ، واعتوره الشجن . وعند انتصاف الطريق سأها بلهفة :

— أين أودعك ؟

وأدركت ما يعنيه ، وقلقت شفتاها ، فقالت متسائلة :

— هنا ؟!

ولكنه اعترض قائلا :

— لا أستطيع أن أخطف الوداع خطفا ..

— أين تريد إذا ؟

— اسبقيني على البيت وانتظريني على السلم ..

وحثت خطاها ، وسار هو متمهلا فبلغ الزقاق وقد أغلقت دكا كينه . واتجه نحو بيت الست سنية عفيفي لا يلوى على شيء وارتقى السلم محاذرا في ظلمة دامية ، كأنما أنفاسه ، يدا على الدرايزين ، ويذا تتحسس الظلام . وعند « البسطة » الثانية لمست أنامله طرف الملائة . فخفق قلبه باعثا الشوق الحبيس في أطرافه ، وقبض على ذراعها ، واقترب منها في رفق ، وأحاطها بذراعيه ، ثم ضمها إلى صدره بقوة عنيفة تنطلق من صدر حنون مشوق ، وهوى إليها بفمه ، فوقع على أنفها ، ثم هبط على شفتيها ، وكانتا منفرجتين لاستقباله ، وأخذته سنة من ذهول الحب لم يستيقظ منها حتى تخلصت من ذراعيه بلطف ، ومضت مصعدة وهو يهمس وراءها « مع السلامة » . لم يبلغ بها الانفعال يوما ما بلغه هذا المساء على السلم . حيث في دقيقة قصيرة حياة طويلة مفعمة بالإحساس والعاطفة والحرارة . وحسبت أن حياتها قد ارتبطت به إلى الأبد .

وزار عباس الحلو أم حميدة ، تلك الليلة ، مودعا .. ثم مضى إلى القهوة ومعه صديقه حسين كرشة ليمضي آخر سهرة فيها قبل سفره . وكان حسين يبدو

مسرورا ظافرا لانتصار رأيه ، وجعل يقول لصاحبه بصوته الذى ينم عن التحدى
لسبب ولغير ما سبب :

— ودع هذه الحياة القذرة واستمتع بالحياة الحقيقية ..
فابتسم الحلو صامتا ، وقد أخفى عن صاحبه الكآبة القابضة على قلبه لفراق
الزقاق الذى يحبه ، والفتاة التى يهيم بها . وجلس بين رفاقه يعانى أشواقه
المكتومة ، ويتلقى كلمات التوديع وما تحمل من جميل الدعاء . وقد باركه السيد
رضوان الحسينى . ودعا له طويلا ، وقال له ناصحا :

— اقتصد ما يفيض عن حاجتك من مرتبك ، واحذر الإسراف والخمر ولحم
الخنزير ، ولا تنس أنك من المدق ، وأنت إلى المدق راجع ..
وقال له الدكتور بوشى ضاحكا :

— ستعود إلينا إن شاء الله من الموسرين ، ولا بد عند ذاك من خلع أسنانك
المسوسة هذه وتركيب طقم ذهبى يليق بالمقام ..
فابتسم الحلو ، وكان يشعر نحو الدكتور بامتنان ، لأنه هو الذى أسفر بينه
وبين أم حميدة ، ولأنه هو أيضا الذى باع له أدوات صالونه بثمان لا بأس به كى
ينتفع به فى سفره . وكان عم كامل واجما ساهما ، يحز الفراق الوشيك فى فؤاده ،
ولا يدرى كيف يلقى غدا الوحشة والوحدة ، بعد أن يذهب الشاب الذى
شاطره العيش أعواما طويلة ، والذى أحبه كأنه فلذة كبده .. وكان كلما أثنى
أحد على الحلو أو توجع لفراقه اغرورقت عيناه حتى ضحكوا منه جميعا .

وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسي وقال له :
— أصبحت الآن من المتطوعين فى الجيوش البريطانية ، وإذا أظهرت بسالة
فليس بعيدا أن يقطعك ملك الإنجليز مملكة صغيرة ينصبك عليها نائب ملك ،
ومعناها بالإنجليزية Viceroy وتهجيتها Viceroy ..

وفى الصباح الباكر غادر الحلو البيت حاملا بقجة ثيابه ، كان الجو باردا شديدا

الرطوبة ، ولم يكن أحد من أهل الزقاق قد استيقظ إلا الفرانة وسنقر صبي القهوة ، ورفع الشاب رأسه إلى النافذة المحبوبة فوجدها مغلقة ، فودعها بنظرة عطف وحنان أذابت الطل على خصاصها . وسار متمهلا مطرقا حتى بلغ باب دكانه فألقى عليها نظرة أخرى متنهدا ، وعلق بصره بلافتة ثبتت على الباب قد كتب عليها بخط كبير « للإيجار » ، فانقبض صدره وأوشكت عيناه أن تدمعا .. وحث خطاه كأنما ليفر من عواطفه ، فما إن ترك الزقاق وراء ظهره حتى شعر بأن قلبه يفارقه إليه ..

كان حسين كرشة الذى أغرى عباس الحلو بالخدمة فى الجيش البريطانى ، ولما أن سافر الشاب إلى التل الكبير ، ونحلا منه الزقاق — حتى دكانه اكترأها حلاق عجوز — جن حسين جنونا واجتاحته ثورة عنيفة تفور مقتلا للزقاق وأهله . أجل كان من زمن بعيد يعلن كراهيته للزقاق وأهله ، ويتطلع لحياة جديدة ، ولكنه لم يستتب سبيله ، ولم يعزم عزيمة صادقة على تحقيق أحلامه ، حتى ذهب الحلو ، فجن جنونه ، وكأنما كبر عليه أن يجدد الحلو حياته وينأى بنفسه عن الزقاق القدر ، وهو باق فيه لا يدرى كيف يتخلص منه ، فأجمع عزمه على تجديد حياته مهما كلفه الأمر ، وبفظاظته المعهودة قال لأمه يوما وقد امتلأ بعزمه حتى فاض عنه : — أصغى إلى ، لقد عزمت عزمًا لا رجعة فيه ، فهذه حياة لا تطاق ولا داعى مطلقا لتحملها قسرا !

وكانت المرأة آفة سخطه ، معتادة سماع سبابه للزقاق وأهله ، وكانت تراه — كأبيه — سفيها لا يصح أن تحتفى بهذيانه ، فسكتت عنه وهى تغمغم : — اللهم تب على من هذه الحياة !

ولكن حسين عاد يقول وقد تطاير الشرر من عينيه الصغيرتين واربد وجهه الضارب للسواد :

— هذه الحياة لا تطاق ، ولن أحتملها بعد اليوم ..
ولم يكن في وسعها أن تلزم الصمت طويلا حيا ل هياج أحد ، فنقد صبرها الرقيق وصاحت به بصوت دل على أن صوته متوارث عنها :

— مالك ؟! مالك يا بن اللئيم .

فقال الشاب بازدرأ :

— لا بد من هجر هذا الزقاق .

فحدجته بحنق ، وانتهرته قائلة :

— أجننت يا بن المجنون !

فشبك ذراعيه على صدره وقال :

— بل تبت إلى رشدى بعد جنون طويل . افهمينى جيدا ، فلست ألقى القول

على عواهنه ، ولكنى أعنى ما أقول ، ولقد جمعت ثيابى فى البقعة ولم يبق الآن

إلا أن أستودعك الله . بيت قدر . زقاق نتن ، أناس بهائم !

وحدجته بنظرة متفحصة لتقرأ عينيه ، فخبيلها عزمه المتوثب وصاحت به :

— ماذا تقول ؟

فعاد يقول وكأنه يخاطب نفسه :

— بيت قدر ، زقاق نتن ، أناس بهائم ..

فهزت رأسها ساخرة وقالت :

— مرحبا بك يا بن الأماثل ! يا بن كرشة باشا !

— كرشة قطران . كرشة المشبوه . أف أف ، ألم تعلمى بأن فضيحتنا

زكمت الأنوف جميعا ؟! .. يغمزوننى فى كل مكان . يقولون هربت أخته مع

واحد ، وسهرب أبوه مع واحد آخر !

وضرب الأرض بقدمه حتى طقطق زجاج النافذة وصرخ غاضبا :

— ماذا يضطرنى إلى البقاء فى هذه الحياة ؟ سأحمل ثيابى وأذهب إلى غير رجعة .

وضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :
— جنت والله . أورثك الحشاش جنونه . ولكنى سأدعوه ليردك إلى عقلك .

فصاح حسين باستهانة :
— ادعيه . نادى أبى ، نادى الحسين نفسه . أنا ذاهب .. ذاهب .. ذاهب ..

ولما وجدته المرأة جادا معاندا ، ذهبت إلى حجرته فرأت البقجة منتفخة بالثياب كما قال ، فتولاها القنوط ، وصممت على إحضار أبيه مهما تكن العواقب . كان حسين عزاءها الوحيد فى حياتها ، ولم تكن تتصور أن يهجر البيت ويتركها كالوحيدة ، ولم تستطع مغالبة قنوطها ، وأرسلت فى طلب أبيه وهى تصيح نادية حظها « علام يحسدوننا ؟ .. على خيبتنا القوية ! .. على فضائحتنا ! .. على شقائنا ! » . وجاء المعلم كرشة بعد قليل مكشرا عن أنيابه ، وانتهرها قائلا :

— ماذا تريدن ؟ فضيحة جديدة ؟ زبون جديد رأيتنى أقدم له الشاى !
فقلت المرأة ملوحة بيدها كالنادبة :

— فضيحة ابنك ! أدركه قبل أن يهجرنا ، فقد ضاق بنا ذرعا !
فضرب المعلم كفا بكف وقال وهو يهز رأسه مغيظا محنقا :
— أمن أجل هذا أترك عملى يا هوه ! .. أمن أجل هذا أصعد مائة درجة ؟ آه يا أولاد الكلب ، لماذا تعاقب الحكومة على قتل أمثالكم !
وجعل يردد بصره بين الأم وابنها واستطرد قائلا :

— ربنا ابتلانى بكما ليقتص منى ، ما هذا الذى تقوله أمك ؟
ولزم حسين الصمت . وراحت أمه تقول بهدوء ما وسعها الصبر :

— هدى روعك يا معلم ، فهذه ساعة تحتاج لحكمتك لا لغضبك . لقد جمع ثيابه في بقجة ، ونوى مغادرتنا ..
فسدد نحوه نظرة حقد وغضب ، وهو بين مصدق ومكذب ، وقال كالمسائل :

— جنت يا بن القديمة !
وكانت أعصاب المرأة متوتره فلم تملك أن صاحت به :
— دعوتك لتعقله لا لتشتمنى ..
فالتفت نحوها غاضبا وهو يقول :
— لولا جنونك الموروث لما شب ابنك مجنونا ..
— الله يسامحك . أنا مجنونة بنت مجانين فدعنا من هذا ، واسأله عما خالط عقله ؟!

وحدج ابنه بنظرة قاسية وسأله بصوت كالزئير وقد تناثر ريقه :
— مالك لا تتكلم يا بن القديمة ! هل تروم حقا مغادرتنا ؟
وكان الفتى يتحامي أباه عادة ، ولا يصطدم به إلا إذا ضاقت به السبل ، ولكنه كان قد عزم عزمًا صادقًا على نبذ ماضيه مهما كلفه الأمر ، فلم يتردد ولم يتراجع ، خصوصًا وأنه كان يرى مسألة إقامته في البيت أو مغادرته من صميم حقه الذى لا ينازعه فيه منازع ، فقال بهدوء وعزم معا :
— نعم يا أبى ..!

فسأله الرجل وهو يعانى خناق غيظه :
— ولماذا ؟

فتفكر الشاب قليلا ثم قال :

— أريد أن أحيا حياة أخرى ...

فقبض الرجل على ذقنه ، وهز رأسه ساخرًا وقال :

— فهمت .. فهمت . تريد حياة أخرى تناسب المقام ! لأن كلبا مثلك نشأ

محروما جائعا ، يحزن إذا امتلأ جيبه . وأنت الآن صاحب قرش إنجليزى ، فمن الطبيعى أن ترتاد حياة أخرى ، تليق بمقامك العالى يا بن قنصل الأوز !

فكظم حسين غيظه وقال :

— لم أكن كلبا جائعا قط ، لأنى نشأت فى بيتك ، وبيتك لم يعرف الجوع أبدا والحمد لله . وكل ما فى الأمر أنى أريد أن أغير حياتى ، وهذا حقى لا مرأى فيه ، ولا داعى مطلقا لغضبك وسخطك .

و لم يفهم المعلم مراده ، كان الشاب يتمتع بحرية مطلقة ، فلا يسأل عما يفعل ، فلماذا يريد أن ينشئ لنفسه بيتا خاصا ؟ وكان المعلم ، على رغم ما يقوم بينهما من أسباب الشقاق والملاحاة والخصام ، يحبه . ولكنه حب لم يظفر قط بالجو الذى يستطيع أن يتنفس فيه ، وغشيته دائما غواشى الغيظ والحنق والسباب ، ولطالما نسى كثيرا أنه يحب ابنه الوحيد . وحتى فى هذه الساعة والفتى ينذره بهجره غاب حبه وإشفاقه تحت ستار الغضب والحنق ، وتمثل له الأمر تحديا وعراكا ، ولذلك سأله فى تهكم مر :

— نقودك فى جيبك ، تنفقها كما تشاء وينعم بها الخمارون والحشاشون والقوادون ، هل سألتك مليما ؟ .

— أبدا .. أبدا أنا لا أشكو هذا مطلقا ..

فتساءل المعلم بنفس اللهجة المرة .

— أملك الجشعة ذات العينين اللتين لا يشبعهما إلا التراب ، هل أخذت منك

مليما ؟ .

فقطب حسين ضجر وقال :

— قلت إنى لا أشكو هذا . كل ما فى الأمر أنى أريد حياة غير هذه الحياة . إن

كثيرين من زملائى يقطنون فى بيوت فيها الكهرباء ! .

— الكهرباء !! من أجل الكهرباء تترك بيتك ؟ .. الحمد لله على أن أملك

بفضائها قد جعلت بيتنا أحمى من الكهرباء ...

وهنا خرجت المرأة عن صمتها مولولة :
— مظلومة والله يا ربى ظلم الحسن والحسين ..
واستدرك حسين قائلاً :
— إن زملائي جميعاً يحبون حياة جديدة ، وقد انقلبوا جميعاً جنتلمان كما يقول
الإنجليز .

فقهر المعلم فاه ، فانفجرت شفتاه الغليظتان عن أسنانه الذهبية وقال :
— ماذا تقول ؟

فلزم الفتى الصمت مقطباً ، واستدرك المعلم :
— جلمان ؟! .. ما هذا ؟! .. صنف حشيش جديد ؟! ..

فقال حسين متذمراً :

— أعنى رجلاً نظيفاً !..

— ولكنك وسخ ، فكيف تريد أن تكون نظيفاً .. يا جلمان !..

وضاق حسين بتهكم أبيه فقال : منفعلاً :

— أبى ، أريد أن أحيا حياة جديدة ، هذا كل ما هنالك . ، وسأ تزوج من بنت

ناس ..

— بنت جلمان !..

— بنت ناس طيبين .

— ولماذا لا تتزوج بنت كلب كما فعل أبوك ؟! ..

فتأوهت أم حسين قائلة :

— الله يرحمك يا أبى كنت فقيها وقوراً .

فالتفت نحوها بوجهه المربد وقال :

— فقيه !.. كان قارئ قبور ، يتلو السورة بمليمين !..

فقالت المرأة متوجعة :

— كان يحفظ كلام الله وكفى ..

تحول عنها المعلم واقترب خطوات فصار من ابنه على بعد ذراع ، وسأله بصوت مخيف :

— حسبنا كلاما ، فليس لدى من وقت أضيعة بين مجانين . أتريد حقا أن تترك هذا البيت ؟!

فلم حسين أطراف شجاعته وقال باقتضاب :

— نعم .

فأدام المعلم النظر إليه مليا ، ثم ثارت ثائرتة بغتة ، فضربه براحتة على وجهه . ولم يستطع الفتى أن يتفادى الضربة العنيفة فتلقاها بحنق جنوني ، وابتعد عن الرجل وهو يصيح :

— لا تضربني ، لا تمسني ، لن تراني بعد اليوم .

وهجم الرجل عليه فحالت دونه المرأة القانطة ، وتلقت لكماته على صدرها ووجهها ، حتى كف الرجل وهو يصرخ :

— اغرب عني بوجهك الأسود ! ولا تعد أبدا . سأفرض أنك مت واندلقت في الجحيم .

جرى الفتى إلى حجرتة ، وتناول البقجة ، ونزل السلم وثبا ، وقطع الزقاق لا يلوى على شيء ، وقبل أن يعدل إلى الصنادقية بصق عليه ، وهتف بصوت مرتعش من الحنق :

— غر .. انجحر ، لعنة الله عليك وعلى أهلك .

سمعت الست سنية عفيفى طرقا على الباب ، ففتحته ، فرأت فى فرح لا يوصف — وجه أم حميدة يطالعها بصفحة المجدورة ، وهتفت من الأعماق : — أهلا وسهلا بالحبيبة .

وتعانقتا عنقا حارا — أو هكذا بدا على الأقل — وقادتها إلى حجرة الاستقبال وهى تأمر الخادم بصنع القهوة ، وجلستا على كنية متلاصقتين ، واستخرجت من علبة سيجارتين ، وجعلتا تدخنان فى انبساط وسرور . وكانت الست سنية تكابد آلام الترقب والانتظار مذ وعدت أم حميدة بالبحث لها عن زوج . ومن عجب أنها صبرت على العزوبة أعواما طويلا ولكنها لم تستطع مع فترة الانتظار — على قصرها — صبرا . واعتادت فى هذه الفترة أن تتردد على زيارة أم حميدة دون انقطاع طويل ، والمرأة لا يخفى عليها من أمرها شيء ، وما انفكت تعدها وتمنيها ، حتى أيقنت الست سنية أن المرأة تسوف وتماطل حتى تظفر منها بأكبر نفع مرجو . ومع ذلك كانت معها جوادة كريمة ، فأعفتها من دفع إيجار الشقة ، وتنازلت لها عن عدد من كوبونات الكيوسين ، ونصيبها من الأقمشة الشعبية ، غير صينية بسبوسة كلفت عم كامل بصنعها لها . ثم آذنتها المرأة بخطبة عباس الحلو لابنتها حميدة ! وتظاهرت الست سنية بالسرور ، ولكن الخبر وقع من نفسها موقعا مقلقا ، وتساءلت ترى هل تضطر إلى المساهمة فى تجهيز الفتاة لعرسها قبل أن تجهز نفسها ؟! وهكذا تنازعها الخوف من أم حميدة والتودد إليها طوال فترة الانتظار ، وقد جلست لصقها تسترق إليها النظر بين آونة وأخرى متسائلة عما عسى تتمخض عنه زيارتها هذه : وعود وأمانى كالعادة أم البشرى التى يتلهف قلبها عليها ؟! وزاحت تدارى اضطرابها بشجون الحديث ، فكانت — على غير

المألوف — المحدثه وأم حميدة المنصتة . تكلمت عن فضيحة المعلم كرشة ، ومغادرة ابنه حسين لبيته ، وانتقدت أم حسين في تصرفاتها الفاضحة التي تحاول بها تقويم سلوك زوجها الشاذ ، ثم تدرج الحديث إلى عباس الحلو ، فأثنت عليه قائلة :

— أنعم به من شاب طيب . سيفتح الله عليه ويرزقه ، ويمكنه من تهيئة الحياة السعيدة لعروسه التي تستأهل كل خير .
وابتسمت أم حميدة عند ذاك وقالت :

— الشيء بالشيء يذكر . اعلمي أني حاضرة اليوم لأخطبك يا عروس !
وخفق فؤادها بعنف . وذكرت كيف حدثها قلبها بأن زيارة اليوم خطيرة ، وبأن المرأة تطوى صدرها على سر ترضن به إلى حين . وتورد وجهها ، وجرى في عوده الذابل ماء شباب ، ولكنها تمالكت نفسها وقالت في حياء مصطنع :

— واخجلتاه ! ماذا تقولين يا ست أم حميدة !

فقالت المرأة وقد افتر ثغرها عن ابتسامة ظفر وارتياح :

— أقول إني حاضرة لأخطبك يا ست الناس !

— حقا ! ياله من أمر خطير ! أجل أذكر ما تم الاتفاق عليه ، ولكن لا يسعني

إلا أن أضطرب ، وأن أخجل أيضا ، واخجلتاه !

فجارتها أم حميدة في تمثيلها وقالت محتجة :

— حاشا لله أن تخجلي لغير ما عيب أو نقيصة ، ولكنك تتزوجين على شرع الله

وسنة الرسول ..

فتنهدت الست سنية ، تنهد من يدفع إلى التسليم على غير إرادته ، وقد رن قول

الأخرى لها « ستتزوجين » رنينا حلوا محبوبا في أذنيها . أما أم حميدة فقد أخذت

نفسا طويلا من سيجارتها ، وهزت رأسها هزة الثقة والاطمئنان وقالت :

— موظف ..

ودهشت الست سنية ، ونظرت إلى محدثتها بعينين لا تكادان تصدقان .

موظف !! إن الموظف فاكهة محرمة على زقاق المدق ! وتساءلت قائلة :
— موظف ؟

— أى نعم موظف !

— فى الحكومة ؟!

— فى الحكومة !

وسكتت أم حميدة هنيهة لتستمع بظفرها ، ثم استطردت :

— فى الحكومة ، وفى قسم البوليس بالذات !..!

فازداد عجب الست وقالت متسائلة :

— وماذا يوجد فى القسم غير الضابط والعساكر ؟!

فرمقتها المرأة بنظرة عارف لجاهل وقالت :

— يوجد موظفون أيضا . اسألينى أنا . أنا أعرف الحكومة والوظائف

والدرجات والعلاوات . هذه مهنتى يا ست !.

فقالت الست سنية بدهشة يخالطها سرور لا يصدق :

— هو أفندى إذا !!

— أفندى بستره وبنطلون وطرבוوش وخذاء !

— الله يشرف قدرك يا ست أم حميدة .

— إنى أختار الطيب للطيب ، وأعرف لكل إنسان قدره . ولو كان فى أقل من

الدرجة التاسعة ما وقع اختيارى عليه ..

فتمتت الست سنية متسائلة :

— الدرجة التاسعة ؟

— الحكومة درجات . ولكل موظف درجة . والتاسعة إحدى هذه

الدرجات . ولكنها درجة ولا كل الدرجات يا حبيبتى !

فقالت الست وعيناها تتألقان سرورا :

— دمت من صديقة محبة عزيزة !

فاستدركت أم حميدة تقول بصوتها الواشى بالظفر والثقة :
— يجلس إلى مكتب كبير ، تتكدس عليه الملفات والأوراق للسقف والقهوة
داخلة خارجة ، هذا يرجوه وهذا يسأله ، وهو ينهر هذا ويشتم ذاك ، العساكر
تحية ، والضباط تحترمه ..
فابتسمت الست سنية ، ولاحت في عينيها نظرة أحلام ، وواصلت أم حميدة
الحديث قائلة :

— مرتبه عشرة جنيهات لا تنقص مليما .

وصدقتها الست سنية فهتفت قائلة :

— عشرة جنيهات !

فقالت المرأة ببساطة :

— هذا قليل من كثير ، وما مرتب الموظف إلا بعض رزقه ، وبالحذق
والشطارة يستطيع أن يربح أضعافه ، ولا تنسى علاوة الغلاء ، وعلاوة الزواج ،
ثم علاوة الأطفال .

فضحكت الست ضحكة عصبية وصاحت :

— سامحك الله يا ست أم حميدة ، مالى أنا والأطفال !

— ربك قادر على كل شيء ..

— نحمده ونشكر فضله على أى حال .

— أما عمره فتلاثون عاما ..

فصاحت الست فى إنكار :

— رباه ! أكبره بعشرة أعوام !

ولم يخف على المرأة أنها تناست عشرة أعوام من عمرها ، ولكنها قالت فى لهجة

تنم عن العتاب :

— لا زلت شابة يا ست سنية ! ومع ذلك فقد صارحته بأنك فى الأربعين

ووافق مسرورا ..

— أرضى حقاً؟! .. ما اسمه؟! ..

— أحمد أفندي طلبة من أهل الخرنفش . وابن الحاج طلبة عيسى صاحب

المقلة بأم الغلام ، أسرة طيبة تنحدر من صلب سيدنا الحسين ..

— أسرة طيبة حقاً : وأنا شريفة أيضاً كما تعلمين يا ست أم حميدة ..

— أعلم هذا يا حبيبتى . وهو لا يتحرى إلا الأخلاق الطيبة ولولا هذا لتزوج

من عهد طويل ، ولكنه يزدرى بنات اليوم وينقم عليهن قلة الحياء . ولما أن حدثته

عن أخلاقك واحتشامك ، وقلت له إنك سيدة شريفة وصاحبة قرش ، سر

سروراً لا مزيد عليه ، وقال لى هذه طلبتى ، بيد أنه سألنى شيئاً واحداً لا يخرج

عن حدود الأدب ، وهو أن يرى صورتك !

فتورد الوجه النحيل ، وقالت بإشفاق :

— والله ما صورت منذ أمد بعيد ..

— أليس لديك صورة قديمة ؟

فأومأت الست إلى صورة على منضدة وسط الحجرة دون أن تنبس بكلمة ،

فانحنت المرأة قليلاً وتناولتها بيدها ونظرت فيها متفحصة . كانت صورة يرجع

تاريخها إلى ما قبل ستة أعوام ، وكانت صاحبها وقتذاك على شيء من الامتلاء

والحياة ، فرددت المرأة بصرها بين الصورة والأصل ، ثم قالت جازمة :

— طبق الأصل ، كأنها صورت بالأمس القريب ..

فتهدج صوت المرأة وهى تقول :

— والله يحلى دنياك ..

وأودعت جيبيها الصورة بإطارها ، وأشعلت سيجارة أخرى قدمت لها ، ثم

قالت بلهجة رزينة :

— ولقد تحدثنا طويلاً فعرفت أموراً عما فى مرجوه ..

ولحظتها الست بنظرة حذرة لأول مرة ، وانتظرت أن تواصل حديثها فلما أن

طال الصمت ، سألتها مبتسمة ابتسامة باهتة :

— ترى ماذا فى مرجوه ؟

أتجهل حقا أم تظنه يريد الزواج منها حبا فى سواد عينيها ؟ واغتاضت المرأة قليلا ، بيد أنها قالت بهدوء وبصوت منخفض قليلا :

— أظن ليس لديك مانع من إعداد جهازك بنفسك ..؟

وفهمت الست سنية المقصود لأول وهلة ، فالرجل لا يريد أن يدفع صداقا ، ويرغب أولا شك فى أن يترك لها وحدها عبء الجهاز ، ولم يكن ذلك ليغيب عنها من أول الأمر ، منذ تملكها الرغبة فى الزواج . وسبق أن لمحت أم حميدة إلى هذا فى ثنايا أحاديثها فلم تفكر قط فى الاعتراض عليها . فقالت بلهجة تنم عن التسليم :

— ربنا المعين .

فابتسمت أم حميدة وقالت :

— نسأل الله التوفيق والسعادة ..

ونفضت المرأة تريد الانصراف ، فتعانقتا عناقا حارا ، وسارت الست فى توديعها حتى الباب الخارجى ، ووقفت مرتفة الدرايزين وأم حميدة تنزل السلم إلى شقتها ، وقبل أن تغيب عن ناظرها هتفت بها :

— مع ألف سلامة . قبل عني حميدة ..

ثم عادت إلى حجرتها بقلب فتى ، ابتعث حرارته الأمل الجديد . وجلست تستعيد ما قالت أم حميدة جملة جملة وكلمة كلمة . كانت الست سنية على شئ من الحرص ولكنه ليس الحرص الذى يقف عثرة فى سبيل سعادتها . أجل فطالما آنس المال وحدثها ، سواء ذاك الذى تحفظه فى صندوق التوفير أو هذا الذى تتملاه رزما جديدة بديعة فى صندوقها العاجى ، ولكن لا هذا ولا ذاك بمغن عن الرجل الخطير الذى سيصبح بإذن الله بعلا لها . ولكن هل تعجبه الصورة ؟ وتورد وجهها حتى أحست بحرارة دمها تلمح جبينها . ونفضت إلى المرأة تعالين صورتها وجعلت تحرك وجهها بيمنة ويسرة حتى تراءى لعينيها أحسن الأوضاع

فثبتته عليه ، وأنعمت في الصورة النظر ، ولاح في وجهها شيء من الرضا ، وغمغمت برجاء « ربنا يستر » . ثم عادت إلى جلستها وهي تقول « المال يغطي العيوب » ألم تقل له المرأة إنها صاحبة قرش ؟ ! وإنما لكذلك . وليست الخمسون بسن اليأس ، فلا يزال أمامها عشرة أعوام ، وكم من امرأة في الستين تستطيع أن تتمتع بالسعادة إذا كفاها الله شر الأمراض . والزواج كفيل برى العود الذابل ، وبعث الجسد الخامد . هكذا سرحت مع أفكارها الوردية حتى اعترض تيارها الصافي زبد متلبد ، فقطبت فجأة ، وتساءلت مغيظة : ترى ماذا يقول الناس غدا ؟ آه ، إنها تعرفهم حق المعرفة ، وستكون أم حميدة نفسها في طليعة المتقولين . سيقولون لقد جنت الست سنية ، ويقولون امرأة في الخمسين تتزوج من ابن لها في الثلاثين ، وسوف يتحدثون طويلا عن المال الذي يصلح ما أفسد الدهر ، وربما قالوا غير هذا وذاك كثيرا مما لا يخطر لها ببال . فليقولوا ما شاء لهم القول . وهل كانوا أعتقوها من شر ألسنتهم وهي أرملة ؟ ! وهزت الست كتفها استهانة ، ثم دعت ربها من الأعماق قائلة :

— اللهم احفظني من شر العين ..

ثم خطر لها خاطر سرعان ما رحبت به ، وصدقت نيتها على تنفيذه ، وهو أن تذهب إلى الشيخة رباح بالباب الأخضر تستقرئها الطالع ، وتستوهبها بعض الرقي ، فما أحوجها في حالتها هذه إلى حجاب مفيد أو بخور نافع .

— ماذا أرى ؟! إنك لرجل وقور .!

قال زبيطة ذلك وهو يتفرس وجه رجل عجوز منتصب القامة ، يمثل بين يديه في خضوع واستكانة .. كان رث الجلباب ، نحيل الجسد ، ولكنه ذو مظهر وقور كما قال صانع العاهات ، كبير الرأس أبيض الشعر ، مستطيل الوجه ، له عينان هادئتان خاشعتان ، كأنه لوقاره وطول قامته واعتدالها من رجال الجيش المتقاعدين . وراح زبيطة يتفحصه بدهشة وأناة على ضوء المصباح الخافت ، ثم عاد يقول :

— إنك لرجل وقور ، أترغب في امتهان الشحاذاة حقا ؟!

فقال الرجل بصوت هادئ النبرات :

— أنا شحاذا بالفعل ولكنى غير موفق ..

فتحنح زبيطة ، وبصق على الأرض ، ومسح شفثيه بكم جلبابه الأسود ،

وقال :

— إنك أرق من أن تحمل أى ضغط شديد على أعضائك . والحق أنه لا يصح

التقدم لاتخاذ عاهة كاذبة بعد العشرين ، فالعاهة الكاذبة والصادقة سواء فيما

تقتضيه من عناء ! وكلما كان العظم طريا ضمن الشحاذاة عاهة في حكم المستديمة

حقا ، وأنت شيخ كبير على عتبة الفناء فما عسى أن أصنع بك ؟

ومضى يفكر . وكان إذا اعتراه الفكر فغرفاه وأرعرش لسانه فلاح في فمه

كرأس أفعى . ثم ومضت عيناه البراقتان بغتة وصاح :

— الوقار أنفس عاهة !

فسأله الرجل متحيرا :

— ماذا تعنى يا أستاذ ؟!

فانكفأ وجه زيطه غضبا وصاح به محتدا :

— أستاذ ؟! أسمعتنى أقرأ على القبور ؟

فدهم غضبه الرجل ، وبسط راحتيه مستعطفا وقال بصوت منكسر :

— معاذ الله .. ما قصدت إلا تبجيلك ..

فبصق زيطه مرتين وقال منفعلا فى زهو وعجب :

— إن عملى ليعجز أعظم أطباء البلد لو حاولوه . ألا تعلم أن إحداث عاهة

كاذبة أشق من إحداث عاهة حقيقية ألف مرة ؟ .. إن عاهة حقيقية لا تستقضىنى

أكثر من أن أبصق على وجهك ..

فقال الرجل بأدب جم :

— لا تؤاخذنى يا سيدى ، إن الله غفور رحيم ..

وسكت الغضب عن زيطه ، وحذج الرجل بنظرة حادة ، ثم قال بصوت لم

تمح منه بعض آثار الحدة :

— قلت إن الوقار أنفس عاهة ..

— كيف يا سيدى ؟

— الوقار كفىل بأن يكتب لك النجاح كشحاذا نادر المثل .

— الوقار يا سيدى ؟!

فمد زيطه يده إلى كوز على الرف ، واستخرج منه نصف سيجارة ، ثم أعاده

إلى موضعه ، وأشعلها من فوهة زجاجة المصباح ، وأخذ نفسا طويلا وهو يضيق

عينيه البراقتين ، وقال بهدوء :

— ليست العاهة بمطلبك . بل أنت فى حاجة إلى مزيد من التحسين

والتجميل . اغسل جلبابك جيدا ، واحصل بأية طريقة على طربوش نصف

عمر ، وامش بقامتك المعتدلة هذه فى خشوع وأدب ، واقتررب فى إشفاق من

رواد المقاهى ، ثم قف فى حياء ، ومد يدك فى تألم دون أن تنبس بكلمة . وتكلم

بعينيك ، ألا تعرف لغة الأعين ؟ .. ستحدق فيك العيون بدهشة ، سيقولون عزيز قوم ذل ، ويقولون محال أن يكون هذا من أولئك الشحاذين المحترفين . أفهمت الآن ما أريد ؟ ستربح بوقارك أضعاف ما يربحه الآخرون بعاياتهم .. وأمره أن يقوم بتجربة لدوره الجديد ، ووقف يراقبه مدخنا سيجارته ، وتفكر قليلا ثم قال مقطبا :

— ربما سولت لك نفسك أن تأكل أجرى بحجة أنى لم أصنع لك عاهة تستحق الأجر ، وأنت حر تفعل ما تشاء ، على شرط أن تولى وجهك غير حى الحسين العامر .

فتعوذ الرجل فى إنكار وقال متألما :

— حاشاى أن أخون صاحب الفضل على ..

وانتهت المقابلة عند ذاك ، فسار زيطة بين يدى الرجل ليدله على الطريق ، ووصله حتى الباب الخارجى للفرن ، وفى أثناء عودته لاحظ أن المعلمة حسنية متربعة على حصيرة بمفردها ، وليس لجعدة من أثر ، وكان من عادته إذا التقى بها أن يخلق سببا لمبادلتها كلمة أو كلمتين ، توددا إليها ، وإفصاحا عن إعجابه الكمين ، فقال لها :

— رأيت هذا الرجل ؟

فقالت المعلمة حسنية بغير مبالاة :

— طالب عاهة ، أليس كذلك ؟

فضحك زيطة وراح يقص عليها قصته ، والمرأة تضحك وتلعنه على شيطنته ثم اتجه نحو الباب الخشبي القصير الذى يؤدى إلى مأواه ، وتردد على عتبة لحظة ثم سأها :

— أين جعدة ؟

فأجابته المرأة :

— فى الحمام ..

وظن الرجل لأول وهلة أنها تسخر منه لقذارته المعروفة ، فرمقها بخذر ولكنه وجدها جادة . فأدرك أن جعدة قد ذهب إلى حمام الجمالية ، وهو ما يفعله مرتين في العام ، وأنه لن يعود قبل منتصف الليل على وجه التقريب . فحدثته نفسه بأن يجالس المعلمة قليلا ، متشجعا بما أثارتها قصته من سرور . وجلس على عتبة بابه مستندا إلى مصراع الباب مادا ساقيه كعمودين رقيقين من الفحم ، غير عاين بما أحدثه جلوسه من دهشة وإنكار لاحت آياتهما في عينيها . وكانت المرأة تعامله كما يعامله بقية أهل الزقاق ، غير كلمات يتبادلانها في ذهابه أو إيباه ، بوصفها مالكة مأواه . ولم تكن تشك في أن علاقته بها تنقطع عند هذا الحد ، ولم يدر لها بخلد أنه يطلع على الكثير من دخائل حياتها ودقائقها . ولكن مخلوقا كزينة لا يعدم أن يجد منفذا في الجدار بينه وبين الفرن يطلع منه على ما يروى غلته المتطفلة ، وأحلامه البهيمية . فصار وكأنه واحد من هذه الأسرة ، يشهد عملها وراحتها ، ويلذه بوجه خاص أن يرى المعلمة وهي تكيل الضرب لبعْلِها لأقل هفوة . وما أكثر هفوات جعدة التي يقع فيها كل يوم ويعاقب عليها كل يوم، حتى بات الضرب من غذائه اليومي ، يتلقاه تارة في تصبر وتجلد ، وتارة في بكاء وصراخ وعواء . زهو لا يفتأ يحرق بعض الأرغفة في أثناء خبزها ، أو يسرق البعض الآخر ليلتهم خفية فيما بين الوجبات ، أو يتاع بسبوسة بنصف قرش من أجر الخبز الذي نحصله من البيوت ، ولا يتورع عن ارتكاب هذه الجرائم يوما بعد يوم ، دون وفيق في طمس معالمها ، ولا قدرة على منع عقوباتها الصارمة . وكان زينة معجب لخنوع الرجل وجبنه وعنته . وأعجب من هذا أنه — زينة — كان يستقبحه ويهزأ بصورته ! كان جعدة طويلة القامة لحد مفرط ، طويل الذراعين ، ممطوط الفك الأسفل ، غائر العينين ، غليظ الشفتين . ولطالما حقد عليه زينة تمتعه بهذه الزوجة الهائلة التي يرمقها بعين الإعجاب والرغبة ، ولذلك قته واحتقره ، وتمنى لو يستطيع قذفه داخل الفرن مع العجين والصواني . لذلك أيضا سره أن يجد في غياب الحيوان فرصة ليجالس المعلمة قليلا ، فجلس

ومد ساقيه ، غير عابئ بما يحدثه جلوسه من دهشة وإنكار ، ولم تتردد المعلمة حسنية بجراتها المعهودة أن سألته بجفاء بصوت غليظ :

— مالك جلست هكذا ؟

فقال زبطة لنفسه « اللهم ارفع غضبك ومقتك عنا » ثم قال لها بلطف

وتودد :

— أنا ضيف يا معلمة ، والضيف لا يهان ..

فقالت بتقزز :

— ولماذا لا تنجحر وترى من وجهك ؟

فقال زبطة برقة مبتسما عن أنيابه الوحشية :

— لا يمكن أن يقضى الإنسان حياته كلها بين الشحاذين والقاذورات

والديدان ، ولا مفر من أن يتطلع لمنظر أبهج وأناس أفضل .

فانتهرته بعنف قائلة :

— يعنى لا مفر من أن يؤذى الناس بمنظره الكريه ورائحته الخبيثة !.. أف ..

أف .. انجحر وأغلق الباب وراءك !

فقال زبطة بخبث :

— ومع ذلك فعسى أن توجد مناظر أفضح وروائح أخبث .

وأدركت المعلمة أنه يلوح إلى زوجها ، فأربد وجهها وقالت بلهجة تنم عن

الوعيد :

— ماذا تعنى يا أنا الديدان ؟!

فقال الرجل ولم تكن تعوزه الجرأة :

— أخونا الفاضل جعدة ..

فصاحت به بصوت مخيف :

— حذار يا بن اللثيمة . لو بلغتك يدى شطرتك اثنين ..

ولم يتعام الرجل عن الخطر المائل أمامه فقال مستعظفا :

— قلت إني ضيف يا معلمة ، والضيف لا يهان . ثم إني لم أعرض بجعدة إلا بعد أن ثبت لي ازدرأؤك له ، وانهيالك عليه بالضرب لأتفه الأسباب .

— جعدة هذا ظفره برقبتك !

فقال زيطه محتجا :

— ظفرك أنت بألف رقبة كرقبتي ، أما جعدة ..

— أتحسب أنك خير من جعدة ؟!

فلاح الانزعاج في وجه زيطه وفغرفاه دهشة ، لا لأنه — في حسابانه — خير من جعدة فحسب ، ولكن لأنه كان يعتقد أن مجرد مقارنته به سبة لا تغتفر ، فأين هذا الحيوان الأعجم من شخص مقتدر مثله ، يعد بحق ملكا على دنيا برمتها أيا كانت هذه الدنيا ؟. وسألها بدهشة :

— ماذا ترين أنت يا معلمة ؟

ف قالت حسنية بتحد وازدراء :

— أرى أن ظفره برقبتك ..

— هذا الحيوان ..؟

فهتفت بصوت فظ :

— هذا رجل ولا كل الرجال يا وجه العفريت ..

— هذا المخلوق الذى تعاملينه كما تعامل الكلاب الضالة ؟.

وأدركت المرأة في كلامه حنقا وغيرة ، فراقها ذلك على انفعالها ، وعدلت عن ضربه بعد أن حدثتها نفسها به ، وراحت تقول كأنما لتضاعف حنقه وغيرته :

— هذا شيء لا تفهمه ، وما أجدر أن تموت حسرة على لكمة مما يصيبه ..

فقال زيطه حانقا :

— لعل الضرب شرف لا أدركه ..

— شرف لا تطمح إليه يا عشير الديدان .

وتفكر زينة مليا ، ترى هل تطيب لها معاشره هذا الحيوان حقا ؟! وقد طالما طرح هذا السؤال على نفسه ، ولكنه كان يأبى أن يصدق هذا . إن المرأة لا تملك أن تقول غير ما قالت ، ولكنها تبطن شيئا آخر بلا جدال . ورمق بنيانها الضخم المكتنز بعين نارية فازداد إباء وعنادا . ونشط خياله بارعا مجنونا فصور له المستقبل فى ألوان زاهية . وأوحى له خلو المكان بتخيلات محمومة ، فلمعت عيناه المخيفتان . أما حسنية الفرانة فقد استلذت غيرته ، ولم يقلقها انفراده بها لعظيم ثقتها بقوتها . فقالت فى تهكم :

— حتى أنت يا تراب الأرض .. استخرج جسمك من التراب الذى يغطيه أولا ، ثم كلم الناس بعد ذلك .

ليست المرأة غاضبة . ولو كانت غاضبة حقا لما دارت غضبها ولصفعته بوحشيتها . إنها تمازحه ولا شك ، فلا يجوز أن تفلت الفرصة من يديه . قال :

— أنت لا تفرقين يا معلمة ما بين التراب والتبر .

فقالت المرأة بتحد :

— هل تستطيع أن تنكر أنك من طين ؟

فهز منكبيه استهانة وقال ببساطة :

— كلنا طين ..

فقالت المرأة ساخرة :

— خسئت ! إنك طين على طين وقذارة على قذارة . ولذلك لا عمل لك إلا

تشويه البشر ، كأنك تنبعث إلى ذلك برغبة شيطانية فى النزول بالبشر إلى مستواك القدر .

فتضاحك زينة وما يزداد إلا أملا ، وقال :

— ولكنى أحسن الناس ولا أقبحهم . ألا ترين أن الشحاذ بغير العاهة لا

يساوى مليما ، حتى إذا ما صنعتها له ساوى ثقله ذهباً ؟! . والرجل يقوم بضمنه لا

بصورته . أما أخونا جعدة فلا ثمن ولا صورة ..

فزجرت المرأة بصوت ملؤه الوعيد :

— أتعود إلى هذا الحديث مرة أخرى ؟!

فتعامى عن وعيدها ، وتجاهل الموضوع الذى طرقه متعمدا ، وتخطاه قائلا :

— ومع ذلك فجميع زبائنى من الشحاذين المحترفين ، فماذا تريدبنى على أن

أفعل بهم ؟.. أكنت تريدن أن أحلهم وأزينهم وأسرحهم فى الطرقات لغواية

المحسنين ؟!

— يا لك من شيطان ! لسان شيطان ، وصورة شيطان .

فتهد بصوت مسموع ، وقال باستكانة المستعطف :

— كنت مع ذلك ملكا فى يوم ما ..

فهزت رأسها متسائلة فى سخرية :

— ملكا من الأسياد والعفاريت ؟

فقال بلهجة الاستكانة والاستعطاف نفسه :

— بل من البشر أنفسهم . وأى واحد منا تستقبله الدنيا كملك من الملوك ،

ثم يصير بعد ذلك ما يشاء له نحسه . وهذا خداع حكيم من الحياة ، وإلا فلو أنها

أفصحت لنا عما فى ضميرها منذ اللحظة الأولى لأينا أن نفارق الأرحام ..!

— ما شاء الله يا بن الدائخة !

فاستدرك زبطة فى حماسة وسرور :

— وهكذا كنت يوما ما مولودا سعيدا ، تلقفته الأيدى بالسرور ، وحاطته

بالعناية والرحمة ، فهل تشكين بعد ذلك أنى كنت ملكا ؟

— أبدا يا مولانا ..

وأسكرته حرارة الحديث ولذة الأمل ، فمضى قائلا :

— وكان مولدى يمنا وبركة أيضا . ذلك أن والدى كانا شحاذين محترفين ،

وكانا يكثران طفلا تحمله أمى فى أثناء تجوالهما . فلما أن رزقها الله بى أغناهما عن

أطفال الناس ، وفرحا بى فرحا عظيما .

فلم تملك حسنية أن ضحكت ضحكة مجلجلة ، فازداد حماسة وحرارة ،
وقال مواصلا حديثه :

— آه من ذكريات طفولتي السعيدة ، لازلت أذكر مستراحى من الطوار .
كنت أزحف على أربع حتى أبلغ حافة الطوار المطللة على الطريق ، وكانت توجد
تحت المكان المختار ثغرة من الأرض يركد فيها ماء من مطر أو رش أو دابة ، يتكتل
الطين فى قعرها ، وعل سطحها يغنى الذباب ، وعلى شطآنها تتجمع نفاضة
الطريق . منظر ساحر يأخذ بالألباب . مأوها مطين ، وساحلها زبالة متعددة
ألوانها . قشر طماطم ونفاية مقدونس وتراب وطنين ، والذباب يحوم حولها ويقع
عليها ، فكنت أرفع جفنى الثقيلين بالذباب ، وأسرح طرفى فى ذاك المصيف
الطروب ، والدنيا لا تسعنى فرحا ..

فهمت المعلمة ساخرة :

— يا بختك .. يا حظك ..

ولده سرورها وإقبالها على حديثه ، فقال متشجعا :

— هذا سر ولعى بما يسمونه ظلما بالقاذورات ، والإنسان خليق بأن يألف
أى شىء مهما شذ وغرب ، ولذلك أخاف عليك أن تألفى ذلك الحيوان .
— أتعود أيضا إلى هذا ؟

فقال وقد أعمته الشهوة وأصمته :

— طبعا . لا قبل لإنسان بإغفال الحق ..

— الظاهر أنك زهدت فى الدنيا ..

— لقد ذقت الرحمة مرة كما قلت لك فى المهد .

ثم أوما بيده إلى المزبلة التى تسكنها واستدرك :

— وقلبي يحدثنى بأن لى حظا أن أذوقها مرة أخرى فى مأوى هذا .

وأوما برأسه إلى الداخل كأنه يقول لها : « هلمى » فتميزت المرأة غيظا ،

وأحنقتها جرائته ، فصاحت فى وجهه :

— حذار يا بن الشيطان .

فقال بصوت متهدج :

— كيف لا بن الشيطان أن يحذر غواية أبيه ؟

— وإذا هشت عظمك ؟

— من يعلم .. ربما أستلذ ذلك أيضا ..

ونهض الرجل بغتة ، وتراجع قليلا متقهقرا ، كان يظن أنه بلغ مناه ، وأن المعلمة أصبحت طوع يمينه ، وقد تلبسته حال جنونية جعلته ينتفض انتقاضا . وثبتت عيناه على عيني المرأة في ذهول وبهيمية . ثم مد يديه بغتة إلى طرف جلبابه وخلعه بسرعة فائقة ، وتجرد عاريا . وبهتت المعلمة لحظات ، ثم امتدت يدها إلى كوز غير بعيد ، وقذفته به بسرعة وقوة ، فأصاب بطنه ، وندت عنه آهة كالخوار ، وسقط يتلوى ..

كان السيد سليم علوان جالسا كعادته إلى مكتبه بالوكالة حين جاءت أم حميدة لابتياع بعض اللوازم . وكان الرجل يستقبلها إذا جاءته بلطف ، ولكنه لم يقنع هذه المرة بذلك ، فدعاها إلى الجلوس على كرسي قريب منه وكلف أحد العمال باستحضار ما تريد من ألوان العطارة . ونال هذا العطف من أم حميدة فلهجت بشكره والدعاء له . والحق أن هذا العطف لم يكن ارتجالا ، ولكن السيد كان قد نوى أمرا لا رجوع فيه لأنه من العسير أن يعيش الإنسان موزع النفس مضطرب الإرادة لا يقر له قرار . وقد ساءه كثيرا أن يرى سماء حياته غائمة بالمشكلات المعلقة التي تستوجب الحلول ثم لا يجد الإرادة التي تحلها . فهو لاء الأبناء لا يخفى عليه قلقهم ، وهذه الأموال المقدسة لا يدرى متى يتاح له استغلالها خصوصا

وقد أرجف المرجفون باحتمال هبوط قيمتها النقدية بعد الحرب ، ورتبة البيكوية كلما ظن أنه حسم أمرها وانتهى منه عادت تلح عليه كأنها دمل كامن ، وعلاقته بزوجه وهمه الناشئ من ذبول شبابها ونضوب حيويتها ، وأخيرا — وليس آخرا — هذه العاطفة التي يعانيتها ويلقى من اضطرامها ما يلقي من أشواق وآلام . لبث بين هذه الهموم متحيرا ، ثم رأى أن يفض إحداها بعزم ورغبة ولكنه انساق في الاختيار مع هواه وهو لا يدري ، فارتأى أن يسكن هذه العاطفة الغشوم ، وتركز اهتمامه في ذلك ، حتى لكأنه بالانتهاء منها إنما ينتهي من همومه جميعا . ولكنه لم يكن بالغافل عن العواقب ، ولم يكن ليغيب عنه أنه بصدد مشكلة يعقب فضها المزعوم مشكلات جديدة لا تقل خطرا عن سابقتها . ولكنه الهوى . لقد غلبه الهوى على أمره ، وتسرب إلى أعماق نفسه فتشبعت به جذور تفكيره وإرادته ، وهانت عليه الصعاب التي كانت تعترض أحلامه ، وقال لنفسه متبرما : « لقد انتهت زوجي كامرأة ، ولست من الرجال الذين ينزلون إلى الفسق في مثل هذه السن ، ولا داعي مطلقا للرضا بالعذاب والغم . لقد يسر الله لنا فلماذا نعسر على أنفسنا ؟ ! » . وهكذا انتهى إلى رأى لا عدول عنه ، وأجمع على تحقيق رغبته . ولذلك دعا أم حميدة إلى الجلوس على كשב منه معتزما مفاحتها بالأمر الخطير . وابتث السيد متخوفا من الكلام قليلا لأن ترددا ساوره ، ولكن لأنه لم يكن من اليسير أن ينزل عن مرتبته العالية دفعة واحدة ويخلط نفسه بامرأة كأم حميدة ، وتصادف في تلك اللحظة أن دخل عامل حاملا صينية الفريك المشهورة ، فرأتها أم حميدة وجرت على شفيتها شبه ابتسامة لم يفته ملاحظتها ، وابتهل هذه الفرصة ورأى أن يجعلها فاتحة حديثه ، وتناسى تزمته ووقاره وقال لها بلهجة تنم عن السخط :

— لكم تكدرني هذه الصينية !

وخافت أم حميدة أن يكون قد رأى ابتسامتها فقالت بعجلة :

— لماذا كفى الله الشر ؟

فقال السيد باللهجة نفسها :

— لكم تحدث لى من متاعب ..

فتساءلت المرأة وهى لا تدرى ما يعنيه :

— لماذا يا سيدنا البيك ؟

فقال السيد سليم بهدوء متشجعاً بأنه يحادث خاطبة :

— لا يرضى عنها الطرف الآخر ..

فدهشت أم حميدة ، وذكرت كيف تحلب ريق أهل الزقاق يوماً على قطعة من

هذه الصينية ، وها هى ذى امرأة زاهدة لا ترضى عنها ! وقالت المرأة لنفسها :

« يعطى الحلقة لمن ليس له أذنان ». ثم غمغمت مبتسمة ، وبلا حياء :

— هذا شىء عجيب !!

فهز السيد رأسه متأسفاً . وكانت زوجته لا ترحب بالصينية من بادئ الأمر

وهى بعد شابة فى ريعان الشباب . كانت ذات فطرة سليمة تنفر من الشذوذ عن

الطبيعة ، ولكنها تحملت ما كانت تعده إرهاباً إكراماً لزوجها النهم ، وإشفاقاً من

تكدير صفوه . ومع ذلك لم تتردد عن نصحه بالعدول عن أمر فى المداومة عليه

خطر وأى خطر على صحته . ولما أن تقدم بها العمر قل صبرها ، وتضاعف

إحساسها بالأمر ، وبدأ تدمرها صريحا ، حتى كانت تهجر بيت الزوجية إلى

بيوت أبنائها ، زيارة فى الظاهر وهروبا فى الحقيقة . وضاق بها السيد ذرعاً ،

ورماها بالبرود والنضوب ، وتكدر صفوها ، وتنغص عيشهما ، دون أن يعدل

عن هواه ، أو يعطف على ضعفها الملموس . وقد اتخذ نشوزها — هكذا

دعاه — حجة له فى هواه وفيما يرتاد من حياة زوجية جديدة !.

هز السيد رأسه متأسفاً وقال بلغة لا يخفى مرماها عن مثل أم حميدة :

— لقد أندرتهما بالزواج من أخرى . وإنى لفاعل بإذن الله ..

وثار اهتمام المرأة ، وتحركت غريزة العمل فى باطنها ، وأحدجته بنظرة التاجر

إلى زبون نادر الوجود ، ولكنها قالت بشىء من الارتياب :

— لهذا الحد يا سى السيد ١٩

فقال الرجل باهتمام جدى :

— لقد انتظرتك طويلا ، وكنت على وشك أن أرسل فى طلبك . فما رأيك ؟

فتنهدت المرأة وقد غلبها سرور لا يوصف . وقد قالت فيما بعد إنها ذهبت تبثاع حناء فعثرت على كنز . ثم نظرت إليه مبتسمة وقالت :

— يا سى السيد أنت رجل قد الدنيا ، ومثلك فى الرجال قليل ، ويا حظ من تكون نصيبك ، وأنا رهن إشارتك ، فعندى البكر والشيب ، والشابنة والنصف ، الغنية والفقيرة . اختر ما تشاء ..

وفتل السيد شاربيه الغليظين ، واعتراه شىء من الارتباك قليلا ، ثم مال نحوها ، وقال بصوت منخفض ، وعلى فمه ابتسامة :

— لا داعى للبحث والتعب . إن من أريد فى بيتك أنت !
واتسعت عينا المرأة دهشة وتمتت بلا وعى :

— فى بيتى أنا !!

فقال السيد وقد سرته دهشة المرأة :

— أجل فى بيتك أنت دون سواك . ومن لحمك ودمك . أعنى كريمتك حميدة .. !

ولم تصدق المرأة أذنيها ، وتولاها الدهول . أجل كانت تعلم — عن طريق حميدة نفسها — أن السيد يتبعها أينما ذهبت عينين براقيتين ، ولكن الإعجاب شىء والزواج شىء آخر . فمن عسى أن يصدق أن السيد سليم علوان صاحب الوكالة يطلب يد حميدة ١٩ . وقالت المرأة بصوت مضطرب :

— لسنا قد المقام يا سى السيد !

فقال الرجل برقة :

— إنك منيدة طيبة ، وقد أعجبتنى كريمتك وكفى . ألا يكون الناس أهلا

للخير إلا إذا كانوا أغنياء ؟ وما حاجتى للمال وعندى منه ما فوق الكفاية !
وأصغت إليه والدهشة لا تفارقها . ثم ذكرت فجأة أمرا غاب عنها حتى هذه
اللحظة . ذكرت أن حميدة مخطوبة ، وقد ندت عنها « آهة » كالمنزعجة ، حملت
السيد على أن يسألها قائلا :

— مالك ؟ .

فقالت المرأة باضطراب :

— رباه ، نسيت يا سى السيد أن أقول لك إن حميدة مخطوبة ! خطبها عباس
الحلو قبل سفره إلى التل الكبير !..
فانكفاً وجه الرجل ، واصفر وجهه غضبا ، وقال بحدة وكأنه ينطق باسم
حشرة قدرة :

— عباس الحلو !..

فقالت المرأة بعجلة ولهوجة :

— رباه لقد قرأنا الفاتحة !

فقطب السيد سليم قائلا فى غضب وازدراء :

— ذاك الحلاق الشحاذا ..

فقالت أم حميدة كالمعتذرة :

— قال إنه سيشتغل فى الجيش ، ليجمع ثروة ، وسافر بعد أن قرأنا الفاتحة ..
وازداد غضب السيد لانزلاقه بغتة — مع الحلو — إلى مضمار واحد ، وقال
بحدة :

— أبحسب هذا الأحق أن الجيش نعيم يدوم ! ولكنى أعجب لما جعلك

تذكرين هذه « الحكاية » !

فقالت المرأة معتذرة :

— لقد ذكرتها فجأة ، هذا كل ما فى الأمر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع ،
ولذلك لم يكن لدى حيلة فى رفض يده ! لا تؤاخذنى يا سى السيد . إن مثلك إذا

طلب أمر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع ، فلا تؤاخذنى . سأذهب الآن وأعود إليك فى الحال : لا تغضب على ، لماذا غضبت هكذا ؟
وبسط السيد وجهه . وذكر أنه غضب حقا أكثر مما ينبغى ، كأنما الحلو هو المعتدى لا المعتدى عليه . ولكنه قال :
— ألا يحق لى أن أغضب ؟ .

ثم توقف بغتة كأنه تذكر أمرا اربد له وجهه وسألها منزعجا :
— وهل وافقت الفتاة ؟ أعنى هل تريده ؟
فقال المرأة بسرعة :

— لا شأن لابنتى بهذا الأمر ! وما حدث لا يعدو أن جاءنى الحلو يوما مصحوبا بعم كامل ثم قرأنا الفاتحة .
فقال السيد :

— غريب والله أمر هؤلاء الشبان ! لا يكاد يجد الواحد منهم لقمته ، ولكنه لا يجد بأسا من أن يتزوج ويخلف ويزحم الحارة أولادا يلتقطون رزقهم من الزبالة ، لتنس هذه الحكاية .

— نعم الرأى يا سى السيد .. سأذهب الآن ، وسأعود دون إبطاء ، وربنا المستعان .

ونفضت المرأة واقفة ، وانحنت على يده مسلمة ، ثم تناولت لفافة الحناء ، وكان العامل قد وضعها على المكتب ، ومضت إلى حال سبيلها ..
ولبت السيد متغيرا ، متجهم الوجه ، تنطق نظرة عينيه الحادة بالنرفزة والغضب .. أولى الخطى عثارا . جلاق قدر لا يساوى مليما ، ومع ذلك فهو يزحمه فى حلبة واحدة . وبصق على الأرض بازدراء كأنما البصقة هى الحلو نفسه . وخال أنه يسمع طنين المرجفين إذ يخوضون فى هذا الأمر بما يحلو لهم من تهكم وسخرية ، ستقول زوجه إنه خطف ابنة ماشطة من صالون حلاق بالمدق ! . أجل ستقول زوجه وتعيد ، وسيقول الناس ويتفننون فى القول ،

وسيتناهى ذلك كله إلى أبنائه وبناته وأصدقائه وأعدائه، تفكر فى ذلك جميعه، بيد أن التراجع لم يخطر له ببال فقد انتهت المعركة قبل اليوم ، ومد يده بالفعل ، وتوكل على الله . ومضى يقتل شاربه بأناة ، ويهز رأسه استهانة ، وقد ملكت الرغبة الجامحة عليه نفسه ، وهونت عليه القيل والقال . وهل كف الناس عنه ألسنتهم من قبل ؟. ألم يجعلوا من صينية الفريك أسطورة يتناقلونها ؟. فليقولوا ما بدا لهم ، وليفعل ما بدا له ، وسيظل بلا ريب سيد الجميع الذى يشق سبيله بين هامات متطامنة . أما أسرته فقروته كفيلة بإرضاء أفرادها جميعا ، ولن يسلبهم زواجه الجديد أكثر مما كانت تسلبهم إياه رتبة البكوية فيما لو سعى إليها : وانفثا غضبه ، وانبسطت أساريه ، وارتاح إلى تفكيره ارتياحا عظيما . ينبغي أن يذكر دائما أنه إنسان من لحم ودم ، وإلا أغفل حق نفسه ، وقدمها لقمة سائغة للهموم تزدريها . ما جدوى ثروته الطائلة إذا ذهبت نفسه حسرات على رغبة تحقيقها بيده ؟! أو ترك قلبه يحترق بالشوق إلى جسد بشرى رهن إشارة منه ؟!

ومضت أم حميدة مهرولة إلى شقتها ، وفى هذا الشوط القصير — ما بين الوكالة والشقة — ثمل خيالها بأحلام عراض . ووجدت حميدة واقفة وسط الحجرة تمشط شعرها ، فتفحصتها بعينين ثابتتين كأنها تراها لأول مرة ، أو كأنها تعانين الأنثى التى خبلت رجلا له وقار السيد سليم علوان وسنه وثروته . ووجدت المرأة عاطفة تشبه الحسد . كانت تؤمن بلا شك بأن كل قرش يجلبه هذا الزواج المرتقب للفتاة سيكون لها نصفه ، وأن كل نعيم ستذوقه ستحظى هى بنصيبها الموفور منه ، ومع ذلك لم تخل من هذا الإحساس الغريب الذى خالط سرورها وأطماعها ! وقالت لنفسها « أكان القدر حقا يدخر هذه السعادة لهذه الفتاة التى

لا تعرف لنفسها أبا ولا أما ! » وتساءلت في عجب « ألم يسمع السيد صوتها الخفيف وهي تزعق في وجوه الجيران ؟ ألم يشهد معركة من معاركها ؟ يا ويل الرجال من لحم النساء ! » ثم قالت لها دون أن تحول عنها عينيها :
— مولودة في ليلة القدر والحسين !

فأمسكت حميدة عن تمشيط شعرها الأسود اللامع ، وسألتها ضاحكة :
— له ؟ ماذا وراءك ؟ هل من جديد ؟ !
فخلعت المرأة ملاءتها وطرحتها على الكنبه ، ثم قالت بهدوء وهي تتفرس وجهها لتمدح أثر كلامها فيه .

— عروس جديد !
فلاح في العينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطهما دهشة ، وتساءلت الفتاة :
— أتقولين حقا ؟
— عروس كبير المقام ، يتمنع عن الأحلام يا بنت الكلب ..
فخفق قلب حميدة بقوة ، وتألفت عيناها حتى بدا حورهما ساطعا وتساءلت :

— من عساه يكون ؟

— خمنى ؟ !

فتساءلت الفتاة بلهفة وإن ساورتها الظنون :

— من ؟

فقالت أم حميدة وهي تهز رأسها وترعش حاجبها :

— السيد سليم علوان على « سن ورمح » !

فشدت قبضتها على المشط حتى كادت تنفذ أسنانه في راحتها ، وهتفت :

— سليم علوان صاحب الوكالة ؟ !

— صاحب الوكالة ، وصاحب الأموال التي لا يفنيها المحيط !

فأضاء وجه الفتاة نورا ، وغمغمت لا تدري من الدهشة والسرور :

— يا خير أسود !

— يا خير أبيض ، يا خير مثل اللبن والقشدة . لم أكن لأصدق لولا أنه حادثني بنفسه .

غرزت الفتاة المشط في شعرها ، وهرعت إلى أمها وارتمت إلى جانبها ، وسألتها وهي تشد على كتفها :

— ماذا قال لك ؟ خبريني بكل ما قال . كلمة كلمة .

وأنصت إلى المرأة بانتباه عميق وهي تروي قصتها . وخفق قلبها خفقانا متواصلا ، وتورد وجهها ، وتألفت عيناها بشراوسرورا . هذه هي الثروة التي تحلم بها ، هذا الجاه الذي تهيم به . وإنها من حب الجاه لفي مرض ، وإن الشغف بالقوة لغريزة جائعة في باطنها ، فهل يتاح لها شفاء أو ارتواء إلا بالثروة ؟ لم تكن تدري دواء لهذا التشوف الألم يضطرم في أعماقها إلا الثراء الكبير ، فهو الجاه العريض ، وهو القوة الشاملة ، وهو بالتالي السعادة الكاملة . كانت في سرورها المباغت كمحارب أعزل عثرت يده بسلاح مصادفة في أشد المواقف حرجا . كانت كطائر مقصوص الجناحين يسف في يأس وقنوط على رغم محاولاته الفاشلة ثم يبت له ريش بمعجزة تدق على الأفهام من محاولاته الفاشلة تحليقة يسمو به إلى قنن الجبال . وكانت أمها تنظر إليها بلحظ خفي فسألتها :

— ماذا ترين ؟

لم تدر أم حميدة ماذا تقول ، ولكنها كانت مشمرة للمعارضة أيا كان رأى الفتاة . فإذا قالت السيد قالت والحلو ؟ ، وإذا قالت الحلو قالت أو تفرط في السيد ! أما حميدة فقالت بإنكار شديد :

— ماذا أرى ؟!

— أجل ماذا ترين ، فليس الأمر مما يسهل الفصل فيه ، أنسيت أنك

مخطوبة ؟! .. وأنى قرأت الفاتحة مع الحلو ؟

فلاحت في عيني الفتاة نظرة حادة غشت جمالهما ، وقالت في انزعاج

وازدراء :

— الحلو ١١

وعجبت أمها لسرعتها الفائقة في البت في مثل هذا الأمر الخطير ، وكأن الحلو لم يكن قط ، وعاودها شعورها القديم بأن ابنتها فتاة شاذة مخيفة ، والحق أن المرأة لم يداخلها شك جدى في النهاية المحتمومة ، ولكنها كانت تريد أن تبلغها بعد لآى . كانت ترغب أن تتردد الفتاة فتتطوع هى إلى إقناعها بالقبول ، لا أن تلفظ اسم الحلو بمثل هذا الازدراء الغريب . واستدركت تقول بلهجة تنم عن الانتقاد :

— أجل الحلو ، أنسيت أنه خطيبك ؟

كلا لم تنس ، ولكن سيان التذكر والنسيان ، ترى هل تعترض أمها حقا ؟ . وحدجتها بنظرة نافذة ، فأيقنت أنها كاذبة في انتقادها ، وهزت منكبيها استهانة ، وقالت باستخفاف واحتقار :

— ذبحة ..

— ماذا يقول الناس عنا ؟

— دعيهم يقولوا ما بدا لهم ..

— سأستشير السيد رضوان الحسينى .

فجفلت الفتاة من هذا الاسم واعترضت قائلة :

— ما شأنه في أمر يخصنى وحدى ؟

— نحن أسرة لأ رجل لها ، فهو رجلنا ..

ولم تطق المرأة انتظارا فنهضت واقفة ، وتلفعت بملاءتها ، وغادرت الحجرة وهى تقول : سأشاوره وأعود توا . وشيعتها الفتاة بنظرة غيظ . ثم تنهت إلى أنها لم تتم تمشيط شعرها ، فمضت تمشطه بحركات آلية وعيناها شاخصتان إلى دنيا الأحلام الزاهرة ، ثم نهضت دالفة من النافذة وجعلت تنظر خلال خصاصها إلى الوكالة الكبرى ساعة ، وعادت إلى جلستها .

لم يكن تحولها عن عباس الحلو بغير تمهيد كما ظنت أمها ، أجل لقد حسبت

حيناً أنها وصلت — راضية — أسبابها بأسبابه إلى الأبد ، فمنحته شفقتها يقبلها بما أوتى من شغف وحب ، وجاذبته حديث المستقبل كأنه مستقبلهما معا ، ووعدته أن تزور الحسين لتدعوه له ، وزارته بالفعل ودعت له — ولم تكن تزوره إلا لتستعديه على عدوة عقب شجار — وانتظرت على أمل أن تظفر بهذه السعادة المرموقة ، وفضلاً عن ذلك فقد رفعها الحلو من مجرد بنت إلى فتاة مخطوبة ، فلم يعد في وسع أم حسين أن تمسك بسوالفها وتقول لها شامتة : « أحلق هذا لو خطبك إنسان ». بيد أنها كانت تنام على فوهة بركان . ولم تذق بادئ الأمر الطمأنينة الكاملة ، ووجدت في النفس شيئاً يضطرب يرتاد متفلساً . فقال لوح عباس الحلو لطموحها العنيف ببعض الزاد ، ولكن الحلو نفسه ليس بالرجل الذي تريد ، وقد حيرها أمره منذ أول لقاء . ولم تكن تدري كيف يكون رجلها على وجه التحقيق ، ولكن الحلو لم يقبض على ملاك قلبها على أية حال . ومع ذلك فلم تستسلم للخاوفها بغير مقاومة ، فجعلت تقول لعل المعاشرة تهيب لها حياة لم تكن تحلم بها قط . ثم لم تكف عن التفكير ، والتفكير فضيلة ذات حدين ، فتساءلت ترى ما هذه السعادة التي يمنيها بها ؟ ألا تكون مغالية في أحلامها ؟ يقول الفتى إنه سيعود بثروة ، وإنه سيفتح صالوناً في الموسكى ، ولكن هل يضمن لها هذا حياة أرغد من حياتها الراهنة ؟ وهل هذا حقاً ما تطمح إليه نفسها المجنونة ؟؟ وضاعف هذا التفكير من حيرتها ، وقوى شعورها بأن الشاب ليس رجلها المرموق ، وباتت تدرك أن نفورها منه أشد من أن تلتطفه المعاشرة . ولكن ما عسى أن تفعل ؟ ألم ترتبط به إلى الأبد .. رباه ، لماذا لم تتعلم حرفة كأولئك الفتيات من صويحباتها ؟ أما لو كانت صاحبة حرفة لأمكنها أن تنتظر حتى تتزوج كما تشاء ، أو لما تزوجت على الإطلاق ! وأخذت حماسها تفتر ، وشعورها يخمد ، وعادت إلى ما كانت عليه قبل أن تهزها المقابلات وتغرها الآمال . وهكذا كانت حين طلب السيد سليم يدها ، وهكذا نبذت خطيبها الأول بغير تردد ، ولكن بعد أن كانت نبذته في قلبها منذ أمد طويل ..

و لم يطل المطال بغياب الأم ، فعادت من بيت السيد رضوان بوجه تلوح فيه
أمارات الجذ ، وقالت وهى تخلع ملاءتها :
— لم يوافق السيد أبدا ..

ثم قصت عليها ما دار بينها وبين السيد رضوان ، وكيف قال لها وهو بصدد
المقارنة بين الرجلين أن الحلو شاب والسيد سليم شيخ ، وأن الحلو من طبقتها
والسيد من طبقة أخرى ، وأن زواج رجل كالسيد من فتاة مثل ابنتها لا بد محدث
متاعب ومشكلات لا يبعد أن يصيب الفتاة بعض من رشاشها ، وكيف ختم
حديثه بقوله « الحلو شاب طيب وقد هاجر في سبيل الرزق طامحا لهذا الزواج ،
فهو رجلها المفضل ، وما عليك إلا أن تنتظري فإذا عاد خائبا لا قدر الله كان من
حقك بلا جدال أن تزوجيها ممن تختارين » .

وأصغت الفتاة إليها والشرر يتطاير من عينيها ، ثم صاحت بصوت جاف
فضح الغضب قبحه :

— السيد رضوان ولى من أولياء الله ، أو هذا ما يجب أن يتظاهر به أمام
الناس ، فإذا قال رأيا لم يبال مصلحة الناس في سبيل اكتساب الأولياء أمثاله ،
فسعادتي لا تهمه في كثير أو قليل ، ولعله تأثر بقراءة الفتحة كما ينبغي لرجل يرسل لحيته
مترين ، فلا تسأل السيد عن زواجي وسليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة :.. !
أما والله لو كان طيبا كما تزعمون لما رزاه الله في أبنائه جميعا .. !

وارتفعت المرأة ، وقالت لها بإنكار وألم :

— أهذا كلام يقال عن أكرم الناس وأفضلهم ؟

فصاحت الفتاة بحدة وقد أندرت حالتها بشر مستطير .

— هو فاضل إن أردت ، وولى من أولياء الله إن شئت ، ونبي أيضا إن

أحببت ، ولكنه لن يقف حجر عثرة في سبيل سعادتي ..

وتألمت المرأة للإهانة التى لحقت السيد ، لا دفاعا عن رأيه الذى كانت لا

توافق عليه فى باطنها ، ومع ذلك قالت مدفوعة برغبة فى إغاضة الفتاة والانتقام من

سوء خلقها :

— ولكنك مخطوبة ..

فضحكت حميدة ساخرة وقالت :

— إن الفتاة حرة حتى يعقد عليها ، وليس بيننا وبينه إلا كلام وصينية بسبوسة !..

— والفاحة ؟

— المسامح كريم ..

— الفاتحة ذنبها كبير .

فصاحت باستهانة :

— بليها واشربى ماءها !

فضربت المرأة صدرها وقالت :

— آه يا بنت الثعبان !

ولاحظت حميدة بوادِر الإذعان تلوح في عيني أمها ، فقالت ضاحكة :

— تزوجيه أنت ..

فضربت المرأة كفا بكف وهي تغالب الضحك ، ثم قالت بسخرية :

— من حقلك أن تبيعي صينية البسبوسة بصينية الفريك ..

فنظرت إليها بتحد وقالت بغیظ :

— بل رفضت شابا واخترت شيخا ..

فضحكت أم حميدة ضحكة مجلجلة وتمتمت « الدهن في العتاقى » ، وتربعت

على الكنبه فى سرور وقد تناست معارضتها الكاذبة ، واستخرجت سيجارة من

علبة سجائرها وأشعلتها ، وراحت تدخن بلدة لم تشعر بمثلها من زمن بعيد ،

فنظرت حميدة إليها بغیظ وقالت :

— تالله لقد فرحت بالعروس الجديد أضعاف سرورى ، ولكنها المكابرة

والمعاندة والرغبة فى إغاضتى ساحك الله ..

فحدجتها أمها بنظرة عميقة ، وقالت بلهجة ذات معنى :

— إذا تزوج رجل مثل السيد سليم من فتاة ، فهو في الواقع إنما يتزوج من أهلها .
جميعا ، كالنيل إذا فاض أغرق البلاد . أفهمت ؟ .. أم تحسبن أن ترفى إلى قصر ك
الجديد وأبقى أنا هنا تحت رحمة الست سنية عفيفى وأمثالها من المحسنين ؟ ..
قهقهت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها ، وقالت بكبرياء مصطنع :
— تحت رحمة الست سنية عفيفى ، والست حميدة هانم ..
— طبعا .. طبعا يا لقيطة الطوار ، يابنة المجهول ..
فاسترسلت الفتاة فى ضحكها وقالت :
— مجهول مجهول .. كم من أب معروف لا يساوى شيئا ..

وعند ضحى الغد ذهبت أم حميدة إلى الوكالة سعيدة رغبة البال ، لتقرأ الفاتحة
مرة أخرى . ولكنها لم تجد السيد سليم بمجلسه المعهود ، واستعلمت عنه ، فقل
لها إنه تخلف عن الحضور اليوم ، فرجعت إلى البيت غير مرتاحة وقد تولاه
الجزع ، ولما أن انتصف النهار ذاع نأى فى الزقاق بأن السيد سليم علوان أصيب ليلة
أمس بذبحة صدرية ، وأنه فى فراشه بين الحياة والموت ! وقد عم الأسف الزقاق
كله ، أما بيت أم حميدة فقد سقط عليه النأ كالصاعقة ..

واستيقظ الزقاق ذات صباح على صخب وضوضاء . ورأى أهله رجالا
يقيمون سرادقا على أرض خراب بالصناديق فيما يواجه زقاق المدق ، وانزعج
عم كامل وظنه سرادق ميت فهتف بصوته الرفيع « إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا
فتاح يا عليم يا رب » ونادى غلاما من عرض الطريق وسأله عن شخص المتوفى ،
ولكن الغلام قال له ضاحكا :

— ليس السراشق لمت ، ولكنها حفلة انتخاية !

فهز عم كامل رأسه وغمغم « سعد وعدلى مرة أخرى ! » وكان الرجل لا يدري شيئاً على الإطلاق عن عالم السياسة ، إن هو إلا اسم أو اسمان يحفظهما دون أن يفقه لهما معنى . أجل إنه يعلق فى صدر محله صورة كبرى لمصطفى النحاس ، ولكن كان ذلك لأن عباس الحلو ابتاع يوماً صورتين للزعيم ثبت إحداهما فى الصالون وأهدى الأخرى لصاحبه ، ولم ير الرجل فى تثبيتها بدكانه من بأس ، خصوصاً وأنه يعلم أن هذه الصورة وأمثالها من تقاليد الدكاكين ؟ ففى دكان الطعمية بالصناديق صورتان لسعد زغلول ومصطفى النحاس وفى قهوة كرشة صورة للخديوى عباس ، وراح الرجل يرمى العمال العاكفين على عملهم بإنكار وقد توقع يوماً صاحباً مرهقاً . ومضى السراشق يتكون جزءاً جزءاً ، فنصبت الأعمدة ، ووصلت بالطنب ومدت عليها الستائر، وفرشت الأرض بالرمل ، وصفت المقاعد على جانبى ممر ضيق إلى مسرح أقيم فى الداخل عالياً ، وركبت مكبرات الصوت على مفارق الطريق بين الحسين والغورية ، وأجمل من هذا كله أن ترك مدخل السراشق بلا حاجز من ستار أو ظلة مما بشر أهل المدق بأنهم سيشاركون فى الحفلة من منازلهم ، وفى أعلى المسرح علقت صورة كبرى لرئيس الحكومة ، وألصقت بها من تحت صورة المرشح فرحات الذى تعرفه أكثرية أهل الحى لأنه كان تاجراً بالنحاسين . ودار فتیان بإعلانات وجعلوا يلصقونها بالجدران وقد سطر عليها بألوان زاهية :

انتخبوا نائبيكم الحر إبراهيم فرحات

على مبادئ سعد الأصلية

زهق عهد الظلم والعسرى

وجاء عهد العدل والكساء

وأرادوا أن يلصقوا إعلاناً بدكان عم كامل ، ولكن الرجل الذى ترك غياب

عباس الحلو فى نفسه أسوأ الأثر تصدى لهم سخطاً وهو يقول :

— ليس هنا يا أولاد الحلال ، هذا شؤم يقطع الرزق ..

(زقاق المدق)

فقال له أحدهم ضاحكا :

— بل تجلب الرزق . وإذا رآها حضرة المرشح اليوم ابتاع بسبوستك بالجملة ، وأعطاك الثمن مضاعفا وعليه قبلة .

وانتهى العمل عند منتصف النهار ، وعاود المكان هدوءه المعهود ، واستمر هذا حتى العصر حين جاء السيد إبراهيم فرحات في هالة من حاشيته ليعاين الأمور بنفسه ، وكان الرجل لا يقبض يده عن الإنفاق ، إلا أنه كان كذلك تاجرا لا يفوته الاطلاع على دقائق ميزانيته حتى لا يجوز عليه ما لا ينبغي أن يجوز . وقد تقدم القوم بجسمه البدين القصير ، يرقل في جبته وقفطانه ، ويقلب فيما حوله وجهها أسمر كرويا ذا عينين ساذجتين . كانت مشيته تنم عن الزهو والثقة ، وعيناه تنطقان بالطيبة والسداجة ، ومظهره عامة يشي بأن بطنه أهم كثيرا من رأسه . وقد أحدث ظهوره اهتماما كبيرا في الزقاق وما يحيط به لا لأنهم اعتبروه عروس الليلة ، وأملوا من وراء « زفته » خيرا كثيرا ، خصوصا وأنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التي دهمتهم في الانتخابات السابقة بفوز مرشح الدائرة بالتركية !. ثم جاءت على أثره جماعات من الغلمان تسير وراء أفندي مرددة هتافات عالية ، كان يصيح بصوت كالرعد « من نائبا ؟ » .. فيجيبونه بصوت واحد « إبراهيم فرحات » فيهتف ثانية « من ابن الدائرة ؟ » فيهتفون « إبراهيم فرحات » وهكذا ، وهكذا ، حتى امتلأ بهم الطريق ، وتسرب منهم كثيرون إلى السرادق . وجعل المرشح يزد الهتافات برفع يديه إلى رأسه ، ثم اتجه نحو الزقاق تتبعه بطانته وجلها من رافعي الأثقال بنادى الدراسة الرياضى . واقترب من الحلاق العجوز الذى حل محل الحلو ومد له يده وهو يقول « السلام عليك يا أخا العرب » . فانحنى الرجل على يده في استحياء وترحيب ، وتحول عنه إلى عم كامل قائلا : « لا تتجشم مشقة النهوض ، حلفتك بالحسين إلا ما لزمتم مكانك . كيف حالك .. الله أكبر .. الله أكبر ، هذه بسبوسة فريدة ، وسيعرف الناس جميعا قدرها هذه الليلة » .. وتقدم مسلما على كل من لاقاه ، حتى انتهى إلى قهوة

كرشة ، فحيا المعلم ، وجلس ودعا رفاقه للجلوس ، واستبق إلى القهوة كثيرون حتى جعدة الفران وزبطة صانغ العاهات . وردد المرشح نظره بين الحاضرين في سرور ، ثم قال مخاطبا المعلم كرشة :
— قدم الشاي للجميع ..

وابتسم تحية لكلمات الشكر التي تناثرت عليه من كل حذب و صوب ثم التفت صوب المعلم قائلا :

— أرجو أن تقوم القهوة بتقديم ما يحتاجه السرايق من الطلبات ..

فقال المعلم كرشة بشيء من الفتور :

— نحن في الخدمة يا سي السيد ..

ولم يغب عن المرشح فتوره ، فقال برقة :

— نحن جميعا أبناء حى واحد ، وكلنا إخوان !..

والحق أن السيد فرحات جاء القهوة خصيصا لاسترضاء المعلم كرشة ، ذلك أنه كان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليستميله إلى جانبه فيضمن صوته وأصوات من يلوذ به من المعلمين وعمالهم ، وقدم له خمسة عشر جنيهاً مقدماً أتعاب ولكن المعلم كرشة أبى أن يمسه محتجاً بأنه ليس دون الفوال — صاحب قهوة الدراسة والذي ذاع أنه أخذ عشرين جنيهاً — منزلة ، وما زال به حتى حمله على قبول المبلغ واعداء إياه بالمزيد . ثم افترقا والسيد مشفق من انقلاب المعلم عليه : والواقع أن المعلم كرشة لم يخل من غضب على « محدث السياسة » هذا على حد قوله ، وأضمر له شر النوايا إذا هو لم يبادر إلى إصلاح خطئه . وكان المعلم كرشة يتيقظ — على غلبة الذهول عليه — في المواسم السياسية . وقد اكتسب في شبابه شهرة في عالم السياسة تضارع ما اشتهر به بعد ذلك في الأمور الأخرى ! فاشترك في ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكاً فعلياً عنيفاً ، وقد نسب إليه الحريق الكبير الذي التهم الشركة التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحسين ، وكان من أبطال المعارك العنيفة التي دارت بين الثوار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى . ولما

أن خمدت الثورة الدموية وجد فيما جد من معارك انتخابية ميدانا جديدا على ضيقه لنشاطه وحماسته ، فبذل في انتخابات سنة ١٩٢٤ جهدا مشكورا ، وصمد ببطولة لمغريات انتخابات سنة ١٩٢٥ — ولو أنه قيل وقتذاك إنه قبل رشوة مرشح الحكومة ولكنه أعطى صوته لمرشح الوفد — وأراد أن يلعب الدور نفسه في انتخابات صدق — فبأخذ النقود ويقاطع الانتخابات — ولكن عيون الحكومة راقبته يوم المعركة ، وحملته مع غيره في لورى إلى مركز الانتخاب فخرج على إرادة الوفد مرغما لأول مرة . وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة ، فطلقها بعد ذلك وتزوج التجارة ، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة ، وانقلب نصيرا لمن « يدفع أكثر » . وجعل يعتذر عن مروقته بما طرأ على الحياة السياسية من فساد ، قائلا إنه إذا كان المال غاية المتنازعين في ميدان الحكم فلا ضير أن يكون كذلك غاية الناحيين المساكين ! وفضلا عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه ، وغلبه الذهول ، وركبته الشهوات ، ولم يبق في روحه من الثورات القديمة إلا ذكرى غامضة ربما كر إليها الخيال فأشاد بها متباهيا في بعض ساعات الصفاء حول المجمرة ، ولكنه نبذ في قلبه جميع قيم الحياة الشريفة ، ولم يعد يعبا شيئا من بعد ذلك إلا « الكيف » و « الهوى » ، وما عدا ذلك « اردم » على حد قوله . لم يعد يكره أحدا ، لا اليهود ولا الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم . ولم يعد يحب أحدا كذلك ، ولذلك كان من العجيب حقا أن تدب فيه حماسة مفاجئة في هذه الحرب فيتعصب للألمان ، وأن يتساءل — في هذه الأيام خاصة — عن موقف هتلر ، أحقية قد أصبح مهددا ، وألا يجمل بالروس أن يسارعوا شاكرين لقبول ما يعرض عليهم من صلح منفرد ؟ ! ولكن إعجابه بهتلر كان ينعقد حول ما يذيع عن بأسه وبطشه ليس إلا ، فكان يعدده شيخ فتوات الدنيا ، ويتمنى له النصر كما تمناه طويلا لعنترة وأبي زيد . بيد أنه ظل محافظا على خطره في ميدان الانتخابات ، لأنه كان زعيم المعلمين الذين يتحلقون بجمرته كل ليلة ومن يتبعهم من فعلة وصبيان وبطانات ، ولذلك

حرص السيد إبراهيم فرحات على استرضائه ، ونزل عن ساعة طويلة من وقته الثمين يقطعها في قهوته متوددا مستعطفا .

وكان يسترق إليه النظر ، فمال على أذنه وسأله بصوت خافت :
— أراض أنت يا معلم ؟

فتدلت شفته عن ابتسامة ، وقال في شيء من التحفظ :

— الحمد لله ، أنت الخير والبركة يا سي السيد .. فهمس في أذنه :

— سأعوضك عما فاتك خيرا كثيرا ..

وانبسطت أساريره وهو يقلب عينيه في وجوه الحاضرين ، ثم قال بركة ورجاء :

— إن شاء الله لن تخبوا لنا أملا ..

فتعالت الأصوات في وقت واحد تقول :

— معاذ الله يا سيد فرحات . أنت ابن خطنا ..

فابتسم الرجل مطمئنا وأنشأ يقول :

— إني كما تعلمون مستقل ، ولكني أستظل بمبادئ سعد الحقيقية ، وماذا أفدنا من الأحزاب ؟ ألا تسمعون مهاتراتهم ؟ إنهم مثل (كاد يقول أبناء الحوارى ، ثم ذكر أنه يخاطب بعضا من هؤلاء الأبناء فتدارك نفسه قائلا) : دعونا من ضرب الأمثال . لقد اخترت الاستقلال عن الأحزاب حتى لا يمنعنى مانع من قول الحق ، ولن أكون عبدا لوزير أو زعيم ، وسأذكر فى البرلمان إذا وفقنا الله للنجاح أننى إنما أتكلم باسم أبناء المدق والغورية والصنادقية . ولقد ولى عهد الثرثرة والنفاق ، وهامكم عهدا لا يشغله شيء عن أموركم العاجلة ، كزيادة الأقمشة الشعبية والسكر ، والكيروسين ، والزيت ، وعدم خلط الرغيف ، وتخفيض أسعار اللحوم ..

وسأله سائل باهتمام شديد :

— هل حقا تتوفر هذه الضروريات غدا ؟

فقال الرجل بثقة ويقين :

— بغير جدال . وهذا سر الانقلاب الحاضر ، كنت أمس أزور رئيس الحكومة (ثم ذكر أنه قال إنه مستقل فاستدرك قائلاً) وهو يستقبل المرشحين على اختلاف ألوانهم ، فأكد لنا أن عهده هو عهد الكساء والغذاء .

وازدرد ريقه ، ثم استطرد :

— سترون العجب العجيب ، ولا تنسوا الحلوان إذا فزت في الانتخابات .

فسأله الدكتور بوشى :

— الحلوان بعد ظهور النتيجة ؟

فالتفت السيد نحوه وقال وقد داخله شيء من القلق :

— وقبل ظهور النتيجة أيضا .

فخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال :

— كالصداق له مقدم ومؤخر . إلا أنت يا ست الستات فلا صداق لك ،

لأن حبك روحى من السماء .

فتحول السيد إلى الشيخ منزعجا ، ولكنه سرعان ما أدرك حين وقع بصره

على زيه — الجلباب ورباط الرقبة والنظارة الذهبية — أنه من أولياء الله

الصالحين . فارتسمت ابتسامة على وجهه الكروى وقال برقة :

— أهلا وسهلا بسيدنا الشيخ ..

ولكن الشيخ درويش لم يجبه بكلمة واستغرق فى ذهوله . ثم انبرى أحد تابعى

المرشح قائلا :

— لكم ما تريدون ، ولنا القسم بكتاب الله ، وبالطلاق ..

فقال أكثر من صوت :

— وجب ..

وأخذ السيد فرحات يسأل الحاضرين عن تذاكرهم الانتخابية ، ولما أن سأل

عم كامل أجابه :

— ليس لي تذكرة ، ولم أشارك في أى انتخاب على الإطلاق ..

فسأله المرشح :

— أين مسقط رأسك ؟

فقال بغير مبالاة :

— لا أدري ..

وضج الجلوس بالضحك ، وشاركهم السيد فرحات ، ولكنه غمغم دون

يأس :

— سأسوى هذه المسألة البسيطة مع شيخ الحارة .

وجاء فتى بجلباب ، حاملا مجموعة من الإعلانات الصغيرة ، فانتهر فرصة

امتلاء القهوة بالجلوس وراح يفرق فيهم إعلاناته ، وظن كثيرون أنها إعلانات

انتخابية ، فأقبلوا عليها باحتفاء مجاملة للسيد المرشح ، وتناول السيد فرحات

إعلانا وقرأه فإذا فيه :

« حياتك الزوجية ينقصها شيء .

عليك باستعمال عنبر السنطوري .

عنبر السنطوري

مركب بطريقة علمية خالية من المواد السامة محل بمعرفة وزارة الصحة رقم

١٢٨ وهو منعش ومفرش ويعيدك من الشيخوخة إلى الصبا في خمسين دقيقة .

طريقة الاستعمال :

خذ منه قدر القمحة على كباية شاى حلوا كثير ، فتجد عندك النشاط ،

ومقدار ربع الحق دفعة واحدة أقوى من جميع المكيفات ، يسرى في العروق كالتيار

الكهربائى ، اطلب علبة عينة من موزع الإعلان ، الثمن ٣٠ مليما يا بلاش .

سعادتك بـ ٣٠ مليما ، والمحل مستعد للاستماع لملاحظات الجمهور .

وضج المكان بالضحك مرة أخرى ، وارتبك المرشح قليلا ، وتطوع أحد

بطانته بالتسرية عنه فصاح :

— هذا فال حسن .

ثم مال على أذنه وهمس قائلا :

— هلم بنا ، أمامنا أحياء وأحياء .

فنهض الرجل وهو يقول :

— نستودعكم الله ، إلى لقاء قريب إن شاء الله ، اللهم حقق الآمال .

وخرج الشيخ درويش بنظرة رقيقة وقال له وهو يهم بمغادرة القهوة :

— يا سيدنا الشيخ ادع لي .

فخرج الشيخ درويش عن صمته قائلا وقد بسط ذراعيه :

— الله يخرب بيتك ..

وما آذنت الشمس بالمغيب حتى كان السراشق قد ضاق عن القاصدين وتناقل الحاضرون أن سنياسيا كبيرا سيلقى خطابا هاما . وذاع أن شعراء وزجالين سيتبارون على المسرح، ولم يطل الانتظار فارتقى المسرح قارئ وتلا ما تيسر من الذكر الحكيم . وأعقبته فرقة موسيقية من شيوخ مهديم مهلهلى الثياب فعزفوا النشيد الوطنى، وكان لإذاعة المكبرات لموسيقاهم أثر واضح فى دعوة الغلمان والصبية من الأزقة والجوارى حتى سدوا الصناديق سدا . وتعالى الهتاف والضوضاء . وانتهى النشيد دون أن يرح رجال الفرقة أماكنهم، حتى ظن أن الخطباء سيلقون خطبهم على أنغام الموسيقى . ثم كانت المفاجأة السارة إذ دق بعضهم أرض المسرح حتى شمل الصمت الجمع المحتشد، ثم بدأ مونولوجست معروف فى لباسه البلدى، فما كادت تراه الأعين المكددة حتى جن جنونهم فرحا وسروزا، وراحوا يهللون ويصفقون، وقال المونولوجست وتفنن . ورقصت امرأة شبه عارية وهى تهتف المرة تلو المرة: «السيد إبراهيم فرحات .. ألف مرة .. ألف مرة ..» . وجعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح فى المذياع (السيد إبراهيم فرحات أحسن نائب . ميكروفون بهلول أحسن ميكروفون) . واتصل

الغناء بالرقص والهتاف ، وانقلب الحى جميعا إلى مولد .

ولما عادت حميدة من مشوارها المعهود وجدت الحفلة فى إبان ازدهارها وسرورها . وكانت تظن كأهل الزقاق كافة أنها ستكون حفلة هتاف وخطب (بالنحو) على حد تعبيرهم . وما أن رأت المنظر البهيج حتى شملها السرور وتلفتت يمنة ويسرة باحثة عن مكان تشاهد منه حفلة الطرب والرقص التى نادرا ما ترى مثلها فى حياتها ، ومضت تشق طريقها بصعوبة بين الغلمان والبنات حتى بلغت مدخل المدق ، واقتربت من جدار الصالون ، وارتقت حجرا منغرسا لصق الحائط ، وتطلعت باهتمام وسرور إلى السرادق .

كان الغلمان والبنات يكتنفنها من كل جانب ، ووقفت نسوة كثيرات يقبضن على أيدي أطفالهن أو يحملنهم على أكتافهن . واختلط الغناء بالهتاف بالحديث بالصياح بالضحك بالعويل . واستولى المنظر الخلاب على لبها فانجذبت روحها إليه ، والتفت السرور فى عينيها الفاتنتين ، وفمها المفتر عن ابتسامة لؤلؤية . وكانت متلذذة بملاءتها فلا يبدو منها إلا وجهها البرنزى ، وأسفل ساقها ، وما انحسر عنه طرف الملاءة من مقدم شعرها الفاحم . ورقص قلبها سرورا ، وتنبهت حواسها جميعا ، وجرى دمها حارا دافقا، سرها المونولوجست سرورا لم تشعر بمثله من قبل ، حتى شعورها المر القارص نحو الراقصة لم يستطع أن يفسده عليها . وظلت مستغرقة فيما ترى غير ملقية بالا إلى هبوط الظلام حتى أحست شيئا ما يجذب عينيها نحو اليسار ، كأنه نداء يدعو حواسها إليه ، أو ذاك الشعور الذى يقلقنا إذا أهدت فينا عينان ولبته على رغمها فتحولت عن المونولوجست عاطفة رأسها إلى يسارها فالتفت عيناها بعينين تتفرسان فيها بقوة وقحة ! ولبثا مقدار ثانية ثم عادتا إلى هدفهما ، ولكنها لم تستطع أن تنعم باستغراقها الأول ، وظل شعورها منتبها إلى العينين العارمتين ، وجعلت حدقتها تملآن ناحية اليسار ، وساورها شك وقلق ، فالتفت مرة أخرى فالتفت بالعينين تتفرسان فيها بالقحة نفسها ، وقد نمتا — إلى ذلك — عن ابتسامة غريبة . ولم تتمالك نفسها فأعادت رأسها إلى موضعه الأول

فى شىء من الحدة وقد ملأها الحنق . أحنقتها هذه الابتسامة الغربية لأنها أفصحت
عن ثقة وتحد لا حد لهما ، فهيجت موضع الالتهاب والانفجار من نفسها
الشرسة المتفجرة ، وشعرت برغبة جامحة أن تنشب أظافرها فى شىء ما ، فى رقبتة
لو أمكن مثلاً ! . وصممت على أن تهمله على نفورها من هذه الطريقة السلبية فى
العراك ، وإن ظل شعورها قويا بعينه الوقحتين ! ونغص عليها سرورها ،
وركبتها روح الشر التى تلبسها بسرعة جنونية . وكأن صاحب العينين لم يقنع
بما فعل ، أو كأنه لا يبالي هذه النار التى شها ، فراح يشق طريقه إلى موضع فى
طريق بصرها الشاخص إلى السرادق متعمدا بلا شك أن يعترض سبيلها ، ووقف
هناك موليا إياها ظهره . كان طويل القامة ، نحيفا عريض المنكبين ، حاسر
الرأس ، غزير الشعر ، مرتديا بدلة ذات لون ضارب للاخضرار ، متأنقا فى
ملبسه ومظهره ، فلاح غريبا فى هذا الوسط الذى يكتنفه ، وسرعان ما أنستها
الدهشة ما تولاهما من حنق وتوحش . هذا أفندى وجيه ، وأين من زقاقها
الأفندية ؟ ترى هل يعاود النظر وسط هذا الزحام ..

ولكن لم يكن شىء ليردعه فما عثم أن التفت وراءه مرسلانحوها نظرا عارما .
وكان وجهه نحىلا مستطيلا ، لوزى العينين ، كثيف الحاجبين ، تنطق نظرة
عينيه بالحنق والقحة . ولم يكتف بهذا التفرس على الملأ فصبوب فيها نظره ،
وصعد من شهبشها المنجرد إلى شعرها ، حتى انساقت وهى لا تدري إلى النظر إلى
عينيه كأنما لتسبر ما تركه تفحصه من أثر ، فالتقت عيناها ، ولاحت فى عينيه
هذه النظرة المثيرة الوقحة الواشية بما يتيه به من ثقة وتحد وظفر ، فتناست
دهشتها ، وعاودها الحنق والغيط والرغبة فى العراك ، فعلا دمها غليانا ، وهمت
أن تشتمه علانية . همت أكثر من مرة ، ولكنها لم تفعل ، وتولاهما قلق وانفعال
وضاقت بوقفتهما ، فنزلت عن الحجر ، ومرقت إلى الزقاق مندبعة على عجل .
فقطعته فى ثوان . وعندما اجتازت عتبة البيت شعرت برغبة إلى الالتفات إلى
الوراء ، ولكنه تمثل لعينها فى وقفته مرسل عينية فى وقاحة وثقة وقد ازدادت

ابتسامته افتضاحا ، فرغبت عن رغبتها ، وارتقت السلم متعجلة حانقة تلوم نفسها على تساهلها معه وتفريطها في تأديبه . واتجهت نحو حجرة النوم وخلعت ملاءتها ، ثم دلفت من النافذة المغلقة . ونظرت إلى الطريق من خلال خصاصها ، وبحث عيناها عن ضالتها حتى استقرتا عليه عند مدخل الزقاق ، وكان يرمق النوافذ المظلمة على الزقاق باهتمام وقد فارقت عينيه ابتسامة الثقة والتحدى وحل محلها احتفال وتطلع . وسرها مظهره الجديد فانفتحا حنقها ، ولبت بموقفها تستلذ حيرته ، وتنتقم لغيظها وحنقها . أفندى وجيهه ما في ذلك من شك ، وغير السابقين بلا جدال ، وقد أعجبته وإلا فقيم هذا الاهتمام الشديد . وأما نظرة عينيه فقاتلها الله من نظرة تستوجب أعنف عراك ! .. فیم هذه الثقة التي لا حد لها ؟ أيحسب نفسه بطل الأبطال أو أمير الأمراء ؟ وخالط ارتياحها حنق ، ووجدت رغبة غامضة إلى العنف والتحدى . ولكنه بدأ يأس من النوافذ ، وأعياه البحث عنها ، وخافت أن ينصرف عن تطلعه ويغيب في الزحام . وترددت لحظة ، ثم أدارت الأكرة ، وفرجت ما بين مصراعي النافذة عن زيق ووقفت وراءه كأنما لتشاهد الحفلة . كان موليا الزقاق ظهره ، ولكنها كانت مطمئنة إلى أنه سيعاود البحث والفحص والاستقصاء . وقد فعل ، فتلفت رأسه مرة أخرى وتردد بين النوافذ ، حتى علق بالزيق فأضاءت صفحة وجهه ، ولبت لحظات كالمرتاب ، ثم .. ثم ارتسمت على شفتيه الابتسامة الوقحة ، ورد إليه مظهر التيه والخيلاء بأفزع مما كان وأدركت أنها انزلت إلى خطأ لا يغتفر بظهورها ، وثارت ثائرتها واستولى عليها الحنق والغيط ، ووجدت في ابتسامته تحديا يدعوها للنزال ! وجدت في هاتين العينين ما لم تجد عند أحد من قبل ، وقرأتهما بوضوح على ضوء نفسها الغاضبة المتعطشة للعراك . وبدا الرجل وكأن شيئا لا يمكن أن يقفه عند حد فتحرك مصعدا في الزقاق بقدمين ثابتين حتى خيل إليها أنه قادم إلى البيت . ثم مال إلى قهوة كرشة ، واختار مجلسا ما بين المعلم كرشة وأريكة الشيخ درويش حيث كان يجلس عباس الحلو في الأيام الخوالي

مستطلعا إلى شبحها وراء الخصاص . خطا بجلوسه هذه خطوة جريئة . ولكنها لم تتراجع ، لبثت بموقفها مرسله عينها إلى المسرح وإن كانت لا تكاد تدري بما يدور عليه ، شاعرة ببصره يصوب نحوها من آونة لأخرى في ومضات متقطعة كالكشف الكهربائي ..

ولم يفارق الرجل مكانه حتى انتهت الحفلة وأغلقت النافذة . وما انفكت حميدة تذكر هذه الليلة فيما أعقب ذلك من ليال وعهود ..

ولم ينقطع بعد تلك الليلة عن زقاق المدق ، فكان يجيء عند العصر ويتخذ مجلسه المختار ، ويقطع وقته بتدخين النارجيلة واحتساء الشاي . وقد أحدث ظهوره الطارئ — بوجاهته وأناقته — دهشة في القهوة ، ولكن سرعان ما سحبت العادة عليها ذيول الإهمال ، فليس من الخوارق أن يقصد أفندي مثله قهوة مفتوحة لكل طارق . بيد أنه أتعب المعلم كرشة بما كان يقدم عند الحساب من أوراق نقدية ضخمة لا تقل في كثير من الأحيان عن الجنيه ، كما أنه أسر سنقر بما كان ينفحه من بقشيش لا عهد له من قبل . وراقبت حميدة مجيئه يوما بعد يوم بعين متفتحة ونفس متوثبة . ولكنها أحجمت بادئ الأمر عن خروجها إلى فسحتها اليومية لركة ثيابها وتفاهتها ، حتى ضاقت بالبيت ضيقا شديدا . ثم أغضبها إحجامها وعدته نوعا من الجبن لا يسيغه طبعها الجريء ، وعز عليها أن يقضى مخلوق عليها بالتزام شيء تستكرهه ، فنشبت معركة جديدة في صدرها الذي لا يسترخ من الممارك . وقد رأت الأوراق النقدية التي كان يعتمد تقديمها لسنقر تحت بصرها ، وفطنت بطبيعة الحال إلى دلالتها . وربما كانت هذه لغة ساقطة في غير هذا المكان ، أما في زقاق المدق فهي لغة بليغة لا يخيب لها أثر ، ومع

أن الرجل كان شديد الحرص على ألا يبدو منه ما ينبه أحدا إلى الباعث الحقيقي لغشيانه القهوة ، إلا أنه كان لا يعدم فرصة فيسترق النظر إلى خصائص النافذة ، أو يضع مبسم النارجيلة على فيه زاما شففيه كأنه يقبله ثم يرسل الدخان إلى عل كأنما يرسل القبله في الهواء إلى شبحها الجاثم وراء النافذة . وكانت ترى ذلك باهتمام ، وتساورها أحاسيس متباينة لا تخلو من لذة ولا تخلو من حنق . وقد حدثتها نفسها بأن تنطلق إلى نزهتها ملقية بمخاوفها تحت نعلها ، وأن تتلقاه إذا سولت له نفسه التعرض لها — الأمر الذي لا يداخلها فيه أدنى شك — بما تعهده في نفسها من قحة حقيقة بأن تهزم قحته شر هزيمة ، وأن تسلقه بلسانها سلقا لا ينساه مدى الحياة . وإنه لأعدل جزاء على زهوه الكاذب ، وابتسامته الظافرة ، وتحديه الوقح . تباله ، ما الذي يدعوه لهذا التظاهر بالغلبة والقهر ؟! لا ارتاح لها بال حتى تمرغ أنفه في الرغام ، ولكن آه لو كانت تملك ملاءة حسنة أو شيشيا جديدا ؟!..

وقد اعترض سبيل حياتها وهي تعاني اليأس المرير ، إذ سقط السيد سليم علوان بين حي وميت بعد أن مناها يوما وبعض يوم بالحياة العريضة التي تهيم بها ، وبعد أن نبذت من أحلامها عباس الحلو ولفظته. وعلمت بعد ذلك أنه لم يعد ثمة أمل في ذلك الزواج المأمول ، فردت على رغبها خطيبة للحلو وقد ازدادت له مقتا ونفورا ، وأبت أن تسلم بسوء حظها ، وراحت تتهرأما ، وتهتمها بأنها حبيبتها وطمعت في مال الرجل فخيب الله آمالها . على هذه الحال لاح الرجل الجديد في أفق حياتها . وقد بعث ظهوره في نفسها ثورة عارمة جارفة استشارت كوامن غرائزها جميعا . أغضبها زهوه ، واحنقها تحديه ، وأغررتها وجاهته ، وأيقظتها فحولته وجماله . جذبتها نحوه قوة خفية من غرائزها المطمورة ، ووجدت فيه ما لم تجتمع لنسواه ممن عرفت من الرجال . القوة والمال والعراك !. ولم تكن تدرك مشاعرها بوضوح وجلاء ، أو تدري حاجات نفسها الملتوية ، فتحيرت بين انجذابها إليه ، وبين رغبها المضطربة في الأخذ بتلابيه ، ثم

وجدت في الانطلاق مهرباً من سجنها وحيرتها معا ، وفي فسحة الطريق مجالا تسبر فيه نفسها وغرائزها . في الطريق يجوز أن يتعرض لها ، فتتاح لها فرصة أن تتحداه كما تحداها ، وأن تنفس عن غضبها وحنقها ، وأن تلبى هذا النداء الخفى الذى يهيب بها إلى النزال والعراك .. والانجذاب !

* * *

وفي عصر يوم من تلك الأيام ، أخذت زينتها ، والتحف ملاءتها وغادرت الشقة لا تعباً شيئاً في الوجود . وانتهت إلى الطريق في أقل من دقيقة ، ثم قطعت الزقاق لا تلوى على شيء . وخطر لها خاطر وهي تميل إلى الصناديق ، ألا يحق له أن يظن بخرجتها هذه الظنون ؟ ألا تزعم له نفسه المغرورة أنها غادرت بيتها عمداً لتلقاه في الطريق ! . خصوصاً وأنه لا يدري شيئاً عن نزهتها اليومية المعتادة ، وقد جاء أياماً فلم يرها يوماً تغادر البيت . فسيتبعها على الأثر ، ويتعرض لها في الطريق وقد أبت أن تقيم وزناً لظنونه ، ورحبت بما عسى أن يدفعه إليه الغرور ، وتوثبت للقاءه بنفس تتحرق على التحدى والعراك متوعدة إياه بأن تمنحو عن شفثيه هذه الابتسامة الظافرة السخيفة . وبلغت في سيرها الوئيد السكة الجديدة ، فتخيلته وقد نهض من جلسته بالقهوة وغادرها متعجلاً حتى لا يضلها . ولعله ينحدر الآن بخطواته الواسعة إلى الغورية ، ولعله يفتش عنها بعينه المتفرستين الجسورتين . إنها تكاد تراه بظهرها وهو يهرول بجسمه الطويل . بينما لا تكاد ترى عيناها ما يضطرب به الطريق من أناس وسيارات وعربات . ترى هل أدرك بصره ما خرج في ابتغائه ؟ .. وهل عاودته الابتسامة المتحدية الظافرة ؟ .. قاتله الله من حيوان يجهل ما ينتظره ! . فلتواصل السير دون أن تلتفت إلى الوراء ، حذار من الالتفات ، فالتفاتة واحدة شر من الهزيمة . إنه وقع جرىء ، ولعله لا يفصلهما الآن سوى خطوات . ترى ماذا هو فاعل ! أيقنع بتأثرها كالكلب ؟ أم يسبقها قليلاً ليربها نفسه ؟ أم يحاذيها ويأخذ في مخاطبتها ؟ . وواصلت السير متنبهة قلقة مترقبة متوثبة تتوقع في كل خطوة جديداً

وتفحص عيناها جميع الذين يلحقون بها من المارة ، وتنصت بيقظة للأقدام التي تتحرك وراءها . أرهقها الانتظار والتربص والتوثب ، وكادت تراود إرادتها في التلفت . بيد أنها استعادت عنادها وفضاظتها وسارت لا تلوى على شيء ، فما تدري إلا وصويحباتها من بنات المشغل يقبلن نحوها غير بعيدات .. فخرجت من غيبوبتها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ، ثم سلمت ، ودارت على عقبيها تسير وسطهن ، وهن يسألنها عن سر غيابها أياما على غير عادة واعتلت بالمرض وهي تعاین الطريق لترى موقعه منه . ومضت تنازعهن الحديث والمزاح وعيناها تترددان من طوار لطوار ، ترى في أى مكان ينزوى ؟ لعله يراها من حيث لا تراه ، ومهما يكن من أمر فقد أفلتت من يديها فرصة تأديبه اليوم . كانت ترجو أن يتعرض لها بخيلائه فتزفر عليه غضبها وترعد فرائصه ، ولكنه نجى من مخالبها . ولكن أين يكون ؟ أيمكن أن يكون متأخرا عنهن إلى الوراء ؟ ولم تستطع أن تقاوم رغبته في التلفت هذه المرة . فالتفتت ، وفحصت الطريق بنصر حاد ، ولكنه لم يكن هناك ، لا إلى الوراء ولا إلى الأمام ولا إلى اليمين ولا إلى اليسار ! لعله تأخر قليلا في الإفلات من القهوة فأضلها ، ولعله يتخبط الآن في الطريق لا يدري مكانها ! وسرعان ما فطرت حماسها وخمد نشاطها . وعندما انتهت إلى الدراسة خطر لها أنه ربما بدا لها هنا فجأة كما بدا يوما عباس الحلو وتجدد الأمل ، ونشطت الحماسة فودعت آخر صويحباتها ، وعادت متمهلة تقلب عينيها في جنبات الطريق ، ولكنه كان خاليا أو كان خاليا ممن تبتغى . وقطعت ما تبقى منه بقلب كسير ! .. تنوء بهزيمة نكراء .. وصعدت مع أرض الزقاق ، واتجهت عيناها إلى القهوة ، وأخذ المعلم كرشة يبدو لها شيئا فشيئا ابتداء من طرف عباءته فكتفه الأيسر حتى رأسه المتطامن ، ثم .. رباه ما هذا ؟ .. إنه لم يبرح مكانه ، قابضا على خرطوم نارجيلته ! .. وخفق قلبها بعنف ، وتصاعد الدم إلى وجهها ورأسها ، وهرولت إلى البيت لا تكاد ترى ما بين يديها ، وارتقت السلم ذاهلة من الخجل — ولو أن الخجل ليس من سجاياها — وما كادت الحجرة تحتويها حتى انفجرت براكيها

واستولى عليها غضب جنوني ، فطرحت الملائة على الأرض وارتمت على الكنية .
لمن إذا يجيء القهوة كل مساء ؟ وكيف يسترق إليها النظر بعينه الفاجرتين ؟ ..
ولمن يرسم تلك القبلة الخفية في الهواء ؟ ..! وتناوبت قلبها مشاعر الخيبة والحيرة
والخجل والغضب . ثم انثالت عليها الفكر والخواطر : أيمن ألا يوجد ارتباط
بين مجيئه كل مساء وبين أفكارها ، وأن ليست هذه الأفكار إلا أوهاما وأحلاما
كاذبة ؟ .. أم أنه تعمد أن يهملها اليوم تأديبا لها وتعذيبا فهو يعث بها عبث القوى
بالضعيف ؟ ..! أتنهض إلى القلة وتقذفه بها فتحطم رأسه وتروى غلة الحنق
والانتقام ؟! واستولى عليها شعور ممض بالامتعاض لم تشعر بمثله من قبل ، حتى
لقد تساءلت في حيرة عما أصابها . بيد أنها لم تكن تجهل ما كانت تريد . كانت
تريد بلا شك أن يتبعها وأن يتعرض لها في الطريق .

ثم ماذا ؟ ثم تقذفه بحمم الغضب ، والحنق والوعيد . لماذا ؟ تحديا لثقته
بنفسه وزهوه وابتسامته الواشية بالظفر . كانت ابتسامة الظفر أصل البلاء كله ،
فأدركت مغزاها بعقلها وغريزتها وروحها وجسمها . هي ابتسامة الصراع
والعراك ! وإنها على مساجلتها لقادرة ، لا بل إنها لم تخلق إلا لتلقى هذه الابتسامة
ومثيلاتها فتجيب عليها . كانت تأسى على فوات معركة طالما ترقبها بلهفة
وشغف .. وكانت في أعماقها تتحرق إلى أن تقيس قوتها بقوة هذا الرجل ذى
الفحولة والجاه والخيلاء . هكذا تيقظت في عنف وشدة ، وانبثت في نفسها
روح اللهفة والتمرد والعراك والشوق ..

ولبثت على الكنية فريسة لهاجها الوحشى ، ثم تلفتت إلى النافذة ترمقها
شزرا . وجعلت تنزحزح حتى صارت وراءها ، ثم أرسلت بناظرها من خلال
الخصاص ، ترى ولا ترى ، متلعة بالعممة التى غشيت الحجر . رأتها في جلسته
الهادئة ، يدخن النارجيلة في طمأنينة وسلام ، تلوح في عينيه الثقة بالنفس
والحنق ، كأنه يعيش في عالم وحده منقطع عما حوله ، وقد خلا وجهه من آثار
هذه الابتسامة المثيرة . ها هو هادئ مطمئن بينا هي تشتعل نارا . وتفرست فيه

بقوة وحنق وما تزداد إلا انفعالا وحيرة . وظلت ملازمة مكانها حتى نادتها أمها لتناول العشاء فغادرت الحجرة . وقطعت ليلة مملة مضية ، ونهارا كئيبا ، وانتظرت عصر اليوم الثاني في قلق متواصل . لم يكن يداخلها شك في مجيئه في الأيام الماضية . أما اليوم فباتت تترقب قلقة شاردة النفس . وراحت تراقب ضوء الشمس وهو ينحسر عن أرض الزقاق ويرقى ويثدا جدار القهوة . ومن عجب أن خامرها الخوف من عدم مجيئه ، ولعلها ابتدعت ذلك بغريزة المحارب المشاكس وكيده . وجاء مواعده دون أن يبدو له أثر ، وتصرفت دقائق ، فمن المؤكد أنه لا يحضر اليوم . بيد أن هذا التخلف قد حقق ظنها ، فأدركت أنه تغيب متعمدا . وارتسمت ابتسامة على شفتيها وتهدت من الأعماق ارتياحا . لم يكن من شيء واضح يدعو للارتياح حقا ، ولكن غريزتها أسرت إليها بأنه إذا كان اليوم قد تخلف عن الحضور متعمدا فلا شك أنه بالأمس تعمد بذلك ألا يطاردها ، فليس ثمة إهمال أو عدم مبالاة ، لا بل على العكس من ذلك فإنه يخوض غمار المعركة بمهارة وحنق ، وإنه لصامد في الميدان حتى في هذه الساعة التي لا يرى له أثر فيها . وارتاحت إلى سرار غريزتها ، واطمأنت إليه ، وتوثبت للنضال بعزم جديد . ونابها المكوث في البيت فتلفعت بملاءتها وغادرت البيت دون أن تعنى بزينتها كما اعتنت بها أمس . ولفح الهواء البارد في الطريق وجهها فأنعشها ، وذكرها انتعاشها بما قاست يومها من قلق وفكر ، فغمغت ساخطة « يا لي من مجنونة !.. كيف جشمت نفسي هذا العذاب ؟!.. ألا فليزدرده الموت ! ، واستحشت خطاياها حتى التقت بصويحباتها . ثم عادت معهن . وقد أنذرنها بأنهن سيفقدن قريبا إحداهن التي ستزوج من زنقل صبي دكان طعمية سيدهم . وقالت إحدى الفتيات :

— لقد خطبت قبلها ولكنها ستزوج قبلك ..

وأثارها قولها فقالت بحدة وخيلاء :

— إن خطيبي مشغول بإعداد مستقبل باهر ..

(زقاق المدق)

تباغت بالخلو على رغمها ، ثم ذكرت متحسرة السيد سليم علوان — قتله الله
ككل شيء غير ذى نفع — فتزى قلبها ألما . وتولاها الوجوم بقية الطريق .
شعرت بأن الحياة تعاندها وتكيد لها ، والحياة هي العدو الوحيد الذى لا تدرى
كيف تأخذ بتلابيبه . وسارت فى رفقة الفتيات حتى آخر الدراسة . ثم ودعت
أنحراهن . ودارت على عقبها لتعود من حيث أتت . وعلى بعد أذرع رآته
— رجلها دون غيره — واقفا على الطوار كالمنتظر ! وثبتت بصرها عليه لحظات
تحت تأثير المفاجأة التى دهمتها ، واعتراها شيء من الارتباك عضت عليه أصابع
الندم بعد فوات الفرصة ، ثم واصلت السير فى شبه ذهول . لم تكن مستعدة لهذا
اللقاء ، ولم يعد يداخلها شك فى أنه كان يتأثرها طوال هذا الوقت . وهكذا
يحكم هو التدبير فى هدوء ، ويدهمها فى كل مرة الارتباك والذهول .
وأخذت تنادى قواها المبعثرة وتستعدى وحشيتها ، وقد آلمها أشد الألم أنها لم تجد
زينتها كما ينبغى ، وأحدث لها ذلك غير قليل من القلق . كان الجو متخشعا تحت
سمرة المغيب ، والمكان كالمقفر ، وكان الرجل ينتظر دنوها فى هدوء ، بوجه
وديع لا أثر فيه لنظرة التحدى ولا لابتسامة الظفر ، فلما حاذته خاطبها بصوت
منخفض قائلا :

— من يتحمل مرارة الصبر يبلغ ..

ولم تسمع تنمة عبارته لأنه غمغمها ، فحدجته بنظرة حادة ، ولم تنبس
بكلمة ، وسارت لحال سبيلها ، فسايرها وهو يقول بصوته الهادئ العميق :
— أهلا وسهلا . كدت أجن بالأمس لأنى لم أستطع الجرى وراءك حذر
العيون . وكنت أنتظر مثل تلك الخرجة صابرا يوما بعد يوم ، فلما جاءت
الفرصة دون أن أستطيع انتهازها كدت أجن ..

إنه يطالعها بوجه وديع ، غير الوجه الذى أهاجها ، فلا تجدى ولا ظفر ،
وكلامه أشبه بالشكوى والتوجع والاعتذار ، وهى إنما توثبت لغير هذا فما عسى
أن تصنع الآن ؟ . أتهمل شأنه وتجت خطاها فينتهى كل شيء ؟ تستطيع أن تفعل

هذا لو أرادت . ولكنها لم تجد مشجعا من قلبها ، وكأنها تنتظر هذا اللقاء منذ اليوم الأول بشعور امرأة ليس الحياء من سجاياها .

وكان الرجل من ناحيته يمثل دوره بمهارة ، ويحكك أكدوبة ماكرة ، فلم يكن خوفه الذى أقعده أمس عن تعقبها ، ولكنه استوحى غريزته اليقظة وخبرته الفائقة فأوحى إليه بأن القعود فى حالته خير من العجلة ، كما أوحى إليه اليوم بأن يتلثم بهذا القناع الزائف من الأدب والوداعة . وعاد يقول لها برقة :

— تمهلى قليلا .. عندى ..

فالتفت إليه وقاطعته بحدة :

— كيف سولت لك نفسك أن تخاطبنى ! .. أتعرفنى يا هذا ؟!

فقال بأدبه الزائف :

— كيف لا ؟ .. نحن أصدقاء قدماء .. وقد رأيتك فى الأيام الماضية أكثر مما

رآك الجيران فى أعوام طوال . وفكرت فىك أكثر مما فكر ألصق الناس بك مدى عمره ، فكيف لا أعرفك بعد هذا كله ؟!

تكلم برقة ولكن بلا تلثم ولا تهدج .. وازدادت هى تعلقا بكلامه ورغبة فى مساجلته ، وتولاها شعور بالاستهانة ، هو السلاح الوحيد الذى تستطيع أن تشهره فى وجه عناد الحياة . بيد أنها لم ترد الخروج على « سنة التصنع والتمثيل » ، فقالت بحدة وهى تحرص على ألا يعلو صوتها فيفضح جرسه الخشن :

— لماذا تتبعنى ؟

فابتسم الرجل وقال بدهشة :

— لماذا أتبعك ؟ .. لماذا أهمل أعمالى وألزم القهوة تحت نافذتك ؟ . لماذا أهجر

الدنيا جميعا مقيما بزقاق المدق ؟ .. ولماذا انتظرت هذا الزمان الطويل ؟!

فقطبت وقالت بازدراء :

— لست أسألك حتى تجيبى بهذه السخافات ، ولكنى أنكر عليك أن تتبعنى

وتخاطبنى .

فقال بلهجة جديدة تنم عن الثقة واللباقة :

— الأصل أن نتبع الحسنة أينما سارت . هذه هي القاعدة . فإذا ما سارت ولم يتبعها أحد فهذا هو الشذوذ الموجب للإنكار حقا ، أو بمعنى آخر إذا سرت ولم يتبعك أحد فهذا إيذان بقرب القيامة ..

ومرت عند ذاك بعطفة العوارجة حيث يقيم بعض صويحباتها فتمنت أن يرينها وهذا الأفندي يغازلها ! . ولا ح لها ميدان المسجد غير بعيد فانتهرته قائلة :

— ابتعد .. هذا حى يعرفنى !

وكان يتفحصها بنظر ثاقب ، فأيقن أنها تجاذبه الحديث وهي لا تدري ، أو وهي تدري ، فارتسمت على شفثيه ابتسامة لو رأتها لأعادت إلى رأسها ذكريات وحشية وقال لها :

— لا هذا الحى حيك ، ولا هؤلاء الناس أهلك ! . أنت شىء آخر ، إنك ها هنا غريبة .. !

فأمن قلبها على قوله ، وسرت به سرورا لم تشعر بمثله لقول قبله . واستدرك الرجل قائلا كالساخط :

— كيف تسيرين بملاءتك بين هؤلاء الفتيات ! .. أين هن منك ؟ . أميرة فى ملاءة ورعية ترفل فى الثياب الجديدة ..

فقلت بحدة :

— ما لك أنت ولهذا ! . ابتعد ..

فقال محتجا :

— لن أبتعد أبدا ..

فسأله بحدة :

— ماذا تريد ؟

فقال بجرأة عجيبة :

— أريدك أنت ، ولا شىء غيرك ..

— ذبحة ..

— ساعلك الله . لماذا تغضبين ؟ .. ألسنت في الدنيا لتؤخذى ؟ .. وإنى

لأخذك ..

ومرا في طريقهما ببعض الدكاكين ، فهرته قائلة :

— لا تخط خطوة واحدة ، والا ..

فقال مبتسما :

— الضرب ..

وخفق قلبها ، وتألقت عيناها ، فقالت :

— صدقت .

فقال وهو يتسهم ابتسامة خبيثة :

— سنرى . سأتركك الآن على رغمتي ، ولكنى سأنتظرك كل يوم .. لن

أعود إلى القهوة حتى لا أثير الشبهات في الزقاق ، ولكنى سأنتظر كل يوم ، مع
سلامة الله يا أجمل من حملت الأرض ..

واصلت السير وقد انبسطت أسارير وجهها ولاح فيه البشور والسرور

والغرور « أنت شيء آخر » .. أجل ، وماذا قال أيضا ؟ « إنك ها هنا غريبة » ..

« ألسنت في الدنيا لتؤخذى ؟ .. وإنى لأخذك » .. وماذا قال أيضا ؟ ..

« الضرب .. » .. داخلتها لذة جنونية ، وسرور وحشى ، فقطعت الطريق

لا تكاد ترى شيئا . ولما أوت إلى غرفتها واستردت أنفاسها ، ذكرت في عجب

وزهو أنها استطاعت أن تسير رجلا غريبا وتحادثه بلا حياء ولا ارتباك ! .. وأنها

تستطيع أن تفعل ما تشاء بلا تردد ، وغمرتها موجة عارمة من الاستهانة

والاستهتار حتى أفلتت منها ضحكة عالية . ثم ذكرت ما كانت عقدت العزم عليه

من الأخذ بتلاييه ! .. فاستولى عليها الوجوم لحظة قصيرة ، ثم جعلت تعتذر

لنفسها بأنه لم يلقها بذلك الوجه الصفيق المتحدى ، لا بل راح يحدثها حديثا

رقيقا مؤدبا ، لا عن وداعة طبيعية ، فقلبها يحدثها بأنه نمر يتحين فرصة للوثوب ،

فلتنتظر .. لتنتظر حتى يتكشف عن حقيقته ، وهنالك !؟ ..
وعاودتها لذتها الجنونية وسرورها الوحشى ..

كان الدكتور بوشى بهم بمغادرة شقته حين جاءته خادمة الست سنية عفيفى
تدعوه لمقابلة سيدتها . وعبس وجه الدكتور وتساءل فى إنكار « ماذا تريد
المرأة !؟ .. زيادة إيجار !؟ » ولكنه سرعان ما نفى هذا الظن عن خاطره ، لأن
الست سنية لا تستطيع أن تتحدى القوانين العسكرية التى تحدد أجور المساكن
فى أثناء الحرب . وغادر شقته وارتنقى السلم متجههم الوجه . كان الدكتور
بوشى — كعادة السكان — يستثقل الست سنية عفيفى ، ولا يفتأ يشهر ببخلها
فى كل زمان ومكان . وقد شنع عليها يوما فقال إنها تفكر فى بناء حجرة خشبية
على سطح بيتها لتقيم فيها وتؤجر شقتها . وضاعف حقه عليها أنه لم يقدر — ولو
مرة واحدة — على الإفلات من أداء أجرة شقتها إليها . إذ كانت المرأة تستعين
بالسيد رضوان الحسينى إذا خرج الأمر . فلم يسر الرجل بهذه الدعوة ، ودق
الباب وهو يتعوذ قائلا « لطفك يا دافع البلاء » . وفتحت له الست بنفسها ،
وكانت ملتفة بخمار ، ودعته إلى حجرة الاستقبال ودخل الرجل وجلس .
ولحقت به الخادم بالقهوة فشرب ثم قالت له الست :

— دعوتك يا دكتور لتكشف على أسنانى ..

ولاح الاهتمام فى عينى الرجل ، واستولى عليه السرور لهذه المفاجأة التى لم
يتوقعها قط ، وشعر نحو الست بمودة لأول مرة فى حياته وسألها :

— وهل وجدت ألما لا سمح الله ..

فقالت الست سنية :

— كلا والحمد لله، ولكنى فقدت بعض الضروس والأسنان ونغض البعض الآخر..
وتضاعف سرور الدكتور ، وذكر ما تهامس به أهل الزقاق من أن الست
ستغدو عما قريب عروسا ، فلعب الطمع بقلبه وقال :
— الأوفق أن تركبى طقما جديدا ..
فقالت الست :

— هذا ما فكرت فيه ، ولكن هل يلزم وقت طويل لذلك ؟
فنهض الرجل واقفا واقترب منها وهو يقول :
— افتحى فمك ..

فقمرت المرأة فاها ، وتفحصه الرجل بعينين ضيقتين ، ولم يجد به إلا أسنانا
معدودات ، فدهش ، وأحس ببعض الخيبة ، ولكنه حذر أن يهون من خطورة
عمله ، فقال فى تودة :

— يلزمنا بضعة أيام لاقتلاع هذه الأسنان ، ولكن ربما اضطررنا إلى الانتظار
سنة أشهر قبل تركيب الطقم حتى تجف اللثة وتأخذ راحتها .
ورفعت المرأة حاجبها المزججى فى انزعاج ، وكانت تتوقع أن تزف إلى بعلمها
ن بحر شهرين أو ثلاثة على الأكثر ، وقالت بجزع :
— لا .. لا ، أريد عملا سريعا ، لا يتأخر عن شهر بحال ..

فقال الرجل بمكر وخبث :

— شهر يا ست سنية ؟ .. مستحيل ..؟

فقالت المرأة باستياء :

— إذن مع السلامة !..

فترى الرجل قليلا ثم قال :

— هنالك سبيل واحد إن شئت ..

فأدركت أن الرجل يحاورها بمكر التاجر الخبيث ، وامتألت حنقا عليه ولكنها

دارت حنقها لحاجتها إليه ، وسألته :

— وما هذا السبيل ؟

— إن أركب لك طقما ذهبيا ، فهذا يمكن تركيبه عقب الخلع مباشرة ..
وانقبض قلبها خوفا ، وراحت تفكر في تكاليف الطقم الذهبى . وكادت تنبذ
اقتراح الرجل لولا أن تذكرت العروس المرتقب ، إذ كيف يمكن أن تلقى
عروسها بهذا الفم الخرب ؟ كيف تؤاتىها شجاعتها على الابتسام إليه ؟ وكان من
المعروف لدى أهل الزقاق جميعا أن أسعار الدكتور بوشى هينة ، وأنه يستبضع
طقومه من هنا وهناك بمهارة ويبيعها بأبخس الأثمان ، فلا يسأل من أين يأتى بها ،
وبحسبهم رخصتها . ولكن الطقم الذهبى — على رغم هذه الحقائق جميعا —
شئ له خطره ، فلذلك تخوفت المرأة التى ألقت الحرص ، وسألته بغير احتفال
شأن المستهين باقتراحه :

— وكم يكلفنى الطقم ؟

فقال الدكتور الذى لم يخدع باستخفافها الظاهرى :

— عشرة جنيهات ؟

وانزعجت المرأة التى تجهل الأثمان الحقيقية للطقوم الذهبية ورددت قوله فى
إنكار :

— عشرة جنيهات !

وتميز الرجل غيظا وقال :

— إن ثمنه لا يقل عن خمسين جنيها عند أولئك الأطباء الذين يتاجرون بفنهم
ولكننا وأسفاه قوم سيئو الحظ .

وتجاذبا الثمن الذى اقترحه ، هو يحاول أن يستمسك به ، وهى تروم خفضه
حتى تم الاتفاق على ثمانية جنيهات ، وغادر الدكتور الشقة وهو يلعن فى سره
العجوز المتصاية .

وكانت الست سنية عفيفى ، تلك الأيام ، تلقى الحياة بوجه جديد ، كما
كانت الحياة تطالعها بوجه جديد كذلك . بات الأمل السعيد قاب قوسين أو
أدنى ، وأصبحت الوحدة ضيفا ضعيف الظل يأخذ أهبتة للرحيل ، وأوشكت

البرودة الجاثمة في روحها أن تذوب وتجري ماء دافئا . بيد أن السعادة لا تنهل بغير ثمن . وبغير ثمن فادح أيضا . ولقد عرفت هذا الثمن الفادح في تردها على محال الأثاث بشارع الأزهر ، ومعارض الثياب بالموسكى . ومضت تنفق مما اكتنزت ذاك الدهر الطويل ، بل وتنفق بغير حساب . وكانت أم حميدة لا تكاد تفارقها في حلها وترحالها ، وأثبتت لها بمهارتها الفائقة ، وبما تقدم لها من معونة في كل خطوة تخطوها ، أنها كثر نفيس لا يقدر بثمان ، وإن كان باهظ التكاليف في الوقت نفسه . ولم تقبض عنها يدها معللة نفسها بوشك انتهاء هذه المحنة . على أن الأثاث والثياب لم تكن كل شيء ، ولم يكن بيت العروس الشيء الوحيد الذى يستوجب التجديد ، وإنما كانت العروس نفسها تستوجب الرعاية والعناية والترميم ، وقد قالت يوما لأم حميدة وهى تضحك في غير قليل من الارتباك :
— يا ست أم حميدة .. ألا ترين أن الهموم قد أشعلت الشيب في سوافى ؟!
فقالت أم حميدة التى كانت تعلم أن الهموم بريئة مما ترميها به :
— نداوى الهموم بالصبغة ، وهل توجد ثمة امرأة لا تصبغ شعرها في زماننا هذا ؟

فضحكت المرأة بسرور وقالت :
— بورك فيك يا ست النساء كلهن . ترى ماذا كنت أفعل بحياتى لولاك أنت ؟

وتريثت قليلا ، ثم مسحت على صدرها وقالت :
— رباه هل يرضى هذا الجسد الجاف عروسك الشاب ؟.. ولا أئداء ولا أرداف ولا شيء مما يجذب الرجال !
فقالت أم حميدة :

— لا تستقلي نفسك ، ألم تعلمى بأن النحافة موضة وأية موضة ! ومع ذلك فإن شئت صنعت لك أقراصا عجيبة تسمنك في وقت قصير ..
وهزت لها حميدة وجهها المجدور بفخار واستدركت قائلة :

— لا تخافى شيئا ما دامت أم حميدة معك . أم حميدة مفتاح سحرى تفتح له جميع الأبواب المغلقة ، وغدا تلمسين قدرى فى الحمام إذا حوانا معا !
وهكذا كرت أيام الاستعداد فى نشاط وتعب وسرور وأمل ، وصبغ شعر وتحضير عقاقير . وخلع أسنان مثرمة وتركيب أسنان ذهبية ، وبين يدي ذلك كله نقود تنفق . تغلبت على عادة الحرص . وطرحت معبودها الأصفر عند قدمى الغد المرموق ، وفى سبيل هذا الغد المرتقب زارت الحسين ونذرت له ما تيسر من مال وثريد للفقراء الذين يجهدون بجامعه ، كما نذرت للشعرانى أربعين شمعة .

وقد نال العجب من أم حميدة كل منال وهى تلاحظ هذا التغير الكبير الذى قلب الست سنية رأسا على عقب ، فجعلت تضرب كفا بكف وتقول لنفسها :
— هل يستأهل الرجال كل هذا العناء ١٢ . جلت حكمتك يارب فأنت الذى قضيت على النساء أن يعبدن الرجال !..

استيقظ عم كامل من إغفائه المزمنة على رنين جرس ، ففتح عينيه ، وأنصت قليلا ، ثم اشرأب بعنقه حتى برز رأسه من الدكان ، فرأى حنطورا معروفا يقف أمام الزقاق ، فنهض فى عناء وهو يقول بسرور ودهشة : « رباه ، هل عاد السيد سليم علوان حقا ؟ » . وكان الحوذى قد زایل مقعده وهرع إلى باب العربة ليعين سيده على النزول ، واعتمد السيد على ذراعه ، ثم ظهر جسمه مقوسا ، ووقف أخيرا على الأرض يصلح هندامه . حجبته المرض فى أواسط الشتاء ، وأعادته الشفاء فى أوائل الربيع ، وقد غمرت برودة الشتاء القارصة موجة لطيفة من

الدفء رقصت لها الدنيا طربا . ولكن أى شفاء هذا ؟! لقد عاد السيد رجلا آخر . اختفى الكرش الذى كان يشق الجبة والقفطان وتقرع الوجه المستلئ الدموى فبرزت وجنتاه وغار خداه ولوح الشحوب بشرته ، وخبا نور العينين فقلقت فيهما نظرة شاردة ذابلة تحت جبين عابس . ولم يتبين عم كامل بادئ الأمر ما طرأ على السيد من تغير لضعف بصره حتى إذا اقترب منه ولاحظ ذبوله تولاه الانزعاج ، وانحنى على يده كأنما ليخفى انزعاجه ، وصاح بصوته الرفيع :
— حمدا لله على السلامة يا سى السيد ، ذا يوم أبيض . والله والحسين ما يساوى الزقاق من غيرك قشرة بصلة ..

فقال له السيد سليم وهو يسترد يده :

— بورك فيك يا عم كامل ..

وسار متمهلا متوكئا على عصاه ، يتأثره الحوذى عن كتب ، ويتبعه عم كامل مترنحا كالفيل . والظاهر أن رنين الجرس قد أعلن حضوره ، فسرعان ما ازدحم باب الوكالة بالعمال ، وأقبل من القهوة المعلم كرشة والدكتور بوشى ، وأحاط به الجميع مهللين داعين ، ولكن الحوذى علاصوته وهو يقول :
— أفسحوا للسيد من فضلكم ، دعوة يجلس أولا ثم سلموا ...

وأفسحت له اللمة ، فواصل مسيره عابسا ، وقواده يغلى حنقا وغيظا ، وقد ود لو لم تقع عيناه على وجه من هذه الوجوه . وما كاد يطمئن به مجلسه وراء المكتب حتى أقبل عمال الوكالة يستبقون ، فلم يجد بدا من أن يسلمهم يده يقبلونها واحدا بعد آخر ، وتأذيا من لمس شفاههم ، مخاطبا نفسه : « يا لكم من كذابين مرائين !.. أنتم والله أصل هذا البلاء ! ». وتفرق العمال فجاء المعلم كرشة وشد على يده وهو يقول :

— مرحبا بسيد الحى جميعا .. ألف حمد الله على السلامة ..

فشكره السيد . أما الدكتور بوشى فقد قبل يده وقال له بلهجة خطابية :
— اليوم يحق لنا الفرح ، واليوم تطمئن جنوبنا ، واليوم يتحقق لنا الدعاء ..

فشكره أيضا مداريا تأفقه ، لأنه كان يستكره وجهه الصغير المستدير ، ولما أن خلا المكان تنهد من صدر ضعيف وقال بصوت لا يكاد يسمع : « كلاب .. كلهم كلاب .. عضوني بعيونهم الحاسدة ! » وراح يطارد أشباحهم في مخيلته لينقى صدره مما استثاره من حنق وغيظ وتأثر ، ولم يترك لخلوته طويلا ، فجاءه كامل أفندى إبراهيم وكيله ومثل بين يديه ، وسرعان ما نسي بمجيئه كل شيء إلا الحساب والمراجعة ، وقال له باقتضاب :

— الدفاتر ..

وهم الرجل بالتحرك ولكنه استوقفه فجأة كأنما تذكر أمرا هاما ، وقال له بلهجة آمرة :

— نبه الجميع إلى أني من الآن فصاعدا ، لا أحب رائحة تدخين (كان التدخين قد حرم عليه بأمر الطبيب) ، وخبر إسماعيل بأنني إذا طلبت إليه ماء أن يهني لي قدحا نصفه ماء عادى والنصف الآخر ماء دافئ . التدخين في الوكالة ممنوع منعاً باتا ، والدفاتر بسرعة .

وذهب الوكيل لإبلاغ الأوامر الجديدة ، متذمرا في باطنه لأنه كان من مدمني التدخين . ثم عاد بعد قليل حاملا الدفاتر ، ولم يغب عنه ما ترك المرض في طبع السيد من تغير وتبدل ، فركبه الهم ، وأيقن أنه مقبل على حساب عسير . وجلس كامل أفندى قبالة السيد ، وفتح الدفتر الأول ، وبسطه بين يديه ، فبدأت المراجعة ، كان السيد في عمله محيطا ماهرا لا تفوته فائئة وإن دقت ، فأكب على مراجعة الدفاتر دفترا دفترا بهمة لا تكل ولا تمل ، غير راحم نفسه المتهاكة ، وقد اتصل في أثناء ذلك ببعض عملائه متحققا من مواعيد حضورهم ، مطابقا بين أقوالهم وبين المدون في الدفاتر ، وكامل أفندى صابر متجهم لا يخطر له الاحتجاج على بال . ولم تكن المراجعة بالشيء الوحيد الذي يتابعه بأفكاره ، فكان ينوء صامتا بأمر تحريم التدخين الذي استصبح به على غرة ، وهو أمر لم يحرم عليه التدخين في الوكالة فحسب ، ولكنه أضاع عليه في الوقت نفسه ما كان

يتفضل السيد بتقديمه له من سجائر كوتاريللي الفاخرة . وقد رمق الرجل المكب على الدفاتر بنظرات غريبة ، وقال لنفسه متكدرا ساخطا « رباه . لشد ما تغير الرجل ، هذا شخص غريب لا نعرفه ! » وعجب لشاربه الذي احتفظ به رغم هذا التغير بضحامته وفخامته في وجه طمست سماته ومعالمه وعفى عليها المرض الخطير فكأنه نخلة سامقة في صحراء جرداء .. وأخرجه الحق والاستياء عن طوره فقال مخاطبا نفسه « من يدري ؟ .. لعله يستأهل ما نزل به ، إن الله لا يظلم أحدا » . وانتهى السيد من المراجعة في زهاء ثلاث ساعات ، فرد الدفاتر إلى الوكيل ، وهو يحدجه بنظرة غريبة ، نظرة مراجع لم يعثر على ما يريه ، ومع ذلك فلا يخلو من الريب . وجعل يخاطب نفسه قائلا : « سأعود المراجعة مرة أخرى لا بل مرات ، حتى أكشف عما تبطن هذه الدفاتر ، كلهم كلاب .. بيد أنهم أخذوا عن الكلاب نجاستها ، وزهدوا في أمانتها ! » ثم خاطب الوكيل قائلا :

— لا تنس ما نبهتك إليه يا كامل أفندى : رائحة التدخين والماء الدافئ .

وجاء بعد ذلك بعض العملاء من الخواجات فهناؤه بالسلامة ثم خاضوا فيما لديهم من الأعمال ، وقد أراد بعضهم أن يؤجل عمله تخفيفا عنه ، ولكنه قال باستياء :

— لو كنت عاجزا عن العمل ما جئت الوكالة ..

وما كاد يخلو إلى نفسه حتى استبدت به أفكاره الناقمة الموتورة ، فراح يصب غضبه — كديده في هذه الأيام الأخيرة — على الناس أجمعين . ولطالما قال عنهم إنهم حسدوه ، وإنهم نفسوا عليه الصحة والوكالة والحنطور وصينية الفريك ، فلعنهم من أعماق الفؤاد . وكثيرا ما كان يردد هذه الظنون في أثناء مرضه ، ولم تنج زوجه نفسها من شر ظنونه ، فحدجها يوما بنظرة شرراء ، وهي تجلس إلى جانب فراشه وقال لها بصوت يتهدج ضعفا وسخطا :

— وأنت يا ست لك نصيبك من هذا ، فطالما دوختني بقولك إن أيام الصينية

انتهت ، وكأأنك تنفسين على صحتي ، فالآن كل شيء انتهى فقرى عينا ..

وقد تأثرت المرأة لقوله واستعبرت طويلا ، ولكنه لم يرق لها ، ولم يلب من حديثه واستدرك يقول مغيظا محنقا :

— حسدوني .. حسدوني حتى زوجتي وأم أبنائي قد حسدتنى .. !
ولكن إذا كان زمام الحكمة قد أفلت من يديه ، فقد كان الموت قبل ذلك تخايل لعينه غير بعيد . وإن ينس لا ينسى تلك الساعة المروعة المزلزلة ساعة الأزمة . كان يتهايا للهجوع حين أحس بنغصة تصدع لها صدره . وشعوره بحاجة ماسة إلى تنفس عميق ولكن عجز عن الشهيق والزفير ، وكان كلما عاود المحاولة حزه الألم وقطعه الوجع ، حتى استسلم في قنوط وعذاب مريرين . وجاء الطبيب وتجرع العقاقير ، ولكنه لبث أياما يراوح بين يقظة الحياة وغيوبة الموت . وكان إذا رفع جفنيه المتعبين الثقيلين رأى ببصر زائف زوجته وبناته وأبناءه محدقين به ، محمرة أعينهم من البكاء . وهوى إلى تلك الحالة الغريبة التي يفقد الإنسان فيها كل إرادة على جسده وعقله فيلوح له العالم سحابة دكناء من ذكريات غامضة متقطعة لا تبين ولا تكاد تربط بينها رابطة .

وفي اللحظات القليلة التي استرد فيها شيئا من وعيه يتساءل في رجفة باردة « هل أموت ؟! » أيموت وحوله الأهل جميعا ؟! ولكن الإنسان لا يفارق الدنيا عادة إلا منتزعا من أيدي أحبائه ، فماذا أفاد الأموات تعلق الأحباء بهم ؟! ورغب ساعتئذ أن يدعو الله وأن يتشهد ، فخانه ضعفه ، وتصاعد الدعاء والشهادة حركة باطنية ابتل بها ريقه الجاف . ولم ينسه إيمانه — على رسوخه — أهوال تلك الساعة ، فاستسلم جسمه على رغمه . أما روحه ، فتعلقت بأهداب الحياة في فرع وجزع ، حتى سحت عيناه دمعا مدرارا ونطقت نظرتهمما بالاستصراخ والاستغاثة ، ولكن كان في الأجل بقية ، فجاز طور الخطر ، وبلغ بر النقاها . ورجع إلى أحضان الحياة رويدا رويدا ، ومنى نفسه باسترداد صحته وعافيته وسابق سيرته . ولكن تحذيرات الطبيب ووصاياهم انتصرت أمنيته ، وقضت على أمه ، ولم تبق له من الحياة إلا على شيء يسير . أجل ، أجل ، نجا من

الموت، ولكنه انقلب شخصا جديدا ذا جسم رقيق وروح مريض. وبكروار الأيام استفحل مرض روحه فصار ضجرا وتمردا وكراهية وعبوسا . وقد عجب لهذه العثرة التي اعترضت سبيل حظه ، وتسائل بأى ذنب آخذه الله سبحانه ؟ وكان ذا ضمير من هذه الضمائر الراضية التي تقيم الأعذار لأصحابها وتحسن مسالكهم ، وتغضى عن أخطائهم ، وكان يحب الحياة حبا جما ، فتمتع بماله ومتع به آله ، والتزم — فيما يظن — حدود الله ، فاطمأن بذلك إلى الحياة اطمئنانا عميقا ، حتى انتبه منه على هذه الهزة العنيفة التي ذهبت بصحته ، وأوشكت أن تذهب بعقله . ما ذنبه ؟.. لا ذنب له ، ولكنهم الناس غرماؤه ، وهم الذين أوردوه بحسدهم هذا العطب الأبدى !. وهكذا أمر من نفسه ما كان حلوا ، وارتسم على جبينه عبوس لا يريم . والحق أن ما فقد الرجل من صحته لم يكن سوى شيء يسير بالقياس إلى ما فقد من أعصابه .

وقد تساءل وهو جالس إلى مكتبه في الوكالة : أحقا لم يبق له من الحياة إلا أن يقبع في هذا المكان ويراجع الدفاتر ؟! وتراءى له وجه الحياة أشد تجهما من وجهه . وجهد كالتمثال ، ومضى وقت لا يديره وهو غارق في أفكاره ، حتى سمع حسا عند مدخل الوكالة ، فالتفت نحوه فرأى أم حميدة مقبلة بوجهها المجذور . ولاحت في عينيه نظرة غريبة ، فسلم ، وأنصت بربع انتباه إلى دعاء المرأة وترحيبها ، وقد شغلته الذكريات القديمة عما عداها .

أليس من العجيب أن ينسى حميدة كأنها شيء لم يكن ؟! لقد طافت به ذكراها في نقهه مرات ، ومرت به دون أن تترك أثرا . لم يأسف عليها بمثل ما طمع إليها ، ثم أنسبها بعد ذلك كأنها شيء لم يكن ، أو كأنها كانت نقطة في دم الصحة الذي كان يجري في عروقه ، فلما أن غاب ونضب تطايرت في الهواء . وغابت من عينيه النظرة الغريبة التي رسمتها الذكريات ، وعاد بصره إلى جموده ، فشكر للمرأة حضورها لتهنته ودعاها للجلوس . ووجد مضايقة في حضورها كادت تنقلب كراهية ، وتسائل عما دعاها للمجيء حقا ، أهو التهنة الخالصة

لوجه الله أم الاطمئنان على ما سبق منه من رغبة ؟! . ولكن المرأة لم تكن عند سوء ظنه : لأنها كانت آيست منه منذ أمد بعيد . ومع ذلك قال لها وكأنه يعتذر :
— أردنا .. وأراد الله ..

فأدركت المرأة مقصده وقالت بعجلة :

— لا عليك من هذا يا سى السيد ، وما نسأل الله إلا الصحة والعافية .
وسلمت المرأة مرة أخرى وغادرت الوكالة وقد تركته أسوأ حالا وأشد انقباضا ، وقد حدث عند ذاك أن انزلق شوال حناء من بين يدي عامل ، فاشتد به الغضب ، وانهزمه بقسوة صائحا :

— ستغلق عما قريب الوكالة أبوابها ، فابحثوا عن مرتزق جديد !..
ولبت برهة ينتفض من شدة الغضب والتأثر . وكأن هذا الغضب ذكره بما اقترحه عليه أبنائه أخيرا من تصفية أعماله والخلود للراحة ، فتضاعف غضبه وهياجه . وجعل يقول لنفسه إنها ليست راحته التي يتغنون ، ولكنه المال ، ألم يقترحوا عليه الاقتراح نفسه سابقا وهو في عنفوان قوته ؟!.. فالمال طلبتهم .
لا صمته ولا راحته . ونسى في غضبه أنه — هو نفسه — كبر عليه أن تنحصر آماله في العمل في الوكالة ، وألا يجد لذة في الحياة إلا إرهاب النفس في جمع مال لا يستطيع أن يتمتع به ، ولكنه العناد الذى أولع به أخيرا ، وسوء ظنه بالناس جميعا الذى لم ينج أولاده أنفسهم وزوجه من بعض آثاره .. وقبل أن يفيق من حمى الغضب والهياج سمع صوتا جهيرا يقول فى عمق وحنان معا :
— حمدا لله على السلامة .. السلام عليكم يا أخى ..

فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى السيد رضوان الحسينى مقبلا ، بجسمه الطويل العريض ، ووجهه المشرق المتألق ، فانبسطت أساريره لأول مرة وهم بالوقوف ، ولكن السيد بادره بوضع راحته على منكبه وهو يقول :

— حلفتك بالحسين إلا ما جلست ..

وتصافحا بحرارة . وكان السيد رضوان قد زار قصر الرجل مرات فى أثناء

مرضه . ولما لم يمكنه مقابلته بعث له بتحياته ودعواته . وجلس السيد على مقعد قريب وراحا يتحدثان في رقة ومودة . قال السيد سليم علوان بتأثر شديد :
— نجوت بأعجوبة ... ! .

فقال السيد رضوان بصوت عميق هادئ :

— الحمد لله رب العالمين . نجوت بأعجوبة ، وتعيش بأعجوبة . إن استمرار المرء ثانية واحدة من الزمان يحتاج لمعجزة ضخمة من القدرة الإلهية ، فعمراً أى إنسان فإن سلسلة من المعجزات الإلهية ، وما بالك بأعمار الناس جميعاً ، وحيوات الكائنات جميعاً ؟! . فلنشكر الله بكرة وأصيلاً ، آناء الليل وأطراف النهار ، وما أتفه شكرنا حيال هذه النعم الربانية .
وأصفى إليه فى جمود . ثم تتم قائلاً بضجر :
— المرض شر قبيح .

فابتسم السيد رضوان وقال :

— ربما كان كذلك فى ذاته ، ولكنه من ناحية أخرى امتحان إلهى ، وهو من هذه الناحية خير :

و لم يرتح الرجل لهذه الفلسفة ، وحنق بغتة على قائليها . فضاغ الأثر الطيب الذى أحدثه مجيئه ، ولكنه لم يستسلم لانفعاله على غير عادته أخيراً وقال بلغة وشت بتذمره :

— ماذا فعلت حتى ينزل بى هذا العقاب ؟.. ألا ترى أنى فقدت صحتى إلى الأبد ..

فعبث السيد بلحيته الجميلة ، وقال بشيء من المعاتبة :

— أين يقع علمنا الضحل من هذه الحكمة الباهرة ؟ حقاً إنك رجل طيب ، بار ، كريم ، قوام على الفرائض ، ولكن الله امتحن عبده أيوب وهو نبي ، فلا تأس ولا تحزن ، وأبشر بالإيمان خيراً ..
ولكن الرجل زاد انفعاله ، وقال بحدة :

(زقاق المدق)

— أرأيت إلى المعلم كرشة كيف يحتفظ بصحة البغال ؟

— إنك بمرضك خير منه بصحته وعافيته ..

وغلبه الغضب ، فرمق محدثه بنظرة ملتهبة وقال :

— إنك تحدث في سكينه وطمأنينة ، وتعظ في ورع وتقوى ، ولكنك لم

تذق بعض ما ذقت ، ولم تخسر شيئا مما خسرت .

وتطامن رأس السيد حتى ختم الرجل خطابه ، ثم رفع رأسه وعلى شفثيه

ابتسامته الحلوة ، وحده بنظرة عميقة من عينيه الصافيتين ، وسرعان ما استكن

غضبه وفتر انفعاله ، وكأنه يذكر لأول مرة ، أنه يخاطب أكبر مصاب من عباد

الله . وطرفت عيناه ، وتورد وجهه الشاحب قليلا ، ثم قال بصوت ضعيف :

— اعذرني يا أخى ، إني تعب مرهق ..

فقال السيد ولم تفارق الابتسامة شفثيه :

— لا عليك من هذا . قواك الله وسلمك . اذكر الله كثيرا فبذكر الله تطمئن

القلوب ، ولا تدع الأسى يغلب عليك إيمانك أبدا ، فالسعادة الحققة تترد عنا على

قدر ما نرتد عن إيماننا .

فقبض الرجل على ذقنه بشدة وقال بحق :

— حسدوني . نفسوا على المال والجاه . حسدوني يا سيد رضوان !

— الحسد شر من المرض . وإنه لمن المحزن حقا . إن الذين ينفسون على

إخوانهم حظهم من المتاع الفانى كثيرون . لا تأس ، ولا تحزن ، وسلم إلى الله

ربك الرحيم الغفور ..

وتحادثا طويلا ، ثم ودعه السيد رضوان وانصرف ، ولبت الرجل هنيهة

كالهادئ ، ثم أخذ يعود رويدا رويدا إلى عبوسه وتجهمه ، ونبا به القعود طويلا ،

فنهض قائما ، ومشى متمهلا إلى باب الوكالة ، ووقف عند مدخلها شابكا يديه

وراء ظهره . كانت الشمس تعلو كبد السماء ، والجو دافئا مشرقا . وقد بدا

الزقاق كالمقفر في تلك الساعة من الظهيرة ، اللهم إلا الشيخ درويش الذى جلس

أمام القهوة يتشمس . فلبث السيد مليا ، ثم تلفت — بحكم عادة قديمة — نحو النافذة ، فوجدنا مفتوحة خالية ، وكأنه ضاق بموقفه فرجع إلى مجلسه متجهما عابسا ..

— ٢٣ —

« .. لن أعود إلى القهوة . حتى لا أثير الشبهات .. » ، هذا ما قاله لها عند افتراقهما ، وقد ذكرته حميدة في صباح اليوم التالى لمقابلة الدراسة ، ذكرته بخيال حتى يقظ سعيد . وتساءلت أتذهب للقاءه اليوم ؟ فأجاب قلبها « نعم » دون خفاء . ولكنها قالت بعناد « كلا .. يجب أن يعود إلى القهوة أولا » ، وامتنعت عن الخروج في موعدهما المألوف ، وقبعت وراء النافذة تنتظر ما يكون . وانصرمت ساعة المغرب ، وأطبق الليل ناشرا جناحيه ، وعند ذلك أقبل الرجل من أسفل الزقاق مصوبا عينيه نحو الزيق الذى انفرج عنه خصاص النافذة تلوح فى وجهه ابتسامة تنم عن التسليم ، وجلس على كرسية المختار . وشعرت وهى ترقبه ببهجة الانتصار ، ولذة الانتقام لعذابها يوم أعيائها العثور عليه فى الموسيقى . والتقت عيناهما طويلا — دون أن تغضى أو ترتد عن موقفها — فازداد ظل ابتسامته امتدادا ، ووشى وجهها بابتسامة وهى لا تدري . ماذا يبغي يا ترى ؟ وبدا لها هذا السؤال غريبا ، إذ لا تدري لمثل إلحاحه فى طلبها إلا معنى واحدا ، سعى إليه من قبل عباس الحلو ، وطمح إليه السيد سليم علوان قبل أن يخطمه الدهر ، فلماذا لا يكون غاية هذا الأفندى الوجيه ؟! أو لم يقل لها : « أأست فى الدنيا لتؤخذى ؟ .. وإنى لأخذك .. »؟! فما عسى أن يعنى هذا إن لم يعن الزواج ؟. ولم يعق أحلامها عائق ، لشدة شعورها بقوتها وثقتها بنفسها بل وغرورها الجامع ، وجعلت تنظر إليه من وراء خصاصها المنفرج ، وتلقى نظراته

المستترقة باطمئنان وثبات وبلا تردد . وحادثتها عيناه حديثا عميقا يعبى اللسان والحواس جميعا ، فتردد صدها في أعماق نفسها محركا غرائزها . ولعلها وجدت هذا الشعور العميق الصادق — وهي لا تدري — يوم التقت عيناها أول مرة ، يوم حدجها بنظرته العارمة المتحدية ، وابتسم إليها تلك الابتسامة الظافرة ، فانجذبت إليه كما تنجذب إلى المعترك المستعر ، والحق أنها عرفت قدرا من نفسها على ضوء عينيه ، فلم تعد الضالة في متاهة الحياة ، ولم تعد الحائرة إلى نظرة عباس الحلو الوديعة وثروة السيد علوان الطائلة ، ولكنها شعرت بأن هذا الرجل طلبتها ، وأن ما يستثيره في صدرها .. الانفعال والإعجاب والاستفزاز هو لذتها التي تجذب إليها بفطرتها ، كما تجذب إبرة البوصلة إلى القطب ، وإنه رجل من غير الحثالة التي يستعبد لها الفقر والحاجة كما يشهد بذلك مظهره وأوراقه المالية . وراحت ترنو إليه بعينين متألفتين تذكيان ضياء من وجد وتوثب ، ولم تبرح مكانها حتى غادر القهوة وهو يودعها بابتسامة خفيفة ، فأتبعتة ناظريها وهي تقول وكأنها تتوعده « غدا » .

وفي عصر الغد غادرت البيت بقلب ملؤه الشوق والتحدى والهيام بالحياة . وما كادت تخرج من الصناديق حتى رأتة عن بعد واقفا عند ملتقى الغورية بالسكة الجديدة ، فلاحته في عينيها لمعة خاطفة ، وانبعث في صدرها شعور غامض غريب ، وهو مزيج من السرور والرغبة الوحشية في القتال ! . وقدرت أنه سيتبعها في الذهاب والإياب حتى يخلو لهما الجو في الدراسة . فسازت على مهل دون أن يخالجها شعور بالاضطراب أو الحياء ، واقتربت منه كأنها لا تراه ، ولكن حدث — وهي تمر به — ما لم يقع لها في حساب ، فقد سار معها ومد يده بجرأة لا توصف فقبض على راحتها ، وقال لها بهدوء متجاهلا المارة والواقفين :

— مساء الخير يا عزيزتى ..

أخذت على غرة ، فحاولت أن تسترد يدها ولكنها لم تفلح ، وخافت إن أعادت الكرة أن تستلفت الأنظار . فاستولى عليها الارتباك والغیظ ، ووجدت

نفسها بين اثنتين فأما غضب وفضيحة وجرسه ثم قطيعة ، وإما استسلام تستكرهه لأنه فرض عليها فرضاً مقهراً ، فامتألت حنقا ، وهمست بصوت منخفض متهدج من الغضب :

— كيف تجرؤ على هذا ؟ .. دع يدى بسرعة ..

فأجابها بهدوء وهو يمشى إلى جانبها كأنما صديقان ينطلقان معا :

— حلمك .. حلمك ، لا كلفة بين الأصدقاء ..

فقلت وهى تتميز غبظا :

— الناس .. الطريق ..

فاستعطفها بابتسامة قائلا :

— لا تبالي أناس هذا الطريق ، فهم مجانين المال ، ولا يرون إلا ما فى رءوسهم

من حسابات . هلا ملت إلى دكان صائغ فأنتق منه حلية تليق بحسبك .. ؟

هأشتد غيظها لعدم مبالاته وقالت بوعيد :

— أنتظاهر بأنك لا تعبأ شيئا ؟

فقال بهدوء والابتسامة لا تفارق شفثيه :

— لست أقصد إثارتك ، ولكنى انتظرتك لتتمشى معا ، فقيم غضبك ؟

فقلت بقوة :

— إني أمقت هذا التهجم فاحذر أن تخرجنى عن وعيى .

وطالع نذر الشر فى وجهها فسأها فى رجاء :

— أتعدىننى بأن نسير معا ؟

فهتفت به :

— لا أعد شيئا .. دع يدى ..

فأطلق يدها دون أن يتعد عنها ، وقال لها متملقا :

— يالك من جسارة عنيدة ، هاك يدك ، ولكننا لن نفترق ، أليس كذلك ؟

وتهدت فى غيظ ، ونظرت إليه شزرا وهى تقول :

— يا لك من سمج مغرور !

فتقبل الشتيمة بابتسامة وصمت ، وسارا جنباً لجنب دون أن تبتعد عنه ،
وذكرت كيف تربصت له بالأمس القريب لتمثل به في هذا الطريق ، ولكنها الآن
لا تفكر في هذا وحسبها أنها أجبرته على إطلاق يدها ، بل لعله لو حاول استردادها
مرة أخرى لما منعت ، وهل كانت غادرت بيتها وفي عقلها شيء غير لقائه ؟!
وفضلاً عن هذا كله فقد ساءها أن يبدو أشد طمأنينة وجسارة منها فسارت إلى
جانبه غير عابئة بالسابلة ، متخيلة ما سيحدثه منظره في نفوس فتيات المشغل من
الدهشة المقرونة بالحسد ، وسرعان ما عاود قلبها الشوق والاستهانة والرغبة
الجامحة في الحياة والمغامرة .. وراح الرجل يقول :

— إني أعتذر عما بدر مني من خشونة ، ولكن ما حيلتي في عنادك ؟!
تعمدت تعذيبى ، وما أستحق إلا عطفك جزاء ما أكن لك من عاطفة صادقة وما
أبذل في سبيلك من عناء متصل ..

ما عسى أن تقول له ؟ إنها ترغب أن تخاطبه ، وأن تبادله الحديث ، ولكنها لا
تدرى كيف ، خصوصاً وأن آخر ما نطقت به كان نهراً وشتيمة ، وقطع عليها
تفكيرها أن رأت صويحباتها مقبلات غير بعيدات ، فقالت بارتياح كاذب :
— صاحبائى .. !

ونظر الرجل فيما أمامه فرأى الفتيات وقد ركزن عليه نظرات متفحصة ،
وعادت تقول بلهجة تنم عن التأنيب ، وهى تدارى سرورها :
— فضحتنى .. !

فقال بازدراء ، وإن سره أن تلازم جانبه ، وأن تخاطبه خطاب الرفيق للرفيق :
— لا عليك منهن .. فلا تبالين ..

واقترب الفتيات ، فبادلتهن نظرات ذات معان ، وهى تذكر بعض ما قصصن
عليها من مغامرات ، ثم مررن بهما متضاحكات متهامسات . وعاد الرجل يقول
في خبث ودهاء :

— هؤلاء صاحباتك ؟.. كلا ، لا أنت منهن ولا هن منك ، ولكنى أعجب كيف يتمتعن بحريتهن بينما تقبعين أنت فى البيت . وكيف يرفلن فى الثياب الزاهية بينما تلتحفين أنت فى هذه الملاءة السوداء ! كيف حدث هذا يا مليحة ؟.. أهو الحظ ؟ ولكن يا لك من صابرة متجلدة ..!؟

وتورد وجهها ، وخيل إليها أنها تصغى إلى قلبها يتحدث ، وقبست عيناها جذوة من قلبها المستعر حماسا وعاطفة ، واستدرك بثقة و يقين :
— هذا حسن خليك بالنجوم ..

وابتهلت هذه الفرصة لتبادله الحديث ، فعطفت نحوه رأسها مبتسمة بجرأتها الفطرية ، وتساءلت وهى لا تدري ما يعنيه :
— النجوم ؟!

فابتسم إليها ابتسامة حلوة وقال :
— نعم . ألا تذهبين إلى السينما ؟.. يدعون الحسناوات من المشلات بالنجوم .

وكانت تذهب إلى سينما أولمبيا مع أمها فى فترات متباعدة لمشاهدة بعض الأفلام المصرية ، فأدركت ما يعنيه ، وغمر شعورها سرور راقص لاحت آثاره الوردية فى خديها وساد الصمت خطوات ثم سألها بركة :
— ترى ما اسمك ؟

فقلت بلا تردد :

— حميدة ..

فقال مبتسما :

— أما الذى سحرت لبه ففرج إبراهيم . فى مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يعرف ، وهو يعرف عادة بعد أن يكون الشخصان قد أيقنا أنهما واحد ، أليس كذلك يا ست الملاح ؟

ليتها تتقن الكلام كما تتقن السب والعراك مثلا !. إنه يحسن الحديث ولكنها

عاجزة عن مجاراته ، وقد ضايقها ذلك ، ولم تقنع بالدور السلبي الذى يلذ بنات جنسها ، وتشوقت بفطرتها إلى شىء آخر ، غير الانتظار والسكوت والحياء . ولما كان الإفصاح عن هذا الشعور الغامض غير ميسور ، فقد ساورها قلق وانفعال ، وحدجته بنظرة ثاقبة . وزاد من أسباب انفعالها أن انتهى الطريق ، فشارفا ميدان الملكة فريدة على غير شعور بالوقت ، ولم تر بدا من أن تقول وهى تدفن حسرتها فى أعماقها :

— الآن نعود .

فقال بإنكار :

— نعود !

— هذه نهاية الطريق .

فقال محتججا :

— ولكن الدنيا لا تنتهى بانتهاء الموسيقى . لماذا لا نجول فى الميدان !

فقالت على رغمها :

— لا أريد أن أتأخر عن موعد عودتى أن تقلق أُمى ..

فقال بإغراء :

— إذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة فى دقائق معدودات .

تاكس ! رنت الكلمة فى أذنيها رنينا عجيبا . ولم تكن ركبت فى حياتها إلا العربى الكارو . ومضت ثوانى قبل أن تفيق من سحر الكلمة العجيبة ، بيد أن الأمر لا يخلو من اعتبار آخر وهو ركوب التاكس مع رجل غريب ، إلا أنها وجدت فى هذا الاعتبار داعيا للهجوم لا للنكوص ، وتولاها نزوع طاغ إلى المغامرة ، كأنما لقيت فيه ترويحاً عن ذاك الشعور القلق المكتوم الذى أعيأها الإفصاح عنه قبل ذاك بقليل ، ولم تكن تدري أن بهامثل هذه الطاقة على الاستهتار والمغامرة حتى ليتعذر القول أيهما كان أشد استحوذا على مشاعرها فى تلك اللحظة : الرجل الذى حرك أعماقها أم المغامرة ذاتها ، ولعلهما كانا الاثنين معا .

ولاحت منها نظرة إليه فرأته ينظر إليها بإغراء وعلى شفثيه ظل الابتسامة التي طالما أهاجتها ، فتغير شعورها وقالت :

— لا أريد أن أتأخر ..

فشعر بخيبة وقال متأسفا :

— أتخافين ؟..

فازداد شعورها حدة وقالت بتحد :

— لست أخاف شيئا ..

فأضاء وجهه ، وكأنه عرف أشياء وأشياء ، وقال بسرور :

— سادعو تاكس ..

وكفت عن المعارضة ، وثبتت عيناها على التاكس وهو يقترب من موقفها حتى وقف قبالتها ، وفتح الباب لها ، فانحنت قليلا خافقة الفؤاد وهي تقبض على مساك ملاءتها ، وصعدت إليه . وتبعها الرجل وهو يقول لنفسه بارتياح « وفرنا تعب يومين أو ثلاثة أيام » ثم سمعته وهو يقول للسائق « شارع شريف باشا .. » . شريف باشا ، لا المدق ولا الصنادقية ولا الغورية ولا حتى الموسكى ، شريف باشا !.. ولكن لماذا عين هذا الشارع بالذات ؟!.. وسألته :

— أين تقصد ؟

فقال ، وكان كتفه يمس كتفها :

— نجول قليلا ثم نعود ..

وتحرك التاكس فتناست كل شيء إلى حين ، حتى ذلك الرجل الذى يكاد يلتصق بها . وقلقت عيناها بين الأنوار التي تتخطفها ، فلاح لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة . وانتقلت حركة التاكس إلى جسمها وروحها ، فانبعثت في نفسها نشوة مطربة ، وتهيا لها أنها تطير طيرانا ، وتحلق في سماء الدنيا ، وكان وجدانها من البهجة يسجع شاديا متجاوبا مع انسياب الحركة وتجدد المناظر والأنوار ، حتى تألقت عيناها بوميض مشرق ، واقتر ثغرها عن

إشراق وذهول . وجرى التاكس فى خفة ، يخوض خضما من العربات والسيارات والترام والناس ، وجرى معه خيالها ، فاستحرق حماسها ، وسكرت مشاعرها ، ورقص قلبها ودمها وخواطرها . ثم أفاقت إفاقة مباغتة على صوته يهمس فى أذنها قائلا « انظرى إلى الحسان كيف يرفلن فى ثيابهن النورانية . » أجل .. إنهن يتمايلن مبعثرات كالكواكب المنيرة .. ما أجملهن ، ما أبدعهن ! . وذكرت عند ذاك فحسب ملاءتها وشبشبها فانقبض قلبها ، واستيقظت من نشوتها كما يستيقظ الحالم من حلمه السعيد على لدغة عقرب . وعضت على شفتها فى امتعاض ، ثم تملكها مرة أخرى روح التمرد والثورة والعراك ! . وتنبت إلى أنه التصق بها وهى لا تدرى ، فأخذت تستشعر مسه الذى انتشر فى حواسها ، وحمى به قلبها ، فهفت إليه بقوة فوق إرادتها . ورنأ إليها بلحظ كأنما يستطلع ميولها ، ثم تناول راحتها بلطف وجعلها بين راحتيه ، وتشجع باستسلامها فهوى بفمه إليها . وكأنها أرادت أن تتقيه فألقت برأسها إلى الورااء قليلا ، ولكنه لم يجد فى ذلك رادعا كافيا فطبع شفتيه على شفتيها وسرت فى أعماقها رعدة ، وشعرت برغبة جنونية تدعوها إلى أن تعض شفتيه حتى تدميها ! .. رغبة جنونية حقا ، ركبها كما يركبها عفريت العراك ، ولكنه ارتد عنها قبل أن تنفذها ! ولبشت شعلة الجنون متأججة فى صدرها تهيب بها إلى أن ترمى على صدره وتنشب أظافرها فى رقبتة ، حتى أنقذه منها صوته وهو يقول برقة :

— هذا شارع شريف باشا .. وهذا بيتى على بعد خطوات ، ألا تحبين أن

تريه !؟

والتفت متوترة الأعصاب إلى حيث تومئ سبابته فرأت عمارات تناطح السحاب لم تدر أيتها يعنى . وأمر السائق بالوقوف أمام واحدة منها ، وقال لها : — فى هذه العمارة ..

ورأت عمارة ضخمة سامقة ذات مدخل أوسع من زقاق المدق ، ثم ارتد عنها طرفها فى حيرتها ، ثم سألت بصوت منخفض :

— فى أى طابق .. ؟

فقال مبتسما :

— الأول . لن تتجشمي مشقة إذا تفضلت بزيارتها ..

فرمقته بنظرة حادة متقدمة فاستدرك قائلا :

— ما أسرع غضبك !.. ومع ذلك دعيني أسألك ما وجه العيب في ذلك ؟

ألم أزرك دواما منذ وقعت عليك عيناى فلماذا لا تردين الزيارة ولو مرة واحدة ؟

ماذا يريد الرجل ؟.. أتحدثه نفسه بأنه وقع على صيد سهل ؟..، أطمعته

القبلة التى استسلمت لها فيما هو أجل وأخطر ؟.. هل أعماه غروره وشعوره

بالظفر ؟!.. وهل هذا مآل الحب الذى أفقدها وعيها ؟!.. واشتعل الغضب

بقلبها ، وتوثبت جميع قواها للنضال والتحدى ، وتمنت لو تطاوعها نفسها على

السير معه إلى حيث يريد ، لتريه من نفسها ما يجهل ، ولترد إليه صوابه . أجل ،

دعاها شعورها المتمرد الجاع إلى خوض غمار هذه المعركة . وهل كان في وسعها

أن تدعى إلى النزال ثم تعرض عن الداعى ؟! لم يكن الذى يستفزها غضب

للفضيلة أو الخلق أو الحياء فهذه جميعها اعتبارات لم تألف الغضب لها أو الغيرة

عليها ، ولكنه غضب لكبريائها وشعورها الطاغى بقوتها ورغبتها الجنونية في

الملاحاة والعراك ، ولم تخل أيضا من جنون المغامرة الذى قذف بها إلى التاكس !

وجعل الرجل ينعم إليها النظر وهو يقول لنفسه في تفكير وسخرية معا :

« محبوبتى من النبوع الخطر الذى يفرق باللمس فيستوجب العناء الشديد

والترويض الماهر » ، ثم قال لها برجاء ورقة :

— أرجو أن أقدم لك قدحا من الليمون ..

ورمته بنظرة قاسية متحدية ، ثم غمغمت :

— لك ما تشاء ..

وفتح الباب مسرورا ، وانزلق إلى الطريق ، وتبعته على الأثر باستهانة وجرأة ،

ووقفت تتفحص المكان والرجل يدفع الأجرة للسائق . وجرت خواطرها إلى

الزقاق الذى خرجت منه اليوم ، وعجبت للمغامرات التى اقتحمتها غير هيابة

حتى انتهت إلى هذه العمارة الهائلة !. من يصدق هذا ؟! وما عسى أن يقول

السيد رضوان الحسينى مثلاً لو رآها ترقى إلى هذه العماره ؟ . وارتسمت ابتسامه على شفتيها ، وداخلها شعور غريب بأن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتها على الإطلاق .

وهرع الرجل إليها ، وأخذ يدها ، فدخل العماره معا . وارتقيا سلماً عريضاً إلى أول طابق ، وسار في ردهه طويلة إلى باب شقة على يمين القادم واستخرج من جيبه مفتاحاً عاج به الباب وهو يقول لنفسه بارتياح « اكتسبت يوماً أو يومين آخرين ! » ثم دفع الباب وأوسع لها ، فدخلت ودخل وراءها ، ثم أغلقه . وجدت نفسها في دهليز طويل يعترض الداخل تحديق به الحجرات من الجانبين ، ويضيئه مصباح كهربائي قوى الإشعاع . ولم تكن الشقة خالية ، ففضلاً عن المصباح الذى كان مضاء قبل مجيئها ترامت إلى أذنيها أصوات من وراء الأبواب المغلقة ، كلام وزعق وغناء . واتجه فرج إبراهيم إلى الباب قبالة المدخل ودفعه ، ودعاها للدخول ، فانتقلت إلى حجرة متوسطة ، مؤثثة بمقاعد جلدية ما بين كراسى وكنبات ، تتوسطها سجادة مربعة مزركشة وفي الصدر منها مرآة مصقولة تناطح السقف ، وتنفض على منضدة مستطيلة مذهبة الأرجل ، وقد طالع الرجل نظرة الدهشة الحائرة في عينيها بسرور وقال لها بلطف :

— اخلعى ملاءتك وتفضلى بالجلوس ..

فاقتعدت كرسيًا دون أن تخلع ملاءتها وقد ارتاح جسمها إلى مسنده ومقعده الطريين ، وتمتمت بلهجة تنم عن التحذير :

— ينبغى ألا أتأخر ..

فمضى إلى مائدة أنيقة وسط الحجرة قام عليها « ترموث » وفض سدادته وأفرغ منه في قدحين (شراب الليمون المثلوج) ، وقدم لها قدحاً وهو يقول :

— سيعود بك التاكس فى دقائق ..

وشرباً معاً حتى روى ، ثم أعاد القدحين إلى المائدة ، وفى أثناء ذلك استرقت إليه نظرات فاحصة ، سبرت بها جسمه الفارع الرشيق ، وثبتت عيناها غير قليل

على يده فراعها جمالها وجاذبيتها ، كانت جميلة التكوين ، رشيقة ، سبطة الأنامل ، توحى بالقوة والجمال معا ، فناها منها تأثير عجيب لم تجده لغير نظرتة من قبل . وجعل يطيل النظر إليها مبتسما ابتسامة رقيقة كأنما يطمئنها ويشجعها ، ولكنها لم يداخلها ظل من الخوف وإن توترت أعصابها قليلا من الحذر والتوجس والتوثب ، وذكرت الأصوات التى سمعتها حال دخولها الشقة ، فعجبت كيف أنسيتها ، وسألته :

— ما هذه الضوضاء فى الشقة ؟

فأجابها قائلا وكان لا يزال واقفا قبالها :

— بعض الأهل وسوف تعرفينهم فى الوقت المناسب .. لماذا لم تخلعى ملاءتك ؟.

وكانت ظنته يقيم بمفرده حين دعاها إلى بيته ، فعجبت كيف يقودها إلى بيت مأهول . وتجاهلت سؤاله الأخير ، ولبثت ترنو إليه بسكينة وتحد ، ولم يعاود سؤاله ، ولكنه اقترب منها حتى مس حذاؤه شبشبها ، ومال نحوها قليلا ثم مديده إلى يدها فشد عليها ، وجذبها برقة وهو يقول :

— هلمى نجلس على الكنبه .

ولم تمنع فنهضت قائمة إلى حيث جلسا جنبا لجنب على كنبه كبيرة . وكانت تتقاسمها فى تلك اللحظة مشاعر الميل إلى الرجل الذى تحبه وأحاسيس التحدى للرجل الذى قد تمنيه نفسه بأنه قادر على الضحك على ذقنها . واقترب الرجل منها رويدا حتى لاصقها ، ثم أحاط خاصرتها بذراعه ، وهى مستسلمة ساكنة لا تدري متى يحق لها المقاومة ، ومد يسراه إلى ذقنها فرفع ثغرها إليه وهوى بفمه متمهلا كأنه ظمان يكرع من جدول ، حتى التقت الشفاه . وطال التقاؤهما كأنما أخذتهما سنة من الغرام . وأما هو فكان يستجمع حرارته وقوته فى شفتيه لينفذ بهما إلى ما يريد ، أما هى فكانت تسكرو وتمثل ، إلا أن توثبها أفسد عليها رقية السحر التى تحرق شفتيها فظلت متنبهة متربصة . وأحست يده تسترخى عن

خاصرتها ، وترتفع إلى منكبها ، ثم تهفو الملاءة عنه ، فخفق قوادها بعنف ،
وتصلب عنقها مبتعدا عنه ، وأعادت الملاءة بحركة عصبية إلى موضعها وهي
تقول بجفاء :
— كلا ..

ونظر إليها بدهشة فوجدها تطالعه بنظرة جامدة تنطق بالإباء والعناد
والتحدى ، فابتسم متبالحا وهو يقول لنفسه « هي كما ظننت متعبة ، بل متعبة
جدا » .. ثم خاطبها قائلا بصوت منخفض :

— لا تؤاخذيني يا عزيزتي فقد نسيت نفسي ..

وأدارت وجهها عنه لتخفى ابتسامة ارتسمت على شفيتها سرورا بالظفر ،
ولكن ذلك لم يطل أمدده فقد وقع بصرها اتفاقا على يده فأدركت لأول وهلة
الفارق الكبير بين يده الجميلة ويدها الخشنة ، وتولاها الحياء ثم قالت له باستياء :
— لماذا جئت بي إلى هنا ؟ .. هذا شيء سخيف !

فقال معترضا بحماس :

— هذا أجمل شيء فعلته في حياتي ! .. لماذا تستوحشين من بيتي !. أليس هو
بالتالي بيتك أيضا ؟ !.

ولاحت منه نظرة إلى شعرها وقد انحسرت عنه الملاءة ، فأدنى رأسه ولثمه
قائلا :

— لله ما أجمل شعرك ! .. إنه أجمل شعر رأيته في حياتي .

قال ذلك صادقا رغم رائحة الغاز التي ذابت في أنفه ، فلذها إطرأؤه بيد أنها
سألته :

— إلام تبقى هنا ؟

— حتى يتم التعارف بيننا ، فلدينا بلا ريب أشياء وأشياء ينبغي أن نقولها ،

أخائفة أنت ؟ .. محال ! .. أراك لا تخافين شيئا !

فغلبها السرور حتى اشتهدت أن تقبله ، ورنق الصفاء في صدرها . وكان

يتفرس في وجهها فقال لنفسه « الآن فهمتك يا ابنة اللبوة ! » ثم قال لها بصوت
تنتفض نبراته حرارة :

— لقد اختارك قلبي ، وقلبي لا يكذبني ، ومن يجمعهما الحب لا يفرقهما
شيء ، فأنت لي وأنا لك ..

وأدنى وجهه منها كالمستأذن ، فمالت بعنقها نحوه فالتقيا في قبلة عذيفة ،
واستشعر ضغط شفقتها الساحر على شفتيه يكاد يعصرهما ، فهمس في أذنها :

— محبوبتي .. محبوبتي ..

وزفرت من الأعماق ، ثم اعتدلت في جلستها لتسترد أنفاسها . وراح يقول
برقة بالغة في صوت كالهمس :

— هنا مكانك ، وهذا بيتك ، بل هنا « وأوماً إلى صدره » مأواك ..
فضحكت ضحكة قصيرة وقالت :

— أراك تذكرني بأنه ينبغي أن أعود الآن إلى البيت ..
وكان في الواقع يستلهم خطة مرسومة من قبل ، فقال بإنكار :

— أى بيت تعنين ؟ .. بيت الزقاق ! .. آه ، لبتك تمسكين عن ذكر ذاك الحى
جميعا . ماذا يعجبك في هذا الزقاق ؟ لماذا تعودين إليه ؟ !
فضحكت الفتاة قائلة :

— كيف تسألني عن هذا ؟ ! أليس هو بيتي وأهلي ؟ !
فقال بازدراء :

— لا البيت بيتك ، ولا الأهل أهلك . إنك من طينة أخرى يا محبوبتي ، ومن
الكفر أن يعيش جسم حى نضير فى مقبرة مليئة بالعظام النخرة . ألم ترى إلى
الحسان يرفلن فى الثياب الفاخرة ؟ وإنك لتفوقينهن جمالا وفتنة ، فكيف
لا تخطرین مثلهن فى المطارف والحلى ؟ .. إن الله أرسلنى إليك لأرد إلى جوهرك
النفيس حقه المسلوب . وعلى ذلك أقول إن هذا بيتك وكفى ..
لعبت كلماته بقلبها كما تلعب أنامل العازف بأوتار الكمان ، فخدر

شعورها ، وتقارب جفناها ، ولاحت في عينيها نظرة حاملة . ولكنها تساءلت ماذا يعنى يا ترى ؟.. هذا حقاً ما يهفو إليه قوادها ، فما السبيل إلى تحقيق الأحلام وتقريب المنى ؟.. لماذا لا يفصح عما يريد ويصرح بما ينوى ؟.. إنه يعبر أروع تعبير عن آمالها وأحلامها ورغباتها ، إنه ينطق بلسانها الخفى ويشى بأعماقها جميعاً ، إنه يجلو الغامض الخفى ويجسم المعروف حتى لكأنها تراه رؤية العين ، إلا شيئاً واحداً لم يمسه صراحة ، ولم يقتحم السبيل إليه ، فما حكمة التردد يا ترى ؟! ونظرت إليه بعينيها الجميلتين الجسورتين وسألته :

— ماذا تعنى ..؟

فشعر الرجل بأنه ينتقل إلى مرحلة خطيرة من مراحل خطته المرسومة ، ورماها بنظرة منوم بارع ثم قال بصوت خافت :

— أعنى أن تبقى فى البيت اللائق بك ، وأن تتمتعى بأسعد ما تجود به الحياة ..

وضحكت ضحكة قصيرة من ارتباك وحيرة وتمتعت :

— لا أفهم شيئاً ..

فمسح على مفرق شعرها بحنان ، متعوذا بالصمت ريثما يرتب أفكاره ثم قال :

— لعلك تتساءلين كيف يريدنى على أن أبقى فى بيته ؟!.. فأذنى لى أن أسألك

بدورى لماذا تعودين إلى المدق ؟.. ألتنتظرين هناك شأن الفتيات البائسات حتى

يتعطف رجل من مخلوقات الزقاق فيتزوجك ويلتهم حسنك النضير وشبابك

الغض ثم يتركك لقى فى الزبالة ؟!.. لست أحادث فتاة بلهاء تذهب بها كلمة

فارغة وتجىء بها أخرى ، ولكنى أعلم علم اليقين أنك شابة قليلة الأشباه ،

جمالك فتان ، ومع ذلك فهو مزية واحدة بين مزايا عديدة تكاد تغطى عليه . أنت

الجسارة نفسها ، ومثلك إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ..

وانكفأ لونها ، وجمدت قسماتها ، فقالت بحدة :

— هذا دعابة لا تجوز على !.. بدأت مازحاً ، وانتهيت وكأنك جاد !..

— دعاية؟! لا والله ، لا وحق قدرك عندي . أنا لا أداعب حين الجد
خاصة شخصا مثلك ملأني تقديرا واحتراما وحبا . وإذا صدق حدسي فأنت
قلب كبير يستهين بكل شيء في سبيل سعادته ، ولا يمكن أن تقف في سبيله عقبة .
إني أريد شريكا في حياتي ، وإنك لشريكى دون الناس جميعا ..
فهتفت به في انفعال شديد :

— أى شريك؟! إذا كنت تجد حقا فماذا تريد؟! .. الطريق بين . فإذا
أردت ..

وكادت تقول « أن تتزوجنى » ولكنها أمسكت ، وسددت نحوه نظرات
حادّة مريّة ، فلم يفته مرادها ، واستشعر سخرية باطنة ، ولكنه واصل سيره
حيث لم تعد ثمة فائدة ترجى من التراجع ، فقال بحماس تمثيلي :
— أريد شريكا محبوبا نفتحم معا . حياة النور والثروة والجاه والسعادة ،
لا حياة البيت التعسة والحبل والولادة والقذارة ، حياة النجوم اللاتي حدثتك
عنهن ..

وفتحت فاهها منزعة ، ثم انبعث من عينيها نور مخيف ، واصفرت غضبا
وحنقا ، وغلبها الهياج فصاحت به وقد استقام ظهرها :
— تدعوني للفساد؟! يا لك من مفسد أثيم ..
هكذا هدرت في غضبها وإن كان غضبها للمفاجأة التي دهمتها والخيبة التي
أدركتها أكثر منه للفساد الذي لم تعتد أن تثور له !.
وتبسم الرجل كالهزئ وقال :
— إني رجل ..

ولكنها قاطعته صارخة مدفوعة بطبيعتها الحامى :

— لست رجلا ، بل أنت قواد ..

فضحك ضحكة عالية وقال وما يزال يضحك :

— أليس القواد رجلا أيضا؟! .. بلى .. وهو رجل — وحق جمالك

الفتان — ولا كل الرجال . وهل تجددين عند الرجل العادى غير وجع الدماغ ؟
أما القواد فهو سمسار السعادة فى هذه الدنيا . ولكن لا تنسى أنى محبك كذلك .
لا تدعى الغضب يحطم حينا . إنى أدعوك للسعادة والحب والجاه . ولو كنت فتاة
بلهاء لخادعتك ، ولكنى قدرتك فأثرت معك الصراحة والحق . إن كلينا من
معدن واحد ، خلقنا الله للحب والتعاون ، فإذا اجتمعنا اجتمع لنا الحب والمال
والجاه ، وإذا افترقنا افترقنا للشقاء والفقر والذل ، أو افترق أحدنا — على الأقل —
لذلك ..

ولم تتحول عنه عيناها ، وراحت تتساءل فى ذهول كيف تمخض عن هذا ؟
ولبت صدرها يجيش بالهياج والانفعال ، ومن عجب أنها ثارت به ووجدت عليه
وتغيظت منه ، ولكنها لم تحتقره ، ولم تنفك عن حبه لحظة واحدة . لا بل لم
تنس — حتى فى عنفوان هياجها — أنها تصارع الرجل الذى لقنها الحب وثبته فى
أعماقها . وأرهقها الانفعال فنهضت قائمة فى حركة عنيفة وقالت فى سخط
وغیظ :

— لست كما تظن ..

فتنهذ بصوت مسموع متكلفا الحزن ، وإن لم تخنه ثقته شأن رجال الأعمال ،
وقال بصوت أسف :

— لا أكاد أصدق أنى انخدعت بك . رباه ! أتصبحين يوما من عرائس
المدق ؟ حبل وولادة ، وحبل وولادة ، إرضاع أطفال على الأرصفة ، ذباب
وبصارة وفول ، ذبول وترهل ؟ .. كلا ، كلا .. لا أريد أن أصدق هذا ..
فصاحت به غير متألكة نفسها :

— كفى ..

وانطلقت نحو الباب فنهض مسرعا ، ولحق بها وهو يقول بركة « رويدك » ،
ولكنه لم يعترضها ففتح لها الباب ، وخرج معا . جاءت سعيدة غير هيابة ،
وذهبت مهیضة ذاهلة . ووقفا أمام الباب الخارجى حتى جاءهما غلام بتاكس

ودخله كل من باب ، ومضى بهما مسرعا . ابتلعتها أفكارها فغابت عن الدنيا ، وجعل يسترق إليها النظر صامتا . دون أن يجد حكمة في خرق الصمت المخيم . وانطوى الطريق على هذا الحال حتى بلغ التاكس منتصف الموسيقى ، فأمر السائق بالوقوف ، وتنبت على صوته فألقت بيصرها إلى الخارج ثم ترحلت قليلا استعدادا للنزول ، فوضع يده على أكرة الباب ليفتحه لها ، ولكنه تريت قليلا ، ثم مال نحوها فلثم منكبيها وهو يقول :

— سأنتظرك غدا ..

فابتعدت عن الباب وهي تقول باقتضاب وحدة :

— كلا ..

فقال ويده تدير الأكرة :

— سأنتظرك يا محبوبتي .. وستعودين إلى ..

ثم قال لها وهي تغادر التاكس .

— لا تنسى الغد ، سنبدا حياة جديدة رائعة .. أحبك .. أحبك أكثر من الحياة نفسها ..

وراح يرقبها وهي تبتعد متعجلة ، وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة ساخرة وقال لنفسه « مليحة بلا أدنى شك ، وهيأت أن يكذبني ظني ، فهي موهوبة بالفطرة .. هي عاهرة بالسليقة ... وسوف تكون نادرة المثال .. ».

سألها أمها :

— لماذا تأخرت .. ؟

فأجابتها بلا مبالاة :

— دعتنى زينب إلى بيتها فذهبت معها .

فبشرتها المرأة بأنهما سيشهدان عرس الست سنية عفيفى عما قريب ،
وأخبرتها أن الست ستهدى إليها فستانا لحضور الزفاف ، فتظاهرت حميدة
بالسرور ، وجلست تصغى إلى ثرثرة أمها ساعة طويلة ، ثم تناولتا عشاءهما وأوتا
إلى حجرة النوم ، وكانت حميدة تنام على كنبه قديمة ، أما أمها فتفرش حشية على
أرض الغرفة تستلقى عليها . ولم تكد تمضى دقائق حتى راحت الأم فى نوم
عميق ، وملأت الحجرة شخيرا . ولبثت حميدة محمقة فى النافذة المغلقة وقد
نضح خصاصها بنور القهوة المتصاعد . استحضرت ذاكرتها حوادث يومها
العجيب فلم يفتها منه حركة أو سكون أو كلمة ، وعاش فى خيالها مرة أخرى ،
وذكرت ما وقع فيه من مغامرات جريئة لا يكاد يصدقها العقل ، فشعرت على
رغم قلقها الراهن بسرور غير خاف ، سرور الزهو والفخار والجنون الكامن فى
غرائزها . ولم تنس مع ذلك أنها قالت عن ذلك الرجل وهى راجعة إلى زقاقها
« ياليتنى لم أره ! » . ولكنه كان قول لسان لم يجد له صدى فى قلبها . والحق أنها
عرفت من نفسها فى ذلك اليوم ما لم تستطع معرفته مدى عمرها . وكأن هذا
الرجل قد اعترض سبيلها ليجلو ما خفى من ذاتها ويبسطه لناظرها كمرآة
مصقولة . بيد أنها قالت له « كلا » وهى تفارقه ، وربما لم يكن لها عن هذا القول
مذهب ، ولكن ما معناه على وجه التحقيق ؟! أليس معناه أن تقبع فى بيتها مترقبة
عودة عباس الحلو ؟! . رباه ، لم يعد للحلو مكان فى نفسها . انحى أثره ، وتبدد
رجع صده . وليس الحلو فى الواقع إلا هذا الزواج التعس ، وما يعقبه من حبل
وولادة وإرضاع على الأرصفة وذباب ، إلى آخر هذه الصورة البشعة الممقوتة .
أجل . لم يكن لعاطفة الأمومة نبع يتفجر فى نفسها شأن الفتيات من أترابها ، ولم
تكن نسوة الزقاق بمتجنيات عليها فيما رمينها من قسوة وشذوذ . فماذا تبتغى
إذا ؟! . وخفق قلبها خفقانا متابعا فعضت على شفتيها حتى كادت تدميها . إنها
لتعلم ما تبتغى ، وبما تهفو إليه نفسها ، كان يجرى قبل اليوم فى شعورها متقلقا
بين النور والظلمة ، ولكنه شق اليوم غشاوة الغموض وأسفر جليا لا لبس فيه

ولا إبهام . ومن عجب أنها لم تعان — في سهادها — ترددا خطيرا فيما ينبغي أن تختار من سبيل ، ولم تشعر كثيرا بوطأة التجاذب بين ماضيها وحاضرها ، أو بين ما في حياتها من خير وما يتصدى لها من شر ، بل الحق أنها اختارت سبيلها بالفعل وهي لا تدري ، ووقع اختيارها عليه وهي بين يدي ذلك الرجل ، في بيته ! ، كان لسانها يهدر غضبا وأعماقها ترقص طربا ، كان وجهها يربد ويعبس وأحلامها تتنفس وتمرح !.. وفوق هذا كله فإنها لم تمقته لحظة واحدة ، لا بل لم تحتقره قط وكان — كما لم يزل — حياتها ومجدها وقوتها وسعادتها !. لم يثر حنقها إلا إدلاله بثقته وهو يقول لها « ستعودين إلى » !.

أجل . ستعود ، ولكنه ينبغي أن يؤدي ثمن هذه الثقة الوقحة غاليا . فليس حبها عبادة وخضوعا ، ولكنه معركة يحترم أوارها ويتطير شررها . طالما اختنقت في هذا البيت ، وهذا الزقاق ، وهيات أن يعتاقها عائق بعد اليوم عن الانطلاق إلى النور والجاه والسلطان ، وهل من سبيل إلى الإفلات من ربة الماضي إلا عن يد هذا الرجل الذي أوقد في خيالها نارا؟ ولكنها لن تهرع إليه في خشوع وإذعان هاتفة « إني عبد يدك فافعل بي ما تشاء » لأنها لا تعرف هذا الحب . كذلك لن تنطلق إليه كالرصاصة صارخة « إني سيدتك فتخضع بين يدي » . فما أزهدها في الحب الناعم أو الحبيب الخرع . ولكنها ستذهب إليه وقلبا مشحون بالآمال والرغبات ، ولسان حالها يقول : « إني قادمة بقوتي فلاقتي بقوتك ، ولتتناطح إلى الأبد في سعادة تجل عن الوصف ، ثم متعني بما منيتني به من جاه وسعادة . لقد وضج السبيل بفضله هو ، وهيات أن تفرط فيه ولو اشترته بحياتها .

ومع ذلك فلم تخل ليلتها من أفكار تغصت عليها عزمها بعض التنغيص . تساءلت « ترى ماذا يقولون عني غدا؟ » وجاءها الجواب في كلمة واحدة : عاهرة !. وتقبض قلبها حتى جف ريقها وذكرت كيف تلاحت مرة مع واحدة من صويحباتها بنات المشغل فسبتها صارخة « يا ربيبة الشوارع .. يا عاهرة ! » ..

معيرة إياها بالعمل كالرجال والتسكع في الشوارع . فما عسى أن يقال عنها هي ١٢.. وداخلها الحزن والأسى ، فتململت في رقادها جزعا وضيقا . ولكن شيئا في الوجود لم يكن ليثنيها عما اعتزمت ، أو يلوى بها عما اختارت ، فقد اعتزمت بقوة أعماقها ، واختارت بمجامع قلبها ، فكانت تنحدر إلى مصيرها المحتوم لا يعوقها من وازع إلا ما يعوق المنحدر إلى الهاوية من دقاق الحصا .

ثم انتقل تيار أفكارها فجأة إلى أمها ، فالتفت نحوها وقد ملأ أذنيها شخيرها الذي كان غاب عنها ساعة طويلة ، فتصورتها في غدها وقد طال انتظارها لها حتى أشرفت على اليأس . وذكرت كيف أحببتها المرأة حبا صادقا لم يترك في قلبها إحساسا — وإن قل — بالحرمان من الأمومة ، وكيف أحببتها هي أيضا على كثرة ما شجر بينهما من نزاع وشقاق ، وكأنما خافت أحاسيس العطف التي أخذت تدب في نفسها فزفرت بقوة وضجر وقالت لنفسها : « لا أب لي ولا أم ، وليس لي في الدنيا سواه » ، وولت الماضي كشحها ، ولم تعد تفكر إلا في الغد وما عسى أن يتكشف عنه ثم أمضتها السهاد ، وشعرت بحرارته تصهر جفونها ودماغها ، فتمنت أن ينقذها النوم من عذابه وأن تغمض عينيها فلا تفتحهما إلا على نور الصباح . وأهابت بإرادتها أن تنش عن رأسها ما ينثال عليه من خواطر ، فنجحت في طردها إلى حين ، ولكنها تنبهت إلى الأصوات المتصاعدة من قهوة كرشة ، ووقعت من نفسها موقعا مثيرا فراحت تلعنها وتتهمها بتطير النوم من عينيها . وجعلت تنصت إليها على رغمها ، وتسبب محدثها في حنق وغضب .

« يا سنقر غير ماء النرجيلة ».. هذا صوت الفاجر الحشاش كرشة . « يا سيدى ربك يعدلها » وهذا عم كامل الحيوان الأعجم . « ولو .. كل شيء له أصل ».. هذا الأعمش القدر الدكتور بوشى . وتمثل لها حبيبها — على غرة — بمجلسه المختار ما بين المعلم كرشة والشيخ درويش ، وتخيّلته وهو يشير إليها بقبلاّته فخفق قوادها ، ثم استحضرت ذاكرتها صورة العمارة الهائلة ، والحجرة الرائعة ، وسرعان ما طن صوته في أذنيها وهو يهمس قائلا : « ستعودين إلى .. » . رباه !

متى يرحمها النوم ؟ ، « السلام عليكم يا إخوان » .. هذا صوت السيد رضوان الحسينى الذى أشار على أمها برفض يد السيد علوان قبل أن يهتصره المرض ، ترى ماذا يقول عنها غدا إذا تناهى إليه الخبر ؟ . ليقل ما يشاء ، لعنة الله على الحى جميعا ! . وانقلب الأرق صداعا وسقما ، ومضت تتقلب على جنبها وبطنها وظهرها ، ومضى الليل بطيئا ثقيلا مرهقا مضنيا . يزيده هولا خطورة الغد المرتقب . وقيل الفجر بقليل غشيها نوم ثقيل استيقظت منه عند الضحى . وبادرها الصحو بأفكارها جملة كأنما سبقتها إلى اليقظة بوقت طويل ، ولكن لم يساورها التردد وتساءلت فى جزع . متى يأتى المغيب ! . وقالت لنفسها إنها الآن زائرة عابرة فى المدق لا هي منه ولا هو منها كما قال الحبيب . ونهضت كعادتها ففتحت النافذة ، وطوت حشية أمها وكومتها فى ركن الحجرة ، ثم كنست الشقة ، ومسحت الردهة الخارجية ، وتناولت فطورها على انفراد لأن أمها كانت قد غادرت البيت إلى شئونها التى لا تنتهى ، ثم مضت إلى المطبخ فوجدت عدسا فى طبق تركته أمها لتطبخه غدا ليومهما ، فعكفت على تنقيته وغسله ، وأوقدت الكانون وخاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة « هذه آخر طبخة فى هذا البيت ، وربما كانت آخر طبخة فى حياتى .. ترى متى أكل العدس مرة أخرى ؟ ! » . ولم تكن تستكره العدس ولكنها كانت تعلم أنه غذاء الفقراء وشعار مائدتهم ، كذلك لم تكن تعلم شيئا عن طعام الأغنياء إلا أنه لحم ولحم ولحم . وأنشأ خيالها ينعم بتصور غذاء المستقبل وكسائه وزينته حتى انبسطت أساريرها وقطر وجهها بشاشة حالمة . وغادرت المطبخ عند الظهر فدخلت الحمام تستحم ، ثم مشطت شعرها بأناة وعناية وجدلته ضفيرة غليظة طويلة أرسلتها وراء ظهرها حتى مست أهدابها أسفل فخذها . وارتدت خير ما لديها من ثياب ، ولكنها استاءت من مظهر ملابسها الداخلية البالى ، فتورد وجهها البرنزى وعجبت كيف تزف إليه فى مثل هذه الثياب ، واربد وجهها وهاج صدرها ، فصممت على ألا تسلم إليه حتى تستبدل بهذه الثياب الرقيقة أخرى

جديدة زاهية . وطاب لها هذا الرأى ، وصادف من نفسها — التى تأبى الهوى إلا فى حومة العراك والعناد — هوى ولذة . ثم وقفت فى النافذة تلقى على حمى نظرات الوداع . وجعل بصرها يتردد بين معامله بغير توقف : الفرن ، قهوة كرشة ، دكان عم كامل ، دكان الحلاق ، الوكالة ، بيت السيد الحسينى ، والذكريات تبعثها النظرات كأنها الشعلات يبعثها حك أعواد الثقاب .

ومن عجب أنها وقفت حيال ذلك كله جامدة باردة لا يندى صدرها بعطف أو مودة لا للزقاق ولا لأهله . وكانت أسباب الجوار والصدقة مقطوعة ما بينها وبين غالبية نسوة الحى كأم حسين — أمها بالرضاعة — والفرانة ، حتى امرأة السيد رضوان الحسينى لم تسلم من لسانها ، فقد بلغها يوما أنها وصفتها ببذاءة اللسان ، فتربصت بها حتى رأتها يوما على سطح بيتها تنشر الغسيل فصعدت إلى السطح وثبا — وكان السطحان متلاصقين — واقتربت من السور وجعلت تعرض للمرأة قائلة بتهكم وازدراء « أسفى عليك يا حميدة من فتاة بذيئة اللسان ، غير جديرة بمعاشرة الهوانم من ستات المدق بنات الباشوات ! » ولكن المرأة آثرت السلامة ، وتعوذت بالصمت . وقد ثبتت عيناها غير قليل على الوكالة فذكرت كيف طلب السيد سليم علوان يدها ، وكيف ثملت بأحلام الثراء يوما وبعض يوم !.. لكم احترقت حسرة على ضياع هذا الرجل من يديها ! ولكن شتان بين رجل ورجل !.. فإذا كان سليم علوان قد حرك — بثروته — جانبا من قلبها ، فهذا الذى حرك قلبها كله حتى كاد يقتلعه . وعادت عيناها إلى دكان الحلاق فذكرت عباس الحلو ، وتساءلت ترى ماذا يفعل إذا رجع يوما من مهجره فلم يعثر لها أثر ؟! وذكرت وداعه الأخير على السلم بقلب متحجر وعجبت كيف منحته شفتيها يقبلهما ؟! ثم ولت النافذة ظهرها ومضت إلى الكنية أشد ما تكون عزما وتصميما . ورجعت أمها إلى البيت ظهرا ، فتناولتا غداءهما معا . وقالت لها المرأة فى أثناء الطعام : « لدى زيجة مهمة ، إذا وفقت فيها ، فتح الله علينا » فاستفسرت عن هذه الزيجة المرجوة بفتور ، ولم تكد تلقى لما قالت بالا ،

وكثيرا ما كانت تقول مثل ذلك ثم يتمخض الرجاء عن بضع جنبيات وأكلة لحم !، أو أكلة لحم فحسب بالنسبة لها . ولما أن اضطجعت أمها لتنام قليلا ، تربعت هي على الكنبه وراحت تطيل إليها النظر . هذا يوم الوداع ، وربما لن تقع عليها عيناها بعد الآن . ولأول مرة عراها الضعف فدرت حناياها عطفًا للمرأة التي آوتها وتبنتها وأحببتها ولم تعرف سواها أما ، وتمنت لو تستطيع أن تقبلها قبله الوداع .

وجاءت ساعة الأصيل فتلفت بملاءتها وانتعلت شبشبها . وكانت يداها ترتعشان انفعالا واضطرابا ، وقلبها يخفق بشدة . ولم يكن بد من أن تفارق أمها بغير وداع ، فامتعضت ، ثم رأتها آمنة لا تدري شيئا عما يجنبه لها الغد فازداد امتعاضها . وحم الرحيل فألقت عليها نظرة طويلة ثم قالت وهي تهم بالمسير :
— فتك بعافية ..

فقالت لها المرأة وهي تشعل سيجارة :

— مع السلامة .. لا تتأخرى ..

وغادرت البيت تلوح في وجهها أمارات الجذ والاهتمام ، وقطعت المدق لآخر مرة لا تلوى على شيء ، وسارت من الصناديق إلى الغورية ، ثم انعطفت صوب السكة الجديدة وتقدمت في خطوات متمهلة . وأرسلت بصرها بعد تردد وإشفاق .. فرأته بموقف الأمس ينتظر !.. التهب خذاها واجتاحها موجة صاخبة من التمرد والغضب وودت من أعماقها أن تثار من ظفره هذا ثأرا يرد عليها بعض سكينتها . وغضت بصرها ، ثم تساءلت أتراه يتسم الآن تلك الابتسامة الوقحة ؟!.. ورفعت عينيها بنرفزة ، ولكنها وجدته هادئا جادا رزينا يلوح في عينيه اللوزيتين الرجاء والاهتمام فانفثا هياجها قليلا . ومرت به وهي تتوقع أن يخاطبها ، أو أن يأخذ يدها كما فعل بالأمس ، ولكنه تجاهلها ، وتريث قليلا حتى غيبها المنعطف ، ثم تبعها متمهلا ، فأدركت أنه بات أشد حذرا ، وأعظم شعورا بخطورة الأمر . وسارت حتى أوشكت السكة الجديدة أن تنتهى ، ثم توقفت بغتة

كأنما ذكرت شيئاً جديداً ، وانفتلت راجعة ، فتبعها قلقاً وهمس لها متسائلاً :
— ماذا أرجعك ؟

فترددت قليلاً ثم قالت وقد سامها النطق عناء :

— بنات المشغل ..

فقال بارتياح :

— إلى الأزهر ، فلا يرانا أحد ..

وشقاً طريقهما متباعدين ، وسارا في شارع الأزهر في صمت ثقيل ، وقد أدركت أنها أعلنت — بالكلمة التي نطقت بها — تسليمها النهائي . وبلغا ميدان الملكة فريدة دون أن يخرجاً من صمتهما الثقيل . ولم تعد تدري أين تتجه فوقفت ، وسمعت في اللحظة التالية ينادى التاكس ، وجاءت السيارة ففتح لها الباب ، ورفعت قدمها لتصعد إليها ، ففصلت هذه الحركة بين حياتين . وما كادت السيارة تنطلق بها حتى قال بصوت متهدج وبمهارة فائقة :

— الله وحده يعلم كم تعذبت يا حميدة ! .. لم أنم من ليلتي ساعة واحدة . أنت لا تدريين يا عزيزتي ما الحب . ولكنى اليوم سعيد ، بل أكاد أجن من الفرح . رباه كيف أصدق عيني ؟! شكراً يا محبوبتي شكراً . والله لأجعلن من السعادة أنهرًا تجري تحت قدميك .. ما أجمل الماس حول هذا الجيد (ومس جيدها برقة) .. ما أروع الذهب في هذا الساعد (وقبل ساعدها) .. ما أفتن الروج في هاتين الشفتين (وهوى برأسه ليقبل ثغرها ولكنها تحامته فلم يخذها) .. يا لك من فاتنة نافرة ! ..

واستراح قليلاً ثم استدرك قائلاً وعلى شفتيه ابتسامة :

— ودعى الآن عهد التعب ، فلن تطالعك الحياة بكدر بعد اليوم ! .. حتى

ثدياك سيحملهما عنك رافع من الحرير .. !

ورضيت بالاستماع لهذا الكلام دون تنمر أو احتداد ، وإن توردت وجنتاها ،

واستسلم جسمها للسيارة المندفعة التي تهرب بها من الماضي كله .

وانتهى التاكس إلى العمارة التي صارت مأواها ، فغادراه ، ومضيا مسرعين إلى الشقة ، وكانت كما وجدتها بالأمس ضاحجة بالأصوات المنبعثة من الأبواب ، ثم دخلا الحجرة الرائعة . وقال ضاحكا :

— انخلي الملاءة لنحرقها معا .

فغمغمت تقول وقد تورد وجهها :

— لم أحضر ملابسى ..

فصاح بسرور :

— حسنا فعلت .. لا نريد شيئا من الماضي .

وأجلسها على مقعد وراح يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، ثم اتجه نحو باب أنيق إلى يمين المرأة العالية ، ودفعه عن مخدع وثير وهو يقول :

— حجرتنا ..

ولكنها قالت بسرعة وحدة :

— كلا .. كلا .. سأنام هنا ..

فحدجها بنظرة ثاقبة ، ثم قال بلهجة تنم عن التسليم :

— بل تنامين في الداخل وأنام أنا هنا ..

وكانت تصمم في نفسها على ألا تؤخذ كالماشية ، وألا تسلم حتى تشبع رغبتها في العناد والإباء ، والظاهر أن رغبتها هذه لم تغب عن مكره ، لأنه دأري ابتسامة ساخرة ، وتظاهر بالإذعان والتسليم ، ثم قال لها بسرور وفخار :

— بالأمس يا عزيزتى دعوتنى بالقواد، فاسمحي لى بأن أقدم لك نفسى على

حقيقتها : محبك ناظر مدرسة ، وستعلمين كل شىء فى جينه ..

قال حسين كرشة لنفسه وهو يقترب من زقاق المدق : « هذا وقت اجتماعهم في القهوة ، وسيروني جميعا بلا أدنى شك ، وسيخبرون أبي بمقدمي إذا عمى هو عنه » . كان الليل قد أرخى سدوله ، فأغلقت دكاكين المدق . وخيم عليها السكون ، وضجت قهوة كرشة وحدها بالسمار . كان الفتى يسير بخطوات ثقيلة ، منقبض الصدر ، متجههم الوجه ، يتبعه على الأثر فتى في مثل سنه وفتاة في مقتبل العمر . وكان حسين يرتدى قميصا وبنطلونا ، ويحمل في يمينه حقيبة كبيرة ، وكذلك كان الفتى الذي يتبعه ، أما الفتاة فرفلت في فستان أنيق — بلا معطف ولا ملاءة — وقد بدت في مشيتها ذات وسامة ورشاقة وإن لم تخل من ابتذال يشى بطبقتهما . واتجه حسين صوب بيت السيد رضوان الحسيني دون أن يلتفت ناحية القهوة ، ودخل البيت يتبعه رفيقاه . ثم رقاوا السلالم حتى الطابق الثالث ، ودق الفتى باب الشقة وقد ازداد وجهه تجمها ، فسمع وقع أقدام تقترب ، ثم فتح الباب وبدت أمه وراءه تقول بصوتها الخشن « من ؟ » ، ولم تعرف الشبح المائل أمامها لشدة الظلمة . فقال حسين بصوت منخفض :

— حسين !

وهتفت المرأة وهي لا تكاد تصدق أذنيها :

— حسين !.. ابني !!

وهرعت إليه ، وأمسكت بذراعيه ، وقبلته ، وهي تقول بحرارة :

— عدت يا بني !.. الحمد لله الذي أثابك إلى رشدك وحماك من وسوسة

الشیطان ، ادخل بيتك (وضحكت في انفعال) . ادخل يا غادر .. لكم

أقضضت مضطجعي . وقطعت قلبي ..

ودخل الشاب مستسلما ليديها ، دون أن يخف تجهمه ، وكأن استقبالها الحار لم يكد يجدى شيئا فى تفرج كربه ، ولما أن همت برد الباب حال بينها وبينه قائلا وهو يوسع للفتاة وللفتى :

— معى أناس . ادخلى يا سيدة ، ادخل يا عبده . هذه زوجى يا أمى ، وهذا شقيقها ..

وبهت المرأة ، ولاحت فى عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج ، وراحت تنظر إلى القادمين بذهول ، ثم تنبعت إلى اليد المبسوطة للسلام فتماكت عواطفها وسلمت وهى تخاطب ابنها بلا وعى تقريبا .

— تزوجت يا حسين !.. أهلا بك يا عروس .. تزوجت يا حسين دون أن نخبرنا !؟.. كيف رضيت أن تزف فى غياب والديك وهما على قيد الحياة ؟!..

فقال حسين بامتعاض:

— الشيطان شاطر !.. كنت غاضبا نائرا ساخطا .. وكل شىء قسمة ونصيب !.

وانترعت المرأة المصباح من الحائط ، وتقدمتهم إلى حجرة الاستقبال ، ووضعت على حافة النافذة المغلقة ، ووقفت تتفرس فى وجه زوج ابنها ، وقد قالت الفتاة بصوت أسيف :

— أحزننا والله غيابكم ، ولكن ما باليد حيلة ..

وأبدى شقيقها كذلك أسفه ، فابتسمت المرأة ، ولم تكن أفاقت بعد من دهشتها ، وتمتت :

— أهلا بكم جميعا .

ثم التفت صوب ابنها وقد هالها تجهمه وجموده ، وذكرت لأول مرة أن فمه لم ينفرج عن كلمة طيبة واحدة منذ حضوره ، فقالت بعتاب :

— هكذا تذكرنا أخيرا ..

فهرز حسين رأسه بكآبة وقال باقتضاب :

— استغفوا عني ..

فقالت المرأة بإنكار وقد داخلتها خيبة جديدة :

— استغفوا عنك ؟! أتعني أنك عاطل الآن ؟!

وقبل أن يفتح فمه قرع آذانهم دق عنيف على الباب ، فتبادلت المرأة وابنها

نظرة ذات معنى ، ثم غادرت الحجرة فلاحق بها الشاب بعد أن أغلق الباب

وراءه ، وقال لها في الردهة الخارجية :

— هذا أبى بلا ريب ..

فقالت له بقلق :

— أظن هذا ، هل رآك .. أعني رآكم وأنتم قادمون ؟.

ولكن الفتى لم يجيبها ، وتقدم من الباب وفتحها ، فدخل المعلم كرشة مندفعاً ،

وما إن رأى ابنه حتى قال وعيناه تجماران ، وضباب الغضب يغشى وجهه :

— أهذا أنت ؟!.. قالوا لي ذلك فلم أصدق .. لماذا عدت ؟!

فقال حسين بصوت منخفض :

— يوجد في البيت غرباء ، هلم إلى حجرتك نتكلم ..

ومضى الشاب مسرعاً إلى حجرة أبيه ، فتبعه المعلم مزجراً ، ولحقت بهما

المرأة ، ثم أشعلت المصباح وهي تقول لزوجها في رجاء وتحذير :

— في الحجرة الأخرى زوج ابنك وشقيقها ..

وارتفع جفنا الرجل الثقيلان في ذهول وهتف :

— ماذا تقولين يا مرة ؟!.. أتزوجت حقاً ؟

واستاء حسين من أمه لأنها ألقت عليه الخبر دون تمهيد ، ولم ير بداً من أن

يقول :

— نعم يا أبتى تزوجت ..

وسكت المعلم دقيقة وهو يقرض أسنانه بحلق وغيط ، ولكنه لم يفكر لحظة

في معاتبة ابنه على الزواج بدون علمه ، لأن المعاتبة في نظرة حال من المودة ،

وصمم في اللحظة التالية على إهمال هذا الخبر كأنه لم يسمعه ، وقال بغیظ
وحقد :

— هذا شيء لا يعنيني ألبتة . ولكن دعني أسألك لماذا عدت إلى بيتي ؟ .. لماذا
أريتني وجهك بعد أن أراحني الله منه ؟

فلاذ حسين بالصمت ، ونكس ذقنه عابسا ، وانبرت المرأة تقسول
باستعطاف :

— استغفوا عنه يا معلم .

ونقم الشاب على أمه تسرعها للمرة الثانية . أما المعلم فقد ازداد حنقا وصاح
بصوته الغليظ — مما جعل المرأة تغلق الباب — قائلا :

— استغفوا عنك ؟! .. ما شاء الله ! .. وهل بيتي تكية ؟! .. ألم تنبذنا يا
همام ؟! .. ألم تعضني بنابك يا بن الكلب ؟! .. فلماذا تعود الآن ؟! .. اغرب عن
وجهي . عد إلى الحياة النظيفة والماء والكهرباء .. هيا ..
فقلت أم حسين برقة :

— هدي روعك يا معلم وصل على النبي ..

فلوح لها الرجل بقبضته منذرا وصاح بها :

— تدافعين عنه يا بنت الأبالسة ؟! .. كلكم جنس شياطين يستأهل جلد
السياط وعذاب النار . ماذا تريدین يا أم الشر كله ؟! .. أتريديتنی علی أن آویه
وأهله ؟! .. هل قالوا لك إني قواد يأتيني رزقي من يمين وشمال بغير تعب ولا
جهد ؟! .. ألا فاعلموا بأن الشرطة تحوم حولنا ، وبالأمس قبضوا على أربعة من
رفاقی ، وغدكم أسود بإذن الله ..

فاستوصت المرأة بالصبر وقالت برقة لا عهد لها بها :

— صل على النبي يا معلم ووحيد الله .

فصاح بفظاظة :

— سليه عما جاء به ؟

فقلت برجاء واستعطاف :

— ابنا أرعن مجنون ، غواه الشيطان فأضله ، وليس له الآن من ملجأ سواك ..

فقال المعلم كرشة بحنق وسخرية :

— صدقت يا أم السوء . ليس له ملجأ سواي . سواي أنا الذي يسب حين السراء ويلجأ إليه حين الضراء !

ثم تفحص حسين بنظرة قاسية وسأله باحتقار وسخرية :

— لماذا استغنوا عنك ؟

وتنهدت الأم من الأعماق لأنها أدركت بغريزتها أن هذا السؤال — على لهجته المريرة — إيذان بالتفاهم المنشود . أما حسين فقد قال بصوت منخفض وهو يعاني مرارة القهر :

— استغنوا عن كثيرين غيري .. يقولون إن الحرب وشيكة الانتهاء ..

— انتهت الحرب في الميدان وستبدأ في بيتي أنا ! .. ولماذا لم تذهب إلى أهل زوجك ؟

فقال الشاب بغضاضة :

— ليس لها إلا شقيقها ..

— ولماذا لم تلجأ إليه ؟

— استغنوا عنه أيضا ..

فضحك هازئاً وقال :

— أهلا .. أهلا .. وطبعي أنك لم تجد ملجأ لهذه الأسرة الكريمة التي أناخ عليها الدهر إلا بيتي ذا الحجرتين ! .. مرحى . مرحى .. ألم توفر مالا ؟

فقال الشاب باقتضاب وهو يتنهد :

— كلا ..

— أحسنت . عشت عيشة الملوك ، كهرباء وماء وملاهي ، ثم عدت أخيراً

كما بدأت شحاذا ..

فقال حسين بانفعال :

— قالوا إن الحرب لن تنتهى ، وإن هتلر سيقاوم عشرات السنين ثم يهجم بعد ذلك ..

— ولكنه لم يهجم ، واختفى (حتى فى تلك اللحظة لم يقل إنه مات) تاركا شيخ المغفلين صفر اليدين . والبك شقيق الست ؟
— الحال من بعضه .

— عال .. عال .. البركة فى أهلك . هئى لهم البيت يا ست أم حسين ولو أنه حقير لا يليق بالمقام ، ولكنى سأتدارك ذلك بإدخال الماء والكهرباء ، وربما ابتعت حنطور السيد علوان ليكون تحت تصرفكم ..
فنفخ حسين قائلا :

— حسبك يا أبى .. حسبك ..

فنظر إليه كالمعتذر وقال بسخرية :

— لا تؤاخذنى . أثقلت عليك ؟ .. مزاج رقيق ، عز وجاه ، ارحموا عزيز قوم بال . احتشم يا معلم كرشة ولا تحدث السادة إلا بحديث السادة . تفضل بخلع ملابسك . أما أنت يا ست أم حسين فافتحى الكنز فى المرحاض وعبى للبيك حتى يتريش وينبسط ..

ولم ينبس حسين بكلمة وهو كظيم ، فمرت العاصفة بسلام ، وراحت المرأة تناجى نفسها : « يا ساتر استر » . وكان المعلم — على حنقه وسخريته — أبعد ما يكون عن طرده ، بل لعله حتى فى تلك الساعة الحامية لم يخل من ارتياح لعودته ، وسرور بزواجه ، لذلك كف عما كان آخذا فيه ، وغمغم قائلا :

— الأمر لله . ربنا يتوب على منكم .

ثم سأل الشاب مستدركا :

— ماذا أعددت للمستقبل ؟

فقال الشاب وقد شعر بأنه اجتاز محنته :

— سأجد عملاً إن شاء الله ، ولا يزال لدى حلى زوجى .
فانتبهت أمه إلى كلمة « حلى » باهتمام وسألته بغير وعى :
— هل كنت ابتعتها لها ؟ .

فقال حسين :

— أهديت إليها البعض واشترى لها شقيقها البعض الآخر .
والتفت نحو أبيه مستطرداً :

— سوف أجد عملاً . وسيبحث عبده نسيبى عن عمل أيضاً ، وعلى أية حال
فهو لن يقيم بيننا إلا أياماً .

وانتهزت المرأة فرصة الهدوء الذى أعقب الزوبعة فقالت لزوجها :
— تعال يا معلم سلم على أهل ابنك .

ولحظت ابنها بطرف خفى وغمزت بعينها ، فقال الشاب بغضاضة من
يستكره التودد بطبعه :

— هلا أكرمتنى حىال أهلى ؟ .

وتردد الرجل لحظة ثم قال بامتعاض :

— كيف تريدنى على الاعتراف بهذا الزواج الذى لم أباركه ؟ .

ولما لم يسمع من مجيب ، نهض متأففاً ، ففتحت المرأة الباب وتقدمته ،
وانتقلوا إلى الحجرة الأخرى جميعاً ، وسلموا ، ورحب المعلم بزواج ابنه
وشقيقها . انطوت الصدور عما بها أما الوجوه فقد أشرقت بالترحاب والمجاملة .
وكان المعلم كرشة قد سلم بالأمر الواقع ، ولكنه لبث قلقاً لا يدرى أخطأ
بتسليمه أم أصاب ، ولم تصف نفسه من موجدة واستياء . ثم انتبهت عيناه
النائمتان فى أثناء الحديث إلى شقيق الفتاة فتفحصه بعناية ، وما عجم أن تولاه اهتمام
مفاجئ أنساه قلقه وموجدته واستياءه . . . كان شاباً يافعا وسيم الطلعة خفيف
الظل ، فجعل يحاوره ويرنو إليه بطرف يقظ . وطابت نفسه وصفت ، وسرت

فى أعماقه هزة سرور وحماس ، ففتتح قلبه للأسرة الجديدة ، ورحب بها مرة أخرى ولكن بشعور جديد ، وسأل ابنه بلطف :

— أليس لك أثاث يا حسين ؟

فقال حسين :

— غرفة نوم مكومة عند الجيران .

فقال المعلم بلهجة أمرة :

— اذهب وأحضر عفشك .. !

ونحلا حسين إلى أمه ، وجلسا يتحدثان ويدبران أمورهما ، وفى ختام الحديث صاحت به فجأة :

— ألم تعلم بما حدث ؟!... اختفت حميدة .

فلاحت الدهشة فى وجه الشاب وسألها :

— كيف ؟.

فقالت المرأة دون أن تحاول إخفاء لهجتها الواشية بالشماتة :

— خرجت أول أمس كعادتها كل عصر ، ولكنها لم تعد . ودارت أمها على

بيوت الجيران والمعارف تفتش عنها دون جدوى . وذهبت إلى قسم الجمالية وقصر العينى ولا حياة لمن تنادى .

— ماذا حدث للبنت يا ترى ؟.

فهزت أم حسين رأسها فى ارتياب وقالت بيقين :

— هربت وحياتك !.. غواها رجل فأكل نخبها وطار بها . كانت جميلة

ولكنها لم تكن طيبة قط .

فتحت عينين محمرتين من أثر النوم ، فرأتا سقفا أبيض ، ناصع البياض ، يتدلى من وسطه مصباح كهربائى بارع الرونق فى كرة كبيرة حمراء من البلور الشفاف . امتلأ بصرها دهشة ، ولكن لم يدم ذلك سوى ثانية واحدة ، ثم تدافعت إلى رأسها ذكريات الليلة الماضية ، وذكريات الحياة الجديدة . واتجه ناظرها نحو الباب فألفته مغلقا ، ثم رأت على خوان قريب من السرير مفتاح الباب بحيث تركته بالأمس . نفذت إرادتها فنامت وحدها ، وقضى ليلته وحده فى الحجرة الخارجية ، وافتر ثغرها عن ابتسامة . وأزاحت عن صدرها الغطاء الوثير ، فبدأ فستانها مستخديا خجلا فيما يغمره من مخمل وحرير . ما أعمق الهوة التى تفصل ما بينها وبين الماضى ! . وكانت النوافذ مغلقة تنضح بوهج الشمس ، فينير جو الحجرة بضوء شاحب خفيف ، فاستدلت على الضحى بسماته ، ولكنها لم تدهش لاستيقاظها المتأخر ، فقد أرقها السهاد حتى قبيل الفجر ، وسمعت نقرا خفيفا على الباب ، فتلفت صوبه فى انزعاج ، وجمد بصرها عليه دون أن تأتى حركة أو تنطق بحرف ، ثم غادرت الفراش ، ودلفت إلى التواليت ، ووقفت بين مراياه متحيرة مبهوتة . وعاد النقر فى قوة ملموسة فهتفت :

— من ؟ .

وجاءها صوته العميق وهو يقول :

— صباح الخير .. هلا فتحت الباب ؟ .

ونظرت إلى المرأة فرأت شعرها متشعثا ، وعينيها محمرتين ، وجفניה ثقيلين ، .. رباه .. أليس ثمة ما تغسل به وجهها ؟ ألا ينتظر حتى تهيباً

لاستقباله؟! وعاد ينقر الباب جزعا ، ولكنها لم تلق إليه بالا ، وذكرت قلقها يوم اعترض سبيلها في الدراسة أول مرة فلقيته وقد نسيت أن تأخذ زينتها ، وهي تكون اليوم أشد قلقا بلا ريب !. ورأت زجاجات الروائح العطرية منضودة على التواليت ، ولكنها كانت تراها لأول مرة في حياتها ، فلم تهتد إلى وجه الانتفاع بها في مأزقها . ثم تناولت مشطا عاجيا وسوت شعرها في عجلة ولهوجة ، ومسحت بطرف فستانها وجهها ، وألقت على المرأة نظرة أخرى ، وتهدت في قلق وغيظ ، ثم أخذت المفتاح وسارت نحو الباب ، وكأثما ضاقت بإشفاقها ، فرفعت منكبيها استهانة وفتحت الباب . التقيا وجهها لوجه وقد ابتسم إليها ابتسامة لطيفة وقال برقة بالغة :

— صباح النور يا تيتي !.. لماذا أهملتني كل هذا الوقت !.. أتريدين مواصلة النهار بالليل بعيدا عني؟! فابتعدت عنه دون أن تنبس بكلمة ، ولكنه تأثرها والابتسامة لا تفارق شفتيه ، ثم سألها :

— لماذا لا تتكلمين يا تيتي؟!!

تيتي!! أأسم تدليل هذا يا ترى؟!.. ولكن أمها كانت تدعوها « حمدمد » إذا أرادت أن تدللها ، فما تيتي هذا؟!.. ورمقته بنظرة إنكار وغمغمت :
— تيتي !.

فقال وهو يتناول راحتها بين يديه ويشبعهما تقييلا :

— هذا اسمك الجديد ، فاحفظيه عن ظهر قلب ، وانسى حميدة فلم يعد لها وجود !.. ليس الاسم يا محبوبتي بالشيء التافه لا يقام له وزن ، هو بالحرى كل شيء وما الدنيا — لو تعلمين — إلا أسماء ..

وعلمت أنه لم يعد اسمها — كثيابها البالية ، شيئا ينبغي انتزاعه وإيداعه مقابر النسيان ، ولم تر في ذلك من بأس ، فلا يجوز أن تنادى في شريف باشا بما كانت تنادى به في المدق ، وفضلا عن هذا فهي تشعر شعورا عميقا لا يخلو من وسواس وقلق

— بأن أسباب الماضي قد انقطعت إلى الأبد ، فلماذا تبقى على اسمها ؟!... بل ليها تستطيع أن تستبدل يديها يدين جديدتين جميلتين كيديه هو ، وأن تستعيض عن صوتها — الذى تستغلظ نبراته العالية حتى الفظاظه والقبح — صوتا رقيقا رخيما ، ولكن ما باله اختار هذا الاسم الغريب ؟!.. ولم تملك أن قالت باستنكار :

— هذا اسم غريب ، لا معنى له ..
فقال ضاحكا :

— اسم جميل . ومن جماله ألا معنى له . فالاسم الذى لا معنى له يحوى المعانى كلها . بل هو من الأسماء الأثرية التى تسحر ألباب الإنجليز والأمريكان ، ويسهل النطق به على ألسنتهم المعوجة ...

فجالت فى عينيها نظرة حيرى ، تشى بالارتياح وتحفز للعناد والانقضاض ، فابتسم برقة واستدرك يقول :

— تيتى العزيزة .. رويدك ، ستعلمين كل شئ فى حينه . ألم تعلمى بأنك ستصيرين غدا سيدة باهرة الجمال بعيدة الصيت ؟... هذه هى معجزة هذا البيت . أم حسبت أن السماء تمطر ذهباً وماساً ؟.. كلا يا عزيزتى ، إن السماء فى أيامنا هذه لا تمطر إلا شظايا والآن خذى أهبتك لاستقبال الخياطة . ولكن معذرة لقد ذكرت أمرا هاماً ذكرت أنه ينبغى أن أصحبك لزيارة مدرستى — أنا ناظر يا محبوبتى ولست قوادا كما دعوتنى بالأمس فالتحفى بهذا الروب وانتعلى هذا الشبشب ..

وذهب إلى التواليت فأتى بزجاجة زرقاء كروية يتصل بفم معدنى فيها أنبوبة من المطاط الأحمر ، وسدد فوهتها نحو وجهها وجعل يضغط على الأنبوبة فيمج فى صفحة وجهها سائلا زكى الشذا ، وقد ارتعشت بادئ الأمر شاهقة ، ثم استنامت إلى طيبها فى دهشة وارتياح . وألبسها الروب بنفسه ، وجاءها بشبشبه

فانتعلته ، ثم تأبط ذراعها ومضى بها إلى الحجرة الأخرى ، ثم إلى الردهة الخارجية . وسارا معا متجهين صوب أول باب إلى اليمين وهو يقول لها محذرا : — إياك وأن تبدى خجلة أو خائفة .. إني أعلم أنك جسورة لا تهابين شيئا .. وأثابها تحذيره إلى رشادها ، فحدجته بنظرة حادة ، ورفعت رأسها في استهانة ، فابتسم قائلا :

— هذا أول فصل في المدرسة .. فصل الرقص العربى ...

وفتح الباب ودخلا : ورأت حجرة متوسطة ، جميلة البناء ، ذات أرض خشبية لامعة ، تكاد تخلو من الأثاث اللهم إلا عددا من المقاعد نضدت في جناحها الأيسر ، ومشجبا كبيرا في ركنها الأقصى ، وقد جلست فتاتان على مقعدين متجاورين ، ووقف في الوسط فتى في جلباب أبيض حريرى مهفوف محزما بزئار . اتجهت الرؤوس نحو القادمين ، وجرت على الثغور بسمات التحية ، فقال فرج إبراهيم بلهجة قوية تنم عن السيادة حقا :

— صباح الخير .. هذه صديقتى تيتى ..

وحنّت الفتاتان رأسيهما تحية ، ثم قال الفتى بصوت متكسر مخنث :

— أهلا يا أبلة ..

وردت تيتى التحية فى شىء من الارتباك وهى تطيل النظر إلى الفتى الغريب . كان — على غير ما يبدو — فى نهاية العقد الثالث ، وضيع الملامح أحول العينين ، يزين وجهه بزواق نسائى من كحل وحمرة وبودرة ، ويلمع شعره الجعد بالفازلين . فابتسم فرج إبراهيم وقال يعرفه لها :

— سوسو معلم الرقص ..

وكأنما أراد سوسو أن يقدم لها نفسه بطريقة الخاصة ، فأشار إلى الفتاتين المتجاورتين غامزا بعينه ، فراحتا تصفقان على « الواحدة » ، وانساب الأستاذ راقصا كالأفعوان ، فى خفة وليونة يثيران الدهشة ، حتى خالته جسما بلا عظام ولا مفاصل ، أو أنه قطعة من مطاط مكهرب . كان كل ما فيه يرتعش بلا

توقف . ردفاه .. وسطه .. صدره .. رقبته .. حاجباه .. وكان يلقي بنظرة
متكسرة متضعضة . مبتسما ابتسامة فاجرة عن أسنان ذهبية . ثم اهتز هزة
عنيفة ختم بها ارتعاشه الفنى ، واستقام ظهره فكفت الفتاتان عن التوقيع . لم يكن
فى نية سوسو أن يرقص ولكنه رغب أن يحيى القادمة المستجدة تحية راقصة على
سبيل المثال . والتفت نحو إبراهيم فرج متسائلا :

— تلميذة جديدة ؟ ..

فالتفت هذا بدوره إلى تيتى وقال :

— أظن هذا ..

— ألم ترقص فيما سلف ؟

— كلا .

فابتسم سوسو مسرورا وقال :

— هذا أفضل يا سى فرج . إذا كانت تجهل الرقص فهى عجيبة طرية أصورها
كيفما أشاء ، أما أولئك اللاتي يتعلمن الرقص على غير أصوله فما أشق تعليمهن .
ونظر إلى تيتى ، وثنى رقبته يمنة ويسرة وقال بصوت فاضح :
— أم تحسبين الرقص لعبا يا أبلتى ؟! .. العفو يا حبيبتى .. هذا فن الفنون ،
وأستاذة له اللجنة ونعيمها بغير حساب جزاء ما يتجشم من عناء أو مشقة ..
انظرى ..

وأرعى خصره بغتة فى سرعة عجيبة ، ثم أمسك وهو يرمقها بعجب وتيه ،
وسألها باستعطاف :

— هلا انتزعت هذا الروب لأطلع على جسمك .

ولكن فرج عاجله قائلا :

— ليس الآن .. ليس الآن .

فمط سوسو بوزة متأسفا وسألها :

— أتحجلين منى يا تيتى .. أنا أختك سوسو ! .. ألم يعجبك رقصى ؟

وكانت تدافع جاهدة شعورا بالضيق والارتباك ، وتحاول في إصرار وعناد أن تبدو باردة هادئة مستهينة بل راضية ، فابتسمت وقالت :

— رقصك بديع جدا يا سوسو ..

فصفق سوسو بيديه حبورا وقال :

— دمت من فتاة كريمة . الحياة فانية يا تيتي ، وأجمل ما فيها كلمة حلوة .
وهل دام شيء لإنسان ؟ .. الواحد منا يشتري حق الفازلين ولا يدرى أ يكون
لشعره أم لشعر ورثته !

* * *

وغادرا الحجرة — أو الفصل — إلى الردهة ، فمضى بها إلى الحجرة التي
تليها ، وشعر بعينها تلحظانه ولكنه تجاهلها عن حكمة ، حتى بلغا الباب فغمغم
قائلا :

— فصل الرقص الغربي ...

فتبعته صامته . كانت تعلم أن النكوص قد بات مستحيلا ، وأن الماضي قد
عفاه الحاضر ، فلم تر بدا من الاستسلام للمقادير ، وتساءلت هل تبلغ حقا
السعادة المنشودة ؟ . وجدت هذه الحجرة في بنائها وصورتها كسابقها إلا أنها
حجرة حية متحركة صاخبة . كان الحاكى يبعث لحنا غريبا تلقته أذنها في دهشة
وإنكار ، وكان قوما يرقصون أزواجا ، قوام كل زوج فتاتان ، وقد انتحى شاب
أنيق البزة جانبا وهو يراقبهن بعناية ، ويولين بملحوظاته ، وتبادل الرجلان
التحية ، وواصل الراقصات رقصهن وهن يتفحصن حميدة بنظرات ثاقبة ناقدة .
ودارت عينها بالمرقص والراقصات فعجبت لثيابهن البديعة وزينتهن البارعة ، وسرعان
ما تناست هواجسها ، واستولى عليها انفعال عارم ، فعانت شعورا مؤلما
بالضعة ، ثم استفزها إحساس حاد بالحماس والتوثب . ولاحت منها التفاتة إلى
رجلها فوجدته محافظا على هدوئه ورزائته ، تلوح في عينيه نظرة متعالية تنطق
بالسعادة والقوة . والتفت نحوها فجأة كأنما جذبتة عينها ، فانبسطت

أيساريه ، ومال نحوها قليلا متسائلا :

— أيعجبك ما ترين ؟

فقالت ببساطة وهي تقاوم انفعالها :

— جدا ...

— أى الرقصين تفضلين ؟

فابتسمت ولم تجب . ولبثا قليلا صامتتين ، ثم غادرا الحجرة ، واتجها نحو باب ثالث وقد تجلى الاهتمام في وجهها . وما كاد يدفع الباب حتى حملقت في دهشة وذهول . رأت في وسط الحجرة امرأة عارية منتصبه القامة . وظلت ثوانى لا تحول بصرها عنها فلم تر شيئا سواها . ومن عجب أن المرأة العارية بقيت بموقفها كأنها لم تشعر بمقدمهما ، وجعلت تنظر إليهما في هدوء واستهتار وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنها تحييها أو تحييه هو بالأحرى . وعند ذلك قرعت أذنيها أصوات ، فتلفت يمنة ويسرة وأدركت أن الحجرة معمورة بالآدميين . رأت إلى يسار الداخل صفا من المقاعد مشغولا نصفها بفتيات حسان أنصاف عرايا أو على وشك التعرى !... ورأت عن كئيب من المرأة العارية رجلا في بدلة أنيقة قابضا يميناه على مؤشر قدر كز سنانه على مقدم حذائه ، ولاحظ إبراهيم فرج دهشتها ، فرغب أن يسرى عنها ، فقال لها :

— هذا الفصل لتعليم مبادئ اللغة الإنجليزية !...

فحدجته بنظرة إنكار كأنها تقول له « لا أفهم شيئا » فأشار لها بالتمهل ثم

وجه خطابه للرجل القابض على المؤشر وقال :

— استمر في درسك يا أستاذ ...

فقال الرجل بصوت يدل على الطاعة :

— هذه حصّة تسميع .

ورفع المؤشر بخفة ولمس بسنانه شعر العارية ، فنطقت المرأة بلفظ غريب

« هير » فأنزله إلى جبينها فهتفت « فرنّت » ، وانتقل إلى الحاجب فالعين ثم

الفم ، وشرق وغرب ، وصعد وصوب ، وهى تجيب على أسئلته الصامتة بكلمات غريبة ، لم تسمعها حميدة من قبل ، وازدادت الفتاة دهشة وانزعاجا ، وتساءلت كيف تبدو هذا المرأة عارية حيال هذا الجمع ، وكيف ينظر فرج إلى هذا الجسم المتجرد بهذه البساطة !... وغلى دمها ، والتهب خداهما ، وألقت عليه نظرة سريعة فرأته يهز رأسه راضيا عن التلميذة الذكية ، ويتمم « برافو .. برافو ... » ثم خاطب الرجل قائلا :
— أرني شيئا من الغزل ..

فنهى الرجل المؤشر جانبا ، وأقبل على المرأة مخاطبا في لهجة إنجليزية وعاطته المرأة قولا بقول ، فتراطنا دقائق بلا تلعم أو تردد ، حتى صاح فرج إبراهيم :
عظيم ... عظيم ... والأخريات ؟
تسلفه وأشار إلى الفتيات الجالسات ، فقال الأستاذ :

— فى طريق التحسن وإنى أقول لهن دائما إن الكلام لا يحصل بالحفظ ، ولكنه يكتسب بالتجربة ، فالحانات والبنسيونات هى دور العلم الحقيقية ، وما هذا الدرس إلا تثبيت للمعلومات المهوشة ...
فقال فرج وهو ينظر إلى فتاته :
— صدقت ... صدقت ...

وحياه بإيماءة من رأسه ، وتأبط ذراع حميدة وانفصلا عن المكان معا ، وقطعا الردهة الطويلة مرة أخرى صوب حجرتيها . كان وجهها جامدا ، وفمها مطبقا ، وعيناها تنان عن الشرود والحيرة ، وكانت تتلمس سببا للانفجار ، لا لهدف ترمى إليه ، ولكن للترويح عن صدرها الهائج المضطرب . ولازم الرجل الصمت حتى حواهما المخدع ، ثم قال بلطف :

— يسرنى أن أطلعك على مدرستى ، وأنتك فتشت فصولها بنفسك . وربما تراءت لك ذات برنامج عسير شاق ؛ ولكنك رأيت بعينيك تلميذاتها البارعات ، وجميعهن بغير استثناء دونك ذكاء وجمالا ..

فرمقته بنظرة عناد وتحد وسألته ببرودة :

— أتريدنى على أن أفعل مثلهن ؟..

فابتسم فى رقة ، وقال بمكر ودهاء :

— لا سلطان لأحد عليك ولا راد لقضائك ، وأنت وحدك صاحبة الأمر

والنهي . ولكن واجبى أن أوضح لك المعالم ، والخيرة لك . والحق أنه لمن حسن

الخط أنى وجدت رفيقا ليبدأ تكفيه الإشارة ، قد حباه الله جمالا وهمة وبهاء . فإذا

سعيت إلى استشارة حماسك اليوم فعسى أن تسعى أنت غدا إلى استشارتى . إني

أعرفك حق المعرفة ، وأقرأ قلبك كصفحة مبسوطة ، وها أنا ذا أقول لك عن

عقيدة ويقين أنك ستقبلين على تعلم الرقص والإنجليزية ، وإتقان كل شىء فى

أقصر فترة من الزمن . ولقد اتبعت معك سبيل الصراحة من بادئ الأمر وتجنبت

الكذب والخداع ، لأنى أحببتك حبا صادقا ، ولأنى أيقنت من أول لحظة بأنك

لا تغلبين ولا تخدعين ، فافعلى ما تشائين يا محبوبتى . جربى الرقص أو انبذيه ،

استهترى أو عفى ، ابقى أو عودى ، فلا قبل لى بك على جميع الأحوال .

ولم يذهب خطابه سدى ، فقد سرى عنها ، وخف توتر أعصابها . واقترب

منها ، وأخذ راحتها بين يديه ، وضغط عليها بحنو وهو يقول :

— أنت أسعد حظ جادت به الحياة على .. ما أفتنك .. ما أجملك ..

وحدق فى عينيها بإمعان وافتتان ، ورفع يديها — وهما مضمومتان — إلى

فمه ، وراح يقبل أطراف أناملها زوجا زوجا ، وهى مستسلمة ليديه تجدد لكل

لشمة من شفته تكهريا فى أعصابها ، حتى تندت عيناها برق وهيام . وند عنها نفس

حار فى شبه تنهدة ، فأحاطها بذراعيه ، وضمها إلى صدره رويدا حتى شعر بمس

ثديها لقلبه ، ثدى بكر ناهد يكاد لصلايته ينغرس فى صدره ، وراح يمسح على

ظهرها براحتيه صعودا وهبوطا ، ووجهها مدفون فى صدره ، ثم همس « فمك »

فرفعت رأسها ببطء وقد انفرجت شفتاها قليلا ، فطبع شفثيه على شفثيها فى قبلة

طويلة جدا ، فأطبقت جفنيها كأنما أخذتها سنة من نعباس . وحملها بسيسر

فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع ، وسار بها متمهلا نحو الفراش ، وقد هز ساقها المعلقين هزة أطاحت بالشبشب ثم أنامها ، ولبت مائلا عليها معتمدا على راحته ، منعما النظر في وجهها المورد . وفتحت عينيها فالتقتا بعينيها ، فابتسم إليها ابتسامة رقيقة ولكنها ظلت ترنو إليه بنظرة ساجية . وكان في الحق متالكا لأعصابه رغم تظاهره بعكس ذلك ، وكان فكره أنشط من قلبه ، وكان قد أجمع رأيه على خطة لا يحيد عنها ، فاستوى واقفا وهو يغالب ابتسامة ماكرة ، وقال بلهجة من يزع نفسه عن هواها :

— مهلا .. مهلا .. إن الضابط الأمريكي يدفع خمسين جنيا عن طيب

خاطر ثمنا لعذراء !

التفتت إليه داهشة . وسرعان ما غابت من عينيها النظرة الفاترة ، وحل محلها نظرة صارمة قاسية قاذحة . ونهضت جالسة في الفراش ، ثم انزلت إلى الأرض بسرعة فائقة فانتصبت حياله كالحية الهائجة . وثارت بها غريزتها العنيفة فرفعت يدها وهوت بها على خده بقوة وقسوة وتجاوبت أركان الحجر رنينها . ولبت ثواني جامدا ثم تمدد جانب من فمه الأيسر في ابتسامة هازئة ، وبسرعة تفوق الفكر رفع كفه ولطمها على خدها الأيمن بقوة متناهية ، ثم رفع يسراه — قبل أن تفيق من اللطمة الأولى — وصك بها خدها الأيسر بشدة بالغة !. اصفر وجهها ، وسرت ارتعاشة في شفتيها ، وانتفض جسمها انتفاضة حيوانية ، فارتجت على صدره ، وأنشبت أناملها المتقبضة في عنقه . وتلقى الرجل هذه الهجمة بسكينة ، ولم يحاول مدافعتها بل أحاطها بذراعيه وشد عليها حتى كاد يهرسها ، ومضت أصابعها تلين ، ثم ارتدت عن عنقه ، وتحسست منكبيه وعلقت بهما ، ورفعت إليه وجهها قانيا وثرغرا مرتعشا مشوقا ..

نشر الظلام رواقه على الزقاق وأطبق على جنباته سكون عميق ، حتى قهوة
كرشة أغلقت أبوابها وتفرق سمارها . وفي هذا الهزيع من الليل مرق من باب
الفرن شبّح زيطه ، صانع العاهات ، ينطلق إلى تجواله الليلي . قطع الرجل أرض
الزقاق إلى الصنادقية ، وعرج إلى اليسار متجها صوب الحسين ، فكاد يصطدم
بشبح قادم في منتصف الطريق ، وما لبث أن تنور وجهه على ضوء النجوم
الشاحب فهتف به :

— الدكتور البوشي !.. من أين أنت قادم ؟

فأجابه الدكتور بعجلة ولهفة :

— كنت ماضيا إليك ..

— أعندك طلاب عاهات ؟

فقال الدكتور بصوت كالهمس :

— عندي ما هو أهم ، لقد توفي عم عبد الحميد الطالببي !

فأضاعت عينا زيطه في العتمة وسأله باهتمام :

— متى توفي ؟.. وهل دفن ؟

— في مساء اليوم .

— أعرفت مقبرته ؟

— فيما بين باب النصر وطريق الجبل .

وتأبط زيطه ذراعه وسار به في الطريق الذي كان آخذا فيه وهو يسأله

مستوثقا :

— ألا يمكن أن تضل الطريق في الظلام ؟

— كلا .. كنت في أثناء سير الجنازة متبها يقظا فحفظت علامات الطريق ،
وفضلا عن هذا فهو طريق معروف لكلينا ، وطالما قطعناه معا في الظلام
الدامس ..

— وأدواتك ؟

— في مكان حريز أمام الجامع ..

— وهل المقبرة مكشوفة أم مسقوفة ؟

— عند المدخل حجرة مسقوفة ولكن القبر في فناء مكشوف ..

فسأله بلهجة لم تخل من تهكم :

— أكنت تعرف المرحوم ؟

— معرفة بسيطة . كان بائع دقيق في المبيضة .

— أطقم كامل أم بضع أسنان فقط ؟ ..

— طقم كامل ..

— ألا تخشى أن يكون أهله قد انتزعوا الطقم من فمه قبل دفنه ؟

— كلا . إن أهل البلد أهل تقوى ، وهيات أن يفعلوا ذلك ..

فقال زيطة وهو يهز رأسه أسفا :

— مضى زمن والناس يودعون القبر حلى موتاهم ..

فتهد الدكتور قائلا :

— أين منا ذاك الزمن !

وبلغا الجمالية في ظلمة حالكة وصمت مخيم ، ومرا في طريقهما بشرطين ثم
أخذوا يقتربان من باب النصر ، واستخرج زيطة من جيبه نصف سيجارة وأشعلها
وراح يدخن بشغف . وقد فزع الدكتور بوشى من ضوء عود الثقاب وقال
لصاحبه بنرفزة :

— بش ما اخترت هذا الوقت للتدخين ..

ولكن زيطة لم يأبه ومضى يقول وكأنه يخاطب نفسه :

— لا فائدة ترجى من الأحياء ، وقليل من الموتى ذو نفع !..

ومرقا معا من باب النصر ، ومالا إلى اليمين يقطعان طريقا ضيقا تحف به المقابر من الناحيتين ، ويرين عليه صمت رهيب وكآبة شاملة . وقال زبيطة عند نهاية الثلث الأول من الطريق « هاك المسجد » فتلفت بوشى فيما حوله ، وتصنت قليلا فى حذر ، ثم اقترب من الجامع متحاميا لإحداث أى صوت ، وتحسس الأرض لصق جداره فيما يلى مدخله حتى عثر بحجر كبير ، ثم أزاحه عن موضعه بيديه ، واستخرج من نقرة تحته فأسا صغيرة ولفافة تحوى شمعة ، وعاد إلى صاحبه ، فاستطردا فى مسيرهما وهو يقول همسا « تقع المقبرة فيما قبل الطريق الصحراوى بخمس مقابر » . وجدا فى السير وعينا الدكتور تتطلعان إلى المقابر على يسار الطريق ، وقلبه يدق بعنف ، ثم ثاقل بغتة وهو يهمس « هذه المقبرة » ، ولكنه لم يقف ، بل حث صاحبه على السير وهو يقول :

— سور المقبرة المطل على هذا الطريق عال ، والطريق نفسه غير مأمون ، فالأفضل أن ندور حول المقابر من ناحية الصحراء ، ثم نتسور المقبرة من ناحيتها الخلفية حيث يوجد القبر فى الفضاء المكشوف ..

ولم يبد زبيطة اعتراضا ، فتقدما فى صمت حتى انتهيا إلى طريق الصحراء ، واقترح زبيطة أن يجلسا على الطوار قليلا ريثما يراقبان الطريق ، وجلسا جنبا لجنب ، وراحا يراقبان المكان بأربع أعين ، كان الظلام شاملا ، والمكان مقفرا ، وفيما وراءهما تنتثر القبور فتشغل مساحة من الأرض لا يحيط بها البصر . ومع أن هذه المخاطرة لم تكن الأولى من نوعها إلا أن الدكتور بوشى لم يستطع أن يتمالك أعصابه أو يسيطر على دقات قلبه المضطرب ، فلبث يحملق فى الظلماء ، فؤاده خافق ، وريقه جاف ، وأعصابه متوترة ، فى حين جلس زبيطة جامدا ، رابط الجأش ، لا يبالى شيئا . ولما اطمأن إلى خلو الطريق قال للدكتور :

— دع الأدوات واسبقنى إلى سور المقبرة الخلفى ، وانتظرنى هنالك ..
ونهض الدكتور على كره ، وتسلسل بين القبور مائلا نحو الأسوار الخلفية

للمقابر ، وسار لصق الجدران متلمسا طريقه فى ظلام دامس ليس به من بارقة نور
إلا ما تشعه النجوم ، وجعل يعد الأسوار حتى بلغ خامسها ، وألقى على ما حوله
نظرة لص ، ثم جلس القرفصاء . لم تعثر عيناه بشىء يريه ولم يبلغ أذنه حس ،
ولكن القلق لم يزايله ، واشتد جزعه . وبعد قليل رأى شبح زيطه على مدى أذرع
منه ، فنهض فى حذر ، وعان الرجل السور ثم قال همسا :
— تقوس حتى أصعد على ظهرك .

وتقوس الدكتور معتمدا راحتيه على ركبتيه ، ورقى الرجل ظهره ، وتحسس
الجدار حتى قبض على حافته ، ثم تسوره بمهارة وخفة ، ورمى بالفأس ولفافة
الشمعة إلى داخل الفناء ، ثم مد يده إلى الدكتور حتى التقت يده ، وأعانه على
تسليق الحائط حتى تسلمه ، وهويا معا ، وتوقفا عند أصل السور يستريحان ،
والتقط زيطه فى أثناء ذلك الفأس واللفافة . وكانت أعينهما قد اعتادت الظلام
واستأنست بنور النجوم الخافت ، فرأيا الفناء فى شىء من الوضوح ، وقبرين
متجاورين ينهضان على كتب من موقفهما ، وفى نهاية الفناء يقوم الباب المطل على
الطريق الذى جاء منه ، وعلى جانبيه حجرتان . وسأل زيطه وهو يومئ إلى
القبرين :

— أيهما ؟

فأجابه بصوت يكاد ينحبس فى حلقه :

— على يمينك ..

ودنا زيطه من القبر بلا تردد ، يتبعه بوشى مرتجف الأوصال ، وحنى قامته
متحسسا أرض المنزل فوجدها طرية ندية ما تزال ، فأعمل فيها فأسه بحذر
وهوادة مكوما الثرى بين رجليه المتفرجتين . وثابر على العمل الذى لم يكن
جديدا بالنسبة إليه حتى كشف عن السلالم التى تسقف منزل القبر ، وشم
طرف جلبابه وجدله وعقده حول وسطه ، وأقبل على طرف السلمة الأولى ،
ورفعها شادا على عضلاته حتى انتصبت قائمة ، وأخذ ينيمها بمعونة البوشى حتى
(زقاق المدق) .

طرحها أرضاً . وفعل مثل ذلك بالسلمة الثانية . واكتفى بالثغرة التي فتحها حيث يمكن أن ينزلق منها هو وصاحبه ، ومضى إليها ونزل الأدراج وهو يقول للدكتور مغمما « اتبعنى » . فتبعه منقبض الصدر مقشعر البدن . وكان الدكتور يجلس — فى مثل هذا الظرف — على الدرجات الوسطى ، ويشعل الشمعة ويثبتها فى الدرجة السفلى ، ثم يغمض عينيه ويدفنها بين ركبتيه . وكان يدخل القبور على كره ، وطالما ناشد زبطة الرحمة أن يعفيه من دخول القبر ، ولكن الآخر أبى أن يؤدي له هذه الخدمة إلا إذا شارك فى جميع خطواتها ، مستلذا فى أعماقه تعذبه . وقد اشتعلت ذبالة الشمعة فأضاءت القبر ، وألقى زبطة نظرة متحجرة على الجثث المدرجة فى أكفانها مطروحة فى تتابع وتواز حتى غيابات القبر ، يرمز نظامها إلى تسلسل التاريخ واطراد الزمن ، وينطق صمتها الرهيب بالفناء الأبدى . ولكنها لم ترجع فى صدر زبطة أى صدى ، فسرعان ما استرد نظرتة المتحجرة وثبتها على الكفن الجديد عند بدء القبر . وجلس القرفصاء ، ثم كشف عن رأس الجثة بيدين باردتين ، وحسر الشفتين ، وعالج بأصابعه الطقم حتى انتزعه ، وأودعه جيبه وقد تلوثت أنامله . ثم غطى الرأس كما كان ، وتحول عن الجثة إلى الباب ، فرأى الدكتور دافنا رأسه بين ركبتيه والشمعة فى أسفل الدرج تزهر ، فرماه بنظرة ساخرة وغمغم فى ازدراء « اصح ! » فرفع الدكتور رأسه مرتعدا ، ومال نحو الشمعة فتناولها ونفخها فأطفأها ، ورقى السلم فى عجلة كأنه يفر . ورقى زبطة الدرج كذلك ، ولكنه قبل أن يبرز من الثغرة صكت أذنيه صرخة داوية ، وسمع الدكتور يصيح بصوت كالعواء « فى عرضكم ! » تسمرت قدماه ، ثم تراجع نازلا الأدراج وهو لا يدري ما يفعل وقد أثلجت أطرافه ، وما زال يتراجع حتى داس كعبه الجثة ، فتقدم خطوة ووقف متسمرالا يجد مهربا . وخطر له أن يرقدين الجثث ، ولكنه قبل أن يأتى حركة واحدة غمره نور وهاج أغلق جفنيه قسرا ، وسمع صوتا شديدا يصيح به فى لهجة صعيدية :

— اصعد . وإلا أطلقت عليك النار ..
وطوقه اليأس فاستسلم ، ورقى الدرج كما أمر ، وقد نسي الطقم الذهبى فى
جيبه .

* * *

و لم يتناه إلى الزقاق نبأ القبض على الدكتور بوشى وزیطة فى مقبرة الطالبی إلا
عند عصر اليوم التالى . وفشا الخبر وعرفت أسبابه ، وتناقله القوم فى دهشة
وانزعاج . وما أن علمت به الست سنية عفيفى حتى استحوذ عليها الفرع
وولدت صارخة ، وانتزعت طقمها الذهبى ورمته به ، وأخذت تلطم خديها
فى حالة عصبية شديدة ، ثم سقطت مغمى عليها . وكان زوجها فى الحمام ، فلما
أن قرع أذنيه صراخها أخذ الرعب فارتدى جلاببه على جسده المبلول وهرع إليها
لا يلوى على شيء .

كان عم كامل جالسا على كرسیه على عتبة الدكان ، مائلا رأسه على صدره ،
غارقا فى النعاس ، والمنشة فى حجره . ثم استيقظ على ديب شيء على صلته
فتحركت يده حركة آلية ليترد ما ظنه حشرة ، ولكنها وقعت على كف آدمية ،
فقبض عليها سائطا ، وتأوه متذمرا ، ورفع رأسه ليرد ذلك المداعب الثقيل الذى
أيقظه من نعاسه اللذيد فوقعت عيناه على عباس الحلو .. لم يكذب صدق عينيه ،
فحملق فيه مشدوها ، ثم اشتد احمرار وجهه المنفوخ فرحا ، وهم بالنهوض ،
ولكن الشاب لم يمكنه من ذلك ، واحتضنه بذراعيه فتعانقا عناقا حارا ، والحلو
يهتف به متأثرا :

— كيف حالك يا عم كامل ؟

فيجيبه الرجل في لهفة وسرور :

— كيف أنت يا عباس .. أهلا وسهلا ومرحبا .. لشد ما أوحشتنى
يا عكروت ا.

ووقف الحلوي بين يديه مبتسما ، والآخر يتطلع إليه بعينين شقيقتين . وكان
يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديا ، وقد حسر رأسه ورجل شعره فبدا أنيقا
حسن المنظر موفور الصحة مورد الوجه ، فرمقه عم كامل بإعجاب وقال بصوته
الرفيع :

— ما شاء الله أنت رائع يا جوني !

فضحك عباس الحلوي ضحكة رنانة صاعدة من قلب جذل وقال :

— ثنك يو .. لن يرطن الشيخ درويش بالإنجليزية وحده بعد اليوم !
وأجال الشاب عينيه في الزقاق المحبوب ، فوقعتا على دكانه القديم ، ورأى
صاحبه الجديد مكبا على حلق ذقن زبون ، فرنا إلى الدكان رنوة حنان وتحية . ثم
طار بصره إلى النافذة فوجدها مغلقة كما كانت حين قدومه ، فتساءل ترى أهى
في الدار أم في الخارج ؟. وما عسى أن تفعل إذا فتحت الباب فوجدت أنه
الطارق ؟. سوف تحملق في وجهه بدهشة وذهول ، فيملا عينيه من حسننها
الباهر ا. هذا يوم أغر من الأيام المعدودة في العمر . وانتبه إلى صوت عم كامل
وهو يقول متسائلا :

— أتركت عملك ؟.

— كلا ، ولكنى أخذت إجازة قصيرة .

— ألم تدر بما حصل لصاحبك حسين كرشة ؟ هجر أباه ، وتزوج ، ثم
استغنوا عنه فعاد إلى بيته يجر وراءه زوجه وشقيقها .

فلاح الأسف في وجه الحلوي وقال :

— يا لسوء الحظ .. ! إنهم يستغنون عن العمال كثيرا في هذه الأيام . وكيف
استقبله المعلم كرشة ؟

فمط عم كامل بوزه وقال :

— لا يفتأ شاكيا متبرما ، أما الفتى وأهله فيقيمون في الدار .

وسكت الرجل نصف ذقيقة ثم قال متعجلا كأنما ذكر أمرا هاما :

— أما علمت بأن الدكتور بوشى وزیطة مسجونان ؟!

ثم قص عليه كيف قبض عليهما في قبر الطالبى متلبسين بجريمة سرقة طقمه الذهبى . وقد وجم الحلو وجوما شديدا . ولم يكن يستبعد أن يرتكب زیطة أشنع الجرائم ، ولكنه عجب للدكتور بوشى كيف سولت له نفسه اقتراف هذه الجريمة النكراء .. وذكر كيف طلب إليه أن يركب له طقما حين عودته من التل الكبير ، فالتوت شفثاه امتعاضا وتقززا .

واستدرك عم كامل يقول :

— وقد تزوجت الست سنية عقيفى ..

وكاد يقول له « العقبى لك » ولكنه أمسك فجأة وقد دق قلبه بعنف !. ذكر عند ذاك حميدة !.. ولكم ذكر هذا الموقف فيما تلا ذلك من أيام متعجبا من نسيان ما كان ينبغى أن يذكره لأول وهلة !. ولكن الحلو لم ينتبه لتغيره ، وسرعان ما شغل بآماله وأفراحه فتراجع خطوتين قائلا :

— أستودعك الله إلى حين ..

وأشفق الرجل أن يدهمه الخبر على حين غرة فسأله بلهوجة :

— أين تقصد ؟

فقال الحلو وهو يهيم بالمسير :

— إلى القهوة أسلم على من بقى من أصحاب ..

فاتكأ عم كامل على ركبتيه وقام جاهدا ، وتبعه متبخترا . وكان الوقت

عصرا فلم يجد بالقهوة من أصحابهما إلا المعلم كرشة والشيخ درويش . فسلم

عباس على المعلم الذى لاقاه بترحيب ، وشد على يد الشيخ درويش . فرمقه

الشيخ بنظرة باسمة من وراء نظارته ولم ينبس بكلمة . وكان عم كامل يعانى

انقباضا ثقيلا ، وحزنا مريرا ، ولا يدري كيف يفتحه بالنبا الأليم ، فقال له
برجاء :

— هلا عدت معي إلى الدكان قليلا ؟..

ووقف عباس مترددا بين رجاء صاحبه وبين الزيارة المنشودة التي انتظرها
جزعا بضعة شهور ، ولكن لم يهن عليه عم كامل . ولم يجد بأسا في المكوث معه
فترة قصيرة من الوقت ، فرجع معه إلى دكانه مداريا برمه بابتسامة لطيفة ،
وجلسا في الداخل جنبا لجنب ، وهو يقول بسرور :

— الحياة في التل الكبير حياة عظيمة ، عمل متواصل ، وربح موفور . إني
لا أبعث نقودي قانعا بعيشة متواضعة لا تكاد تختلف عن عيشة الزقاق . حتى
الحشيش لم أذقه إلا مرات معدودات مع أنه هنالك كالماء والهواء . وقد ابتعت
هذا .. انظر يا عم كامل العقبى لك ..

واستخرج من جيب بنطلونه علبة صغيرة وفتحها ، فبان بداخلها عقد ذهبي
مركب من سلسلة وقلب رقيق ، ثم استطرد وعيناه البارزتان تلمعان بسرور :
— شبكة حميدة . أما علمت ؟ .. سأكتب الكتاب في إجازتي هذه ..

وتوقع أن يقول الرجل شيئا ، ولكن عم كامل لاذ بصمت ثقيل وغض بصره
كأنه يخفيه ، فنظر إليه الشاب باهتمام ، ولأول مرة رأى ما ينطق به وجهه من
وجوم واكفهرار . ولم يكن عم كامل من الذين يفلحون في إخفاء ما يعمل في
أنفسهم ، فلاح باطنه عاريا في وجهه . وسرعان ما قطب الحلو وساوره القلق ،
فأغلق العلبة وأعادها إلى جيبه ، وأنعم في صاحبه النظر فداخله خوف انقبض له
قلبه . وأشفق على قلبه الجذل الحبور أن تطفئ جذوته خيبة لا يدريها
ولا يتوقعها . أشفق من ذلك إشفاقا ألما موجعا ، ولكن نذر الكدر تخايلت لعينه
في وجه الرجل المرتبك الواجم ، ولم يستطع مع جموده صبرا ، فسأله بارتياح :

— مالك يا عم كامل ؟ .. لست كعهدي بك . ما الذي غيرك ؟ .. لماذا

لا تنظر إلي ؟

فرفع الرجل وجهه إليه ببطء ، وطالعه بعينين مظلمتين محزونتين ، وفتح فمه ليتكلم ، ولكن لسانه خانه فلم يطاوعه وبلغ الجزع بعباس مداه ، وتنبأ قلبه بالفاجعة ، فشعر بالقنوط يطفئ أضواء فرحه ، ويخمد أنفاس أمله ، فهتف بحزم قائلاً :

— ماذا وراءك يا عم ؟ ما الذى تريد أن تقول ؟. عندك ما تقوله بلا ريب ، بل فى ضميرك أشياء وأشياء ، فلا تقتلنى بترددك . حميدة ؟! ... إى والله حميدة !.. قل ما تشاء . لا تعذبني بسكوتك . هات ما عندك دفعة واحدة . فازدرد ريقه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— لست موجودة !.. لم تعد هنا اختفت . لا يدري أحد عنها شيئاً . أنصت إليه بذهول وفزع ، ونقشت الكلمات فى وعيه كلمة كلمة ، ولكن غشى فهمه ضباب وغبار ، وكأنما انتقل فجأة إلى دنيا المحمومين ، فقال بصوت متهدج :

— لست أفهم شيئاً . ماذا قلت !.. لم تعد هنا ، اختفت ؟! ماذا تعنى ؟ فقال عم كامل بأسى :

— شد حيلك يا عباس . يعلم الله أنى حزين أسيف ، وإنى حملت همك من أول الأمر ، ولكن ما باليد حيلة . اختفت حميدة ، ولم يدر أحد عنها شيئاً . خرجت يوماً كمعادتها كل عصر ولكنها لم تعد . فتشوا عنها فى مظانها جميعاً دون جدوى . بلغنا قسم الجمالية ، وبحشنا فى قصر العيني ، ولكن لم نعثر لها على أثر . لاح فى وجهه سهوم ، ولبث حيناً جامداً صامتاً ، لا يتكلم ولا يتحرك ولا يطرף . لا مذهب ولا مهرب . ألم يتنبأ قلبه بالفاجعة ؟!.. بلى ، وها هو يصدق . يا عجباً .. ماذا يقول الرجل ؟!.. اختفت حميدة ؟!.. وهل يختفى البشر كما تختفى إبرة أو قطعة من النقود ؟!.. لو أنه قال ماتت أو تزوجت لأمكن أن يجد المضطرب مدى أو نهاية ، فاليأس على أية حال أروح من الشك والحيرة والعذاب . ولكن ما عسى أن يفعل الآن ؟! بات اليأس نعمة لا يطمع فيها بحال . وخرج من

جموده فجأة ، فاستعرت نفسه هياجا وارتعشت أطرافه ، وحذج الرجل بعينين محمرتين وصاح به :

— اختفت حميدة !.. وماذا فعلتم ؟.. بلغت قسم الجمالية وبحثم في قصر العيني ؟.. جزاكم الله كل خير ، ثم ماذا ؟.. عدتم إلى أعمالكم كأن شيئا لم يكن !.. يا لطف الله !.. انتهى كل شيء ، فرجعت أنت إلى دكانك وراحت أمها تطرق أبواب العرائس ، وانتهت حميدة ، وانتهيت أنا أيضا . ماذا تقول يا رجل ؟ خبرني عما تعلم ؟ ماذا تعرف من أمر اختفائها ؟.. كيف اختفت ؟ ومتى وقع ذلك ؟!

استحوذ الاضطراب على عم كامل لما بدر من صاحبه من حدة وغضب ، وقال بصوته الحزين :

— مضى على اختفائها زهاء شهرين يا بني . كان حدثا مروعا مفرعا ارتجت له القلوب . والله يعلم أننا لم نأل جهدا في البحث والاستفسار ، ولكن ما باليد حيلة !

فضرب عباس كفا على كف ، وقد احتقن الدم بوجهه ، وازدادت عيناه جحوظا ، وقال وكأنه يخاطب نفسه :

— زهاء شهرين !.. رباه .. هذا تاريخ قديم . لا أمل في العثور عليها . ماتت ؟.. غرقت ؟.. خطفت ؟.. من لي بأن أدرى ؟.. خبرني بما يقول الناس ؟

فقال عم كامل وهو يرمقه بحزن وحنان :

— ظنوا ظنونا كثيرة ، ثم رجحوا أنها ذهبت ضحية لحادث ، أما الآن فلا يذكر شيئا ..

فهتف الشاب متأوها :

— طبعا .. طبعا ، فلا هي ابنة لأحد منهم ، ولا قرية أحد ، حتى أمها ليست بأماها . ترى ماذا حدث لها ؟.. كنت في هذين الشهرين أسعد الناس أحلاما .

أرأيت كيف يحلم إنسان بالسعادة إذ الشقاء يترقب يقظته ساخرا هازئا طاويا
مصيره يديه القاسيتين ؟!.. ولعلى كنت أنعم بلذيذ السمر بينما كانت تنهرس
تحت عجلة ، أو تتخبط في قعر النيل .. شهران يا حميدة !.. لا حول ولا قوة إلا
بالله .

ونهض قائما ضاربا الأرض بقدمه ، ثم قال بامتعاض :

— أستودعك الله .

فسأله بلهفة :

— علام نويت ؟

فقال بفتور :

— سأقابل أمها ..

وذكر وهو يدلف من باب الدكان متاثلا كيف جاء يكاد يطير من جلده
فرحا ، وكيف يذهب محطما مهيبا . فعرض على شفته ، وتسمرت قدماه وقد
بلغ منه الأسى منتهاه ، وتحول نحو صاحبه فرآه ينظر إليه بعينين مغرورقتين
بالدمع ، ففقد جنانه وهرع نحوه بلا وعى ، وارتقى على صدره في قنوط ، ونشج
منتحبا باكيا كالأطفال ..

ألم يداخله شك في حقيقة اختفائها ؟.. ألم يساوره ما يساور المحبين من
ارتباب وسوء ظن في مثل حالته ؟ الحق أن طيف شك قد لاح بخاطره ولكنه لم
يلق إليه بالا فتبدد . كان بطبعه شديد الثقة ، يجود بالظن الحسن بغير حساب .
كان طيب القلب جدا ، ومن هذه القلة من الناس الذين ينزعون بفطرتهم إلى إقامة
المعاذير لغيرهم ، واختيار أخف التأويلات لأفزع الفعال . ولم يغير الحب من
طبعه هذا ، بل لعله رسخه وقواه ، فلم تظفر منه وسوسة الغيرة وهممة الشك
بأذن مرهفة . وقد أحب حميدة حبا شديدا باركته فطرته الطيبة بثقة وطمأنينة .
وآمن — إلى هذا كله — بأن فتاته أكمل فتاة في الدنيا التي لم ير منها شيئا يذكر .
فلم يداخله شك فيها ، أو أن طيف الشك الذي لاح له لم يجد في قلبه مرتعا يعبث

فيه . وقد ذهب لمقابلة أمها ذلك اليوم ، ولكنها لم ترو له غلة ، وأعادت عليه ما قصه عم كامل بصوت مختنق بالعبرات . وزعمت له أن الفتاة كانت لا تفتأ تتذكره وتترقب عودته بصبر فارغ فضاغت بكذبها أحزانه ، وغادرها كما جاءها كسير الفؤاد مبيل الفكر معذب النفس . وغادر الزقاق تسوقه قدماه الثقيلتان ، وقد زعفر الأصيل هامة النهار ، تلك الساعة التي اعتاد — في الأيام الخوالي — أن يرى فيها مطلعها المحبوب إذا خرجت لنزهتها اليومية . وقطع الطريق ذاهلا عما حوله ، فتمثلت لعينه بجسمها الملفوف في الملاءة السوداء وعينها النجلاوين المحبوتين ، وهفت على قلبه ذكرى السوداع الأخير على البسطة ، فتنهد من الأعماق ، ونفخ محزوننا قانطا . ترى أين هي الآن ؟ .. ماذا تصنع ؟ وماذا صنع الله بها ؟ .. أتعيش على ظهر الأرض أم ترقد في قبر من قبور الصدقة ؟ .. رباه .. كيف تحجر قلبه طوال ذلك العهد فلا استشف رية ولا شام نذيرا ! .. كيف استنم إلى طمأنينة الأحلام ولذة المنى فأكب على العمل غافلا عما يخبئه له الغد ؟ ! .. وأيقظه الزحام من ذهوله فتنبه إلى الطريق ، هذا الموسكى طريقها المختار بأناسه ودكاكينه ، كل شيء فيه باق على حاله ، إلا هي ، اختفت كأن لم تملأ الدنيا بهاء بالأمس . وألمت به رغبة في البكاء ، ولكنه لم يستسلم لها هذه المرة . لقد أراحه البكاء على صدر عم كامل ، وأرخى توتر أعصابه ، وتركه لحزن عميق هادئ ، فيجدر به الآن أن يتساءل عما هو فاعل ، أيدور على الأقسام وقصر العيني .. ولكن ما جدوى ذلك ؟ ، أيدوخ في شوارع القاهرة منادين باسمها ؟ ، أيطرق أبواب البيوت بابا بابا ؟ . لله ما أعجزه وما أعجز حيلته . إذن هل يعود إلى التل الكبير متناسيا ما وراء ظهره ؟ ، ولكن لماذا يعود ؟ ، لماذا يصبر على تحميل نفسه آلام الغربة ؟ . لماذا يكد ويكدح ويجمع النقود ؟ . الحياة بغير حميدة عبء ثقيل لا طائل تحته . غاضت في قلبه مشاعرها جميعا إلا فتورا يزهرق الأنفاس وخمودا يقتل الإحساس ، وهوى إلى هذه الحالة المضنية التي تبدو فيها الحياة فراغا كئيبا يحدق به سد هائل من القنوط . كان يعيش على الفطرة

لا يدري شيئاً عما وراءها . مخلصاً لقوانين الحياة الأزلية ، فوجد في الحب جوهر حياته وخلودها . فلما أن فقدته فقد الأسباب التي تصله بالحياة ، وتردى مزعزعا كذرة هائمة في الفضاء . ولولا أن الحياة — التي تجرع غصص الآلام — تتقنن في إغراء بنيتها بالتعلق بها حتى في أحلك أوقاتها ، لحتم عمره وقضى . ولكنه مضى في سبيله حائرا قد ضل هدفه ، بل شعر في تلك اللحظة أنه ضله إلى الأبد . بيد أنه ما زال معلقا بخيط يدق على وعيه ولمح في عرض الطريق بنات المشغل العائدات فما يدري إلا وهو يتجه نحوهن ويعترض سبيلهن ، فوقن داهشات وقد تذكرنه في غير مشقة ، وقال لهن بلا أدنى تردد :

— مساء الخير يا بنات ، لا تؤاخذنني ، ألا تذكرن صاحبتك حميدة ؟
فقلت إحداهن :

— نذكرها جميعا !.. ونذكر كيف اختفت فجأة فلم نرها منذ ذلك اليوم !
فسأل بصوت ينطق بالأسى :

— ألا تدرين شيئا عن اختفائها ؟

فقلت أخرى وقد لاحت في عينيها نظرة ماكرة :

— لا ندري شيئا على وجه اليقين . إلا ما قلته لأمها حين جاءتنى يوم اختفائها
تسأل عنها ، من أننا رأيناها مرات بصحبة أفندي يسيران معا في الموسيقى ..
وحملق في وجه محدثته بذهول وقد ارتعش جانب فيه ، وسألها :

— أرايتها بصحبة أفندي !؟..

ونال منظره من الفتيات فاخفت من أعينهن نظرات خبيثة ساخرة ، وتكلفن الرزانة ، وقالت محدثته برقة :

— نعم يا سيدى .

— وأخبرت أمها بذلك ؟

— نعم ..

وشكرهن بكلمة ، وسار في طريقه . ولم يداخله شك في أنهم سيجعلن منه

حديثهن بقية الطريق ، ولعلهن يضحكن كثيرا من الفتى المغفل الذى هاجر إلى التل الكبير ليجمع ثروة لمحبوته ، فأثرت عليه آخر وفرت معه . يا له من مغفل حقا !. ولعل أهل حيه جميعا قد لغطوا بغفلته . وقد رحمه عم كامل فأخفى عنه الحقيقة ، كما أخفتها أم حميدة ، وهل كان بوسعهما أن يفعلوا غير ما فعلوا ؟. وخاطب نفسه ولما يفق من ذهوله قائلا : « هذا ما حدثنى به قلبى لأول وهلة . » ولم يكن صادقا فى قوله ، لأن الشك لم يلم به إلا الإمامة خفيفة ، ولكنه لم يعد يذكر فى محنته غير هذه الإمامة الخفيفة من الشك ، بيد أنه تاه فى اللحظة التالية وتساءل وهو ييسط أصابعه ويقبضها فى حركات تشنجية . « رباه كيف أعقل هذا !. أهربت حميدة حقاً مع رجل ١٢ . من يصدق هذا ١٢ . » لم تمت إذن ، ولم يعرض لها حادث ، ولقد أخطأوا خطأ كبيراً فى البحث عنها فى الأقسام وقصر العيسى . وغاب عنهم أنها تنام سعيدة رخية البال بين ذراعى الرجل الذى خطفها . ولكنها وعدته ومنته ، أفكانت تخادعه ؟ .. أم توهمت خطأ أنها تميل إليه .. كيف عرفت ذلك الأفندى ؟ ومتى أحبته ؟. وأى جرأة شيطانية أغرتها بالفرار معه !.. كان ممتقع اللون ، بارد الأطراف ، تلوح فى عينيه نظرة ساهمة قائمة ، وتبرق فيها من آن لآن لمحة خاطفة تقدح شرراً . خطر له خاطر فصعد رأسه إلى الدور على جانبي الطريق ، ينظر إلى نوافذها ويتساءل : فى أى دار ترقد لصق رجلها الآن . انقشع غبار الحيرة ، وحل محله غضب نارى ومقت نهم ، وتقبض قلبه وتلوى تحت ضغط يدي الغيرة القاسيتين ، غير أن شعوره بالخيبة — الناشئة من ذهاب الأمل وتمرغ المعبود فى التراب — كان أفظع من الغيرة نفسها . إن الغرور والكبرياء وقود للغيرة يؤرثان لهيبها . ولم يكن حظه منهما ملحوظا ، ولكنه كان شديد الأمل كبير الأحلام ، فذوى أمله وتبدد حلمه ، وانفجرت نفسه غضبا . وأفاده الغضب من حيث لا يدري ، فاستنقذه من ذلك الحزن الصامت الثقيل ، وعلله بالانتقام يوما ولو على سبيل البصق والازدراء . والواقع أن فكرة الانتقام استحوذت على مشاعره فى تلك الساعة الجهنمية من الغضب والقهر ، فتمنى أن

يتمكن من طعن قلبها الغادر بمدية حادة . الآن يستطيع أن يدرك سر مواظبتها على الخروج في العصارى ، فقد كانت تنطلق عارضة نفسها على ذئاب الطرق ! . ولكنها جنت بغير شك ، جنت بهذا الأفندى ، وإلا لما آثرت العهر معه على الزواج به ! . وعض على شفته ألما وحنقا لهذا الخاطر : وانتقل راجعا قد ضاق ذرعا بالمشى والوحدة . وتحسست يده علبة العقد في جيبه ، فانطلقت من فمه ضحكة جافة ساخرة كأنما صرخة غضب في رداء ضحكة . ليته يستطيع أن يشنقها بسلسلة هذا العقد الذهبية ! وذكر كيف وقف في دكان الصايغ يقلب عينيه بين الحلى وقلبه يكاد يقفز من صدره جذلا وسرورا ، وهفت الذكرى على قلبه كالنسيم الوانى إلا أنها التقت بوهج قلب مضطرم فانقلب النسيم حرورا ..

ما إن وقع السيد سليم علوان على العقد المبسوط على المكتب حتى شد الخواجا الجالس قبالة على يده وقال له :

— مبارك عليك يا سليم بك . هذه ثروة طائلة ..

وعلق بصر السيد بالخواجا وهو يمضى في سبيله حتى توارى وراء باب الوكالة ، صفقة رابحة . وبحسبه أنه تخلص من مخزون الشاى الذى اشتراه الخواجا جملة فربح الكثير وأمن شر المخاوف ، خصوصا وأن صحته لم تعد تطيق أهوال السوق السوداء ، بيد أنه قال لنفسه ساخطا متبرما « ثروة طائلة ولكنها ملعونة ، لقد حلت اللعنة بكل شئ فى دنيائى » . والحق أنه لم يبق من السيد القديم إلا شبح هزيل ، وكانت أعصابه أشد ما يرضيه ، وكأنها تعهدت بالقضاء عليه ، فسامته تفكيرا متواصلا فى الموت حتى صار الموت شغله الشاغل . ولم يكن الرجل فى الأصل بالضعيف الإيمان ولا كان بالرعديد الجبان، ولكن تهافت أعصابه أنساه

آداب الإيمان وألوى بشجاعته . وما انفك يفكر في ساعة الاحتضار — وقد ذاق بعض مرارتها في إبان مرضه — ويستذكر ذكرياته عنها عمن حضرهم الموت من أقاربه ، ذاك الرقاد المستسلم الأليم ، وصعود الصدر وهبوطه ، وهذه الحشجة المتقطعة ، وإظلام المقلتين ، وبين هذا وذاك تنتزع الحياة من الأعماق والأطراف ، وتودع الروح الجسد . أفيقع كل هذا في يسر ؟! إن الإنسان ليجن إذا انتزع ظفره ، فكيف يكون إذا انتزعت روحه وحياته ؟! ولا يدرى إلا المحتضر نفسه حقيقة هذا الألم ، فما نستطيع أن نلمس غير آثار الاحتضار الظاهرة ، أما صداها في الروح ورجعها في الجسد ، فسر الميت الذي ينطوى عليه صدره ، ويقبر معه في جدته ، وآخر ذكرياته عن آلام الدنيا في أفطع حالاتها وأبشعها ، ولو أنه أتيح لميت أن ينطق عن عذاب احتضاره لما نعم إنسان بساعة صفو واحدة في الحياة ، ولما ت الناس ذعرا قبل أن تدركهم النهاية . وطالما تمنى أن يسلكه الله في زمرة المحظوظين ممن يموتون بالسكينة القلبية ، ما أسعدهم بين الأحياء والأموات على السواء ، إنهم لموتون وهم يتكلمون أو يأكلون ، أو حين يقومون أو يقعدون ، كأنهم يمكرون بالاحتضار فيستحيون منه غفلة ثم ينسلون خفية إلى باب الأبدية !.. ولكنه في شبه يأس من هذه الميتة السعيدة ، وقد ضرب له أبوه — وجده من قبل — مثل الميتة التي يشعر قلبه المتهافت الفرع بأنها ستجرى عليه ، احتضار طويل يغشى نصف يوم ونزع شديد تشيب له الولدان . من كان يصدق أن السيد سليم علوان — الرجل القوى السعيد — سيمسى فريسة لهذه الأفكار والمخاوف ؟.. هكذا كان ، ولم يكن الاحتضار بفزع الوحيد ، فقد انجذبت أفكاره المحمومة نحو ضجعة الموت نفسها فأطال فيها التفكير والتفلسف على طريقته ! وصور له خياله وثقافته المتوارثة عن الأجيال ، أن بعض شعوره سيلازمه بعد الموت ، أليس يقولون أن عيني الميت تريان من يحدقون به من الأهل ؟.. فحتم أن يرى الموت جهرة ، وأن يشعر بالنهاية الأبدية وهي تشمله ، وأن تتصل حواسه بظلمة القبر ووحشته وغرخته وهياكله وعظامه

وأكفانه بل بضيقه واختناقه ، وما يحتمل أن يتردد في النفس من أشواق وحنين وحب للدنيا وأهلها .. تمثل ذلك كله بصدر منقبض وقلب متشنج وأطراف باردة وجبين يتفصد عرقا ، ولم ينس ما وراء ذلك من بعث ونشور وحساب وعذاب ، أواه .. ما أبعد الشقة بين الموت والجنة !..

لذلك تعلق بأهداب الحياة بقوة الخوف واليأس ، على رغم أنها حياة عاطلة من أسباب النعيم ، فلم تترك له دورا يلعبه في مسرحها إلا المراجعة وعقد الصفقات ، ودأب عقب نقاهته على استشارة طبيبه ، فأكد له الطبيب شفاءه من الذبحة وآثارها ولكنه نصحه بالحذر والاعتدال . وشكا إليه عدة مرات ما يعاني من سهاد وهواجس فأشار عليه باستشارة أخصائي في الأعصاب ومن ثم مضى يتردد بين الأخصائيين في الأعصاب والقلب والصدر والرأس ، وتفتح له باب المرض عن عالم لا يقل عن عالمنا اتساع رقعة وازدحاما بالسكان من الجرائم والأعراض الخفية . ومن عجب أنه لم يكن يؤمن لا بالطب ولا بالأطباء ، ولكنه آمن بهما في اضطرابه ، ولعل إيمانه هذا كان من بين أعراض المرض الذي ألم بأعصابه !..

في هذا الجحيم من الهواجس كادت تنحصر حياته ، وفي أوقات عمله ، وأوقات السلام التي تصفو فيها نفسه وتنقى من نمش الهواجس كان كأنه يتفرغ لإفساد علاقاته بالمحيطين به من البشر ، فهو إما في حرب مع نفسه وإما في حرب مع الناس . وأدرك عمال الوكالة من بادئ الأمر أن سيدهم قد استحال شخصا شاذا ملعونا ، فترك الوكيل وظيفته بعد خدمة طويلة استمرت ربع قرن من حياته ، وبقي من بقي من العمال على مضض وتوجس واستكراه . وقال عنه أهل الزقاق إنه بين العقل والجنون ، وقالت حسنية الفرانة بشماتة لم تحاول إخفاءها « إنها صينية الفريك والعياذ بالله » . ويوما قال له عم كامل عن قصد حسن ونية سليمة :

— هلا أمرتني يا سي السيد أن أصنع لك صينية بسبوسة مخصصة يرد عليك

ثوب العافية بإذن الله !

ولكن السيد غضب غضبا شديدا وانفجر صائحا فيه :
— إليك عنى أيها الغراب . أجننت يا أعمى القلب والبصيرة! .. إن أمثالك
فقط من البهائم تبقى لهم أمعدتهم سليمة حتى القبر ..
ولم يعد بعدها عم كامل إلى التعرض له بخير أو شر .
أما زوجه فباتت رمية سهلة لغضبه وسخطه ، ولم يفتأ يلقي على حسدها
المزعوم له تبعة ما حصل له في جسمه وعقله ، وكان ينتهرها قائلا :
— لشد ما نقت على صحتي وعافيتي ، حتى تحطمت بين يديك ، فهنيئا
لك الراحة يا أفعى ..

واشتد به سوء الظن ، حتى ارتاب يوما أن يكون نما إليها عزمه على الزواج من
حميدة ، لأن أمثال هذه الأمور تتصدى لها أعين كثيرة فتراها في خفية من
صاحبها ، وتتطوع ألسنة كثيرة لإذاعتها وإيصالها لصاحب الشأن ، ولم يستبعد
عند ذاك أن تكون المرأة قد انتقمت منه بأن عملت له « عملا » هو الذى أودى
بصحته وعقله ! .. ولم يكن في حالة تسمح له بأن يزن ما يعرض به من فكر بميزان
العقل ولا أن يسبرها بمسبار الحكمة ، فسرعان ما انقلبت الريبة يقينا . فتميز
غيظا ، وامتلا حنقا ، وتوثب للانتقام . اشتط في معاملتها ، ودأب على سبها
ونهرها، ولكنها قابلت قسوته بالامثال والصبر والأدب، فلم يجده شططه، ولبت
يتحرق إلى إثارتها، وإخراجها من التعوذ بالصمت والصبر إلى الأخذ بأسباب
التشكى والتذمر وذرف الدموع ، فقال لها مرة بجفاء وازدراء :

— لقد مللت عشرتك ، ولا أخفى عنك أنى شارع فى الزواج ، سوف

أجرب حظى مرة أخرى ..

وصدقته المرأة ، فتصدع بنيان رزانتها المتناسك ، وفزعت إلى أبنائها فباحث
لهم بما تلقاه على يديه من سوء القول والفعل . وهالهم الأمر ، ودهمهم الخطب ،
فأيقنوا أن أباهم ينزلق إلى مهوى وخيم العواقب ، وزاروه واقترحوا عليه — إبقاء

على صحته — أن يصفى تجارته ويفرغ للراحة والعناية بنفسه . وفطن الرجل إلى ما يساورهم من خوف غير جديد عليه ، فغضب غضبة هائجة ، وعنفهم بفظاظة لا عهد لهم بها ، وخاطبهم بحدة قائلا :

— حياتى ملك لى أصرفها كيفما أشاء ، وسأبقى عاملا ما راق لى العمل فأعفوني من نصحكم المغرض .

وضحك متهمكما ثم استدرك وهو يقلب فى وجوههم عينيه الذابلتين :
— ألم تحدثكم أمكم عما اعتزمت من الزواج مرة أخرى ؟ .. هو الحق . لقد شرعت أمكم فى قتلى ، فساوى إلى كنف امرأة جديدة على شىء من الرحمة ، وإذا تضاعف عددكم بهذا الزواج فثرونى كفيلة بإشباع أطماعكم جميعا ..
وأنذرهم بأنه سيقبض يده عنهم ، وأن على كل منهم أن يعتمد فى حياته على موارده الخاصة . قال بسخط وغضب :

— إنى كما ترون لا أكاد أذوق غير مر الدواء ، فلا يصح أن يتمتع الآخرون بمالى .

قال كبيرهم :

— كيف تخاطبنا بهذه اللهجة المرة ونحن أبناءك البررة ؟

فقال السيد ساخرا :

— بل أبناء أمكم .

ونفذ وعيده فلم يعد يحمل شىء من طرفه إلى بيوت أبنائه ، وحرّم مطبخ سراياه من الأنواع الفاخرة التى اشتهر بها ، والتى حرمت عليه هو بعد مرضه ، ليشاركه الجميع — خصوصا زوجه — فيما فرض عليه . ولهج بحديث الزواج المزعوم حين وجد أنسهم النافذ الذى تحطمت دونه ما تذرّع به زوجه من صبر وأناة . وتشاور أبنائه فيما بينهم ، وقد ألفاهم الخطب قلبا واحدا فى التوجع لأبيهم ، والإخلاص له فى محنته ، وقال كبيرهم :

— نتركه وشأنه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

بيد أن المحامي قال بشيء من الحزم مستدركا :
— اللهم إلا إذا شرع في الزواج حقا ، فأشد ما نتخذه من احتياط أهون من
أن نتركه هملا بين أيدي الطامعين .

وكان اختفاء حميدة حدثا فظيعا في حياته . ومع أنه لم يعد إلى ذكرها — منذ
مرضه — فتخلفت عن تيار شعوره ، إلا أن خبر اختفائها أثار اهتمامه وجزعه ،
فتتبع بقلق بحث الباحثين عنها . ولما تناهى إليه ما تهامس به اللاغطون من أنها فرت
مع رجل مجهول ، انزعج انزعاجا شديدا ، وثار غضبه ذلك اليوم فلم يجروا أحد
على الدنومنه ، فرجع مع المغيب إلى بيته مهدم الأعصاب ، وأصابه صدام شديد
أرقه حتى مطلع الفجر . وحنق على الفتاة الهاربة حنقا كبيرا ، وتأكل قلبه حقدًا
وغضبا ، وتمنى أن يراها يوما متدلية من مشنقة ، مندلقة اللسان ، جاحظة
العينين . ولما علم بعودة عباس الحلو من التل الكبير سكن روعه لغير ما سبب
واضح ، ودفعته رغبة لا تقاوم إلى استدعاء الشاب ، وقربه ، ولاطفه في
الحديث وسأله عن أحوال معيشتة ، متجنبًا ذكر الفتاة ، فسر الشاب بعطفه ،
وشكر له حذبه ، وأقبل على الحديث في استفاضة من استنام إلى لطفه ، والسيد
يسترق إليه النظر من عينيه الغائرتين .. وفي الأيام الأولى التي أعقبت فرار حميدة
وقع حادث — ربما كان في ذاته تافها — ولكنه مما يؤرخ به في زقاق المدق . كان
السيد سليم علوان متجها نحو الوكالة في ضحوة من النهار فالتقى بالشيخ درويش
ذاهبا لبعض شأنه . وكان السيد — في عهده الأول — من محبي الشيخ
درويش ، وكثيرا ما تعاوده بالبر والإحسان والهدايا ، ولكنه أغفله في مرضه
وأهمله وكأنه لم يعد يشعر له بوجود . ولما التقيا على كשב من باب الوكالة هتف
الشيخ درويش وكأنه يخاطب نفسه :

— اختفت حميدة ..

فهت السيد ، وظنه يعنيه بقوله ، فما تمالك أن صاح به :

— مالى أنا و لهذا !

ولكن الشيخ درويش واصل خطابه قائلا :

— ولم تحتف فحسب ، ولكنها هربت ، ولم تهرب فحسب — ولكنها هربت مع رجل ؛ ويسمون ذلك فى الإنجليزية elopement وتهجيتها .. ELOPE وقبل أن يتم الرجل تهجية الكلمة انفجر السيد صارخا :
— إنه ليوم شؤم إذ أصبحت على وجهك يا مجنون ، اغرب عن وجهى عليك لعنة الله ..

وجهد الشيخ فى مكانه وتسمر فى الأرض ، ولاحت فى عينيه نظرة طفل مذعور إذا لوح له شخص بعصاً مهددا ، ثم أعول باكيا . ومضى السيد لطيته ، ولبت الشيخ درويش بموقفه باكيا ، وعلا صوته فصار أشبه بالصراخ ، حتى أهاب نواحه بالمعلم كرشة وعم كامل والحلاق العجوز فهرعوا إليه متسائلين ، وقادوه إلى القهوة ، وأجلسوه على أريكته وهم يطيبون خاطره ويسكنون روعه . وطلب له المعلم كرشة قدحا من الماء ، وربت عم كامل على كتفه قائلا بتوجع :
— وحد الله يا شيخ درويش ، اللهم اكفنا سوء .. بكاء الشيخ نذير غير محمود العواقب .. اللهم لطفك .

ولكن الشيخ ازداد بكاء وعويلا ، فاضطربت أنفاسه ، وارتجفت أوصاله ، وأطبقت شفتاه فى توتر وتشنج ، وراح يشد ربطة رقبته بعنف ، ويضرب الأرض بقبقابه ، وفتحت نوافذ الدور وأطلت الرعوس فى دهشة وانزعاج ، وجاءت حسنية الفرانة ، وشق النحيب طريقه إلى مسمى السيد سليم علوان فى الوكالة ، فأنصت إليه غاضبا حانقا ، وظل ينصت إليه هائجا ، وجعل يتساءل متى يمسك عن العويل ؟ .. وعبثا حاول أن يغيب بانتباهه عنه ، فكأنه كان يلح فى مطاردته والتضييق عليه ، حتى خيل إليه أن الدنيا جميعا تبكى وتنوح . وسكت غضبه وسكن هياجه ، ولكن ما طفق البكاء يرعش أوتار قلبه فترن فى إشفاق وألم . ليته شكم غضبه ولم ينتهر الشيخ الولي ! .. ليته لم يصادفه فى

طريقه !. وما كان ضره لو أغضى عنه ومربه مر الكرام !. وتأوه نادما ، ومضى يقول : إن الإنسان في مثل حالته من المرض حرى بأن يزدلف إلى الله لا أن يغضب وليا من أوليائه . وطوى كبريائه ، ونهض قائما ، وغادر الوكالة متوجها إلى قهوة كرشة . وقصد الشيخ الباكي غير عابئ بالأنظار التي سددت نحوه في دهشة ، ووضع يده على منكبه برفق ، وقال بلهجة تنم عن الاعتذار والأسف :
— يا شيخ درويش ... سامحنى .

كان عباس الحلو يجلس مختبئا في شقة عم كامل حين دق الباب بعنف ، فنهض إليه وفتح فرأى حسين كرشة مرتديا القميص والبنطلون ، تبرق عيناه الصغيرتان كعادته ، ثم بادره قائلا :

— كيف لم تقابلنى وهذا ثانى يوم لك فى المدق !.. كيف حالك ؟

فمد له الحلو يده مبتسما ابتسامة باهتة وقال :

— كيف أنت يا حسين ؟... لا تؤاخذنى فمتعب أخاك لا ناس ولا مهمل .

هلم نسر معا .

وخرجا معا . وكان عباس الحلو قد قضى ليلته مسهدا ، وقطع النهار متفكرا ، فسار مصدع الرأس ، مثقل الجفون . لم يكد يبقى من ثورة الأمس أثر ، سكت الغضب الجنونى ، وبرد الهياج الحامى ، وتلاشت خواطر الانتقام الدموى ، على حين رسب فى قرارة نفسه حزن عميق ويأس مداهم ، وبمعنى آخر تخلصت نفسه مما لا تطيقه من ألوان الانفعال ، مسلمة بكليتها للحزن واليأس .
وقال له حسين متسائلا :

— أما علمت بأنى كنت هجرت بيتنا عقب سفرك مباشرة ؟

— حقا .

— وتزوجت ، وأخذت بأسباب حياة رائعة ..

فقال الحلو وهو يكسب صوته شيئا من الاهتمام الذى لا يجده .

— حمدا لله .. مبارك .. عال ... عال ..

وكانا بلغا الغورية ، فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح بحدة :

— بل زفت وهباب !.. استغنوا عني فعدت إلى الزقاق على رغمي ، وأنت

هل استغنوا عنك أيضا ؟.

فأجابه الشاب بفتور :

— كلا .. ولكنى منحت إجازة قصيرة .

فأكلت الغيرة قلبه ، وضحك ضحكة باردة ثم قال :

— أنا الذى دفعتك إلى العمل دفعا وأنت تمنع ، وها أنت ذا تنعم به على حين

أتسكع أنا متعطلا .

وكان عباس من أدرى الناس بما تنطوى عليه طبيعة صاحبه من غل وشر فقال

بانكسار :

— نهايتنا قرية على أية حال ، هذا ما يؤكده لنا .

فارتاح حسين قليلا ، ثم استدرك يقول بصوت أسيف :

— كيف انتهت الحرب بهذه السرعة ؟!.. من كان يصدق هذا ؟!

فهز الحلو رأسه دون أن ينبس بكلمة . سيان عنده أن تستمر الحرب أو

تنتهى ، وأن يبقى فى عمله أو يفصل منه ، إنه لا يبالى شيئا على الإطلاق . وكاد

يضجره حديث صاحبه ، إلا أنه ألقاه أخف من الوحدة والفكر ، ومن ناحية

أخرى تحمله — كما اعتاد أن يتحمله — دفعا لشره . واستطرد حسين قائلا :

— كيف انتهت بهذه السرعة !.. كان الأمل معقودا بهتلا أن يطيلها إلى ما

لا نهاية ، ولكن أنهاها حظنا الأسود .

— صدقت ..

فصاح حسين بشدة :

— نحن تعساء . بلد تعيس وأناس تعساء .. أليس من المحزن ألا نذوق شيئا من السعادة إلا إذا تطاحن العالم كله في حرب دامية ؟! . فلا يرحمنا في هذه الدنيا إلا الشيطان !

وأمسك قليلا وهما يشقان طريقا بين سابلة السكة الجديدة ، وقد أخذ ستار الظلام في الانتشار ، ثم قال متهدا في حسرة :

— لشد ما تمنيت أن أكون جنديا محاربا ! . تصور حياة جندي باسل ، يخوض غمار الحرب ، وينتقل من نصر إلى نصر ، يركب الطائرات والدبابات ، يهاجم ويقتل ويسبي النساء الفارات ، ويذل له المال عن سخاء ، فيسكر ويعربد فوق القانون . هذه هي الحياة . ألا تمنى أن تكون جنديا ؟ .

الحق أن ركبتيه كانتا تتخلخلان إذا سمع صفارة الإنذار ، وكان من رواد النخباء الموظفين فكيف يتمنى أن يكون جنديا من المحاربين ؟ بيد أنه تمنى صادقا لو كان خلق جنديا فظا متعطشا للدماء فيسهل عليه الانتقام ممن آذوه وبددوا حلمه في السعادة والحياة الرغيدة ! . وقال بلهجته الفاترة :

— من لا يتمنى ذلك ؟!

وانتبه إلى الطريق ، فازدحمت برأسه الخواطر ، رباه . كيف للزمان أن يمحو ذكريات هذا الطريق من صدره ؟! ، إن أرضه لا تزال تحمل آثار قدميها اللطيفتين ، وأن هواءه لا يبرح معبقا بأنفاسها المحبوبة ، وكأنه يراها رؤية العين وهي تخطر بقوامها المعتدل المشوق ، أنى له أن يطمع في نسيان هذا كله ؟! . وقطب متغيظا على نفسه لجودها بهذا الحنان لغير أهله ، وأطبق فمه فلاح وجهه صارما قاسيا ، وعاودته لفحة من ثورة الأمس ، ينبغي أن ينبذ من ينبذه ، وأن يطرح من يخونه ، وألا يحرق أضلعه حزنا — ولا حتى غضبا — على من يرقد ناعما بين أحضان غريم له . تبا للقلب من صاحب خئون ، دسيسة على الروح والجسم ، يحب من لا يحبهما ، ويحرص على من يفرط فيهما ، فيسبم صاحبه

الخسف والهوان . واستيقظ عند ذاك على صوت حسين الصاحب وهو يلكره هاتفا :
— حارة اليهود .

وأوقفه بيده عن السير متسائلا :

— ألا تعرف حانة فيتا ؟.. ألم تدمن الخمر في التل الكبير ؟. فأجابه عباس
قائلا باقتضاب :

— كلا ..

— كيف عاشرت الإنجليز ولم تشرب الخمر ؟ يا لك من خروف تعس ..
الخمر شراب منعش ومفيد للمخ ، تعال ..

وتأبط ذراعه ومال به إلى حارة اليهود وكانت فيتا تقع على بعد يسير من
مدخلها ، على جانبها الأيسر ، وهى أشبه بدكان ، متوسطة ، مربعة الشكل ،
تمتد في جانبها الأيمن طاولة ذات سطح رخامي ينهض وراءها الخواجا فيتا ، وقد
ثبت في الجدار خلفه رف طويل صفت عليه الزجاجات ، وقامت في نهايته من
الداخل براميل ضخمة ، وعلى سطح الطاولة وضعت جفان الترمس والأقداح ،
ازدحم حولها الشاربون من أهل البلد ، حوزية وعمال وآخرون حفاة ونصف
عراة كالشحاذين إن كان الشحاذون يسكرون . وبقي من الحانة غير ذلك
موضع اتسع لبعض المناضد الخشبية . فجلس إليها أعيان السوق والعاجزون عن
الوقوف لكبر أو لسكر شديد . ورأى حسين مائدة شاغرة في نهاية الحانة فقاد
صاحبه إليها ، وجلسا حولها . وقلب عباس عينيه في المكان الصاحب المدوى في
صمت وقلق ، حتى استقرتا على غلام في الرابعة عشرة قصير مفرط في البدانة ،
مطين الوجه والجلباب ، حافي القدمين ، يزحم الشاربين ويكرع من قدح
مترع ، ويتمايل رأسه سكرا ، فاتسعت عيناه دهشة ولفت حسين إليه ، ولكن
هذا لوى بوزه استهانة وقال بسخرية :

— هذا عوكل بائع الجرائد . يبيع الجرائد في النهار ويسكر في الليل . غلام
ولكن قل في الرجال مثله . رأييت يا غشيم !

ومال برأسه نحوه قليلا وقال :

— كأس النبيذ بقرش ونصف لذة للمتعطلين أمثالي . منذ شهر كنت أشرب

الويسكى فى بار فنش ولكنها الدنيا القلب ، معلش يا زهر !.

وطلب كأسين ، فجاء بهما الخواجا ووضعهما على المائدة ومعهما طبق

ترمس . ونظر عباس إلى كأسه بقلق وقال مشفقا من لسان صاحبه إشفاقه من

الإقدام على التجربة الجديدة :

— يقولون إنها مؤذية !.

فقبض حسين على قدحه ويقول بسخرية :

— تخاف على نفسك ؟! . خلها تقتلك .. فى داهية يا سيدى ، لا أنت فى

الزيادة ولا فى النقصان ، صحتك .

وقرع كأسه بكأسه ، ثم أفرغه فى جوفه بغير مبالاة ، ورفع عباس كأسه

وكرع منه كربة ، ثم أبعدته عن فيه متقززا ، وقد شعر كأن لسانه من لهب اندلع

فى حلقه ، فتقبض وجهه وكأنه لعبة من المطاط ضغطته أصابع طفل ، وقال

متأفقا :

— فظيع . مر . حامى .

فتضحك حسين ساخرا ، شاعرا بزهو واستعلاء وقال بازدرأ :

— تشجع يا طفل ، الحياة أمر من هذا الشراب ، وأونخم عاقبة ..

ورفع كأسه ووضع حافته بين شفتيه وهو يقول « اشرب حتى لا يندلق على

قميصك » فتجرعه الآخر حتى الثمالة . ونفخ متقززا ، ثم أحس حرارة فى بطنه ،

سرت بسرعة عجيبة ناشرة وهجها فى جوفه ، فشغل بالانتباه إليها عن تقززه ،

وتتبع أثرها وهو يندفع مع دمه ، ويجرى فى عروقه ، حتى إذا بلغ رأسه خفت

وطأة الدنيا عليه قليلا ، وقال حسين بسخرية :

— اكتف اليوم بكأسين ولا تزد ..

وطلب كأسا أخرى لنفسه وراح يقول :

— أقيم الآن مع أبى ومعى زوجى وشقيقها ، ولكن نسيبى وجد عملا فى الترسانة وسيفارقنا اليوم أو غدا . ويقترح أبى على أن أشرف على القهوة نظير ثلاثة جنيهات فى الشهر ، وبمعنى آخر أشتغل من الفجر حتى نصف الليل بثلاثة جنيهات !.. ولكن ماذا تقول لحشاش مجنون ؟!.. وهكذا ترى أن الدنيا تناصبني العدا ، وتستفز غضبى ومقتى ، وليس عندى إلا جواب واحد : فأما الحياة التى طابت لنا وإما حرقنا الدنيا ومن عليها ..

فسأله عباس ، وكان أخذ يستشعر راحة وجدها عجيبة لذيدة بالنسبة لما تعناه طوال يومه من هم وفكر :

— ألم توفر مالا ؟..

فقال حسين بحدة وسخط :

— ولا مليما ! كنت أسكن شقة نظيفة بالروائية ، فيها الكهرباء والماء ، وكان عندى خادم صغيرة تقول لى بكل احترام « يا سيدى » ، وكنت أرتاد السينما والفرقة القومية ، ربحت كثيرا ، وضيعت كثيرا ، وهذه هى الحياة . إن أعمارنا ذاهبة فلماذا تبقى النقود ؟ بيد أن النقود ينبغى أن تساير العمر حتى نهايته ، وإلا فالويل لمصر إذا لم تساير النقود الأعمار . ليس لدى الآن إلا قليل من الجنيهات غير حلى زوجى ..

وصفق طالبا كأسا ثالثة ثم قال بإشفاق :

— والأدهى من ذلك أن زوجى تقيأت فى الأسبوع الماضى ..

فقال عباس متظاهرا بالاهتمام :

— لا بأس عليها .

— لا بأس ولا زفت ، هذه أمارات الحبل ، كما تقول أمى ، وكأن الجنين

غشت نفسه تفرزا من الحياة التى تنتظره فأعدى أمه .

ولم يطق عباس أن يتابعه بالإصغاء لسرعته وهوجته ، ولم يعد يهتم بذلك ،

وانتابته كآبة فجائية بعد أن نعم ساعة بالراحة ، ولاحظ الآخر شروده وسهومه

فقال باستياء :

— مالك ؟ .. إنك لا تصفى إلى ..

فقال عباس بصوت حزين :

— اطلب لي كأساً أخرى ..

وحقق حسين مشيئته بسرور ، وورنا إليه بنظر مريب ثم قال :

— أنت متكدر وأنا أعلم بسبب كدرك ..

فخفق فؤاد الشاب وقال بعجلة :

— لا شيء مطلقاً . هات ما عندك إني مصغ إليك ..

ولكنه لم يباله وقال بلهجة لم تخل من احتقار :

— حميدة ..

فاشتد وجيب قلبه ، وكأنه تجرع كأساً ثالثة ، فهاج دمه وسرى إليه الوجد

والحزن والغضب ، فقال بصوت متهدج :

— أجل حميدة ، هربت ، خطفها رجل ، عار وشقاء ! .

— لا تحزن كثيراً كالحمقى ، وهل طابت حياة من لم تفر عنهم نساؤهم ؟

وتناهى الانفعال بالشاب فقال بغير وعى :

— ترى ماذا تفعل الآن ؟

فضحك حسين ساخراً وأجابه :

— تفعل ما عسى أن تفعله أية امرأة فرت مع رجل ..

— أنت تهزأ بألمى .

— أملك سخيف ، خبرنى متى علمت بفرارها ؟ .. مساء الأمس ! .. كان

ينبغي أن تكون نسيتها الآن ..

وهنا أحدث عوكل — الغلام الشريب بائع الجرائد — حركة لفتت إليه

أنظار الجلوس ، وكان استوفى شربه ومضى ثملاً مترنحاً حتى إذا بلغ عتبة الحانة .

نظر فيما حوله بعينين زائغتين ورأسه يميل إلى الوراء فى عظمة وسلطنة وصاح

بلسان ملتو :

— أنا عوكل شاطر الشطار وسيد الرجال ، أسكر وأنبسط ، وها أنا ذاهب إلى عشيقتي ، فهل لأحد منكم اعتراض ؟.. أهرام ، مصرى ، البعكوكة .. واختفى الغلام تاركا وراءه عاصفة من الضحك ، أما حسين كرشة فقد عبس غاضبا ، ولاح الشر في عينيه ، وبصق بصقة طارت إلى الموضع الذى كان به الغلام ، وأخذ يسب ويلعن . كانت أقل إثارة من تحد — وهو على سبيل المزاح — كافية لإشعال غضبه وإهاجة روح الاعتداء الكامنة فيه ، ولو كان الغلام بمتناول يده للكمه أو ركله أو أخذ بتلاييه . والتفت إلى عباس — وكان يتجرع كأسه الثانية — وقال بحدة وكأنه نسى ما كانا آخذين فيه من أسباب الحديث :

— هذه حياة وليست لعبة خشبية ، يجب أن نعيش ،... ألا تفهم ؟. ولم ينتبه عباس إليه ، كان يخاطب نفسه قائلا : « لن تعود حميدة ، اختفت من حياتى إلى الأبد ، وماذا تجدى عودتها ؟ ، ولكن سأبصق على وجهها إذا التقيت بها يوما ، هذا أشد من القتل . أما ذلك الأفندى فالويل له منى ، سأدق عنقه .. » .

واستدرك حسين قائلا :

— هجرت المدق فأعادنى الشيطان إليه ، سأضرم به النار ، هذه خير وسيلة للتحرر منه ..

فقال عباس بأسى :

— زقاقنا لطيف ، وما طمعت يوما فى أكثر من حياة طيبة فيه ..
— إنك خروف ! وحلال أن تنحرف فى عيد الأضحى . علام تبكى ؟. إنك عامل وفى جييك نقود ، ولتجمعن غدا بتقتيرك مالا وفيرا فماذا تشكو ؟

فقال عباس بلهجة تشف عن الاستياء :

— إنك أكثر منى شكوى ، وعمرك ما حمدت الله ..

فحدجه الشاب بنظرة قاسية أثابته إلى رشده وجعلته يستدرك قائلا بلين :
— لا عليك من هذا ، لكم دينكم ولى دين ..
فقهقه حسين بصوت ارتجت له الحانة ، وقال وقد أخذت الخمرة تلعب
برأسه :

— خير لى أن أشتغل خمارا من أن أشتغل مكان أبى فى القهوة ، الربح هنا
موفور ، وفضلا عن هذا فالخمر مبدولة للخمار بغير حساب ..
فابتسم عباس ابتسامة فاترة وقد بات أشد حذرا فى مخاطبة صاحبه الديناميتى ،
وكان ديب الخمر يسرى فى أعصابه ، ولكنه بدل أن ينسى شجوه تركزت
خوابطه فيه . وصاح حسين مرة أخرى :

— فكرة رائعة ! .. سأتنجس بالجنسية الإنجليزية ، فى بلاد الإنجليز الكل
سواسية ، لا فرق بين الباشا وابن الزبال . فلا يبعد أن يصير ابن القهوجى رئيس
وزارة ..

وانبعثت نشوة مباغته فى دم الحلو فقال بحماس :
— فكرة طيبة ! .. سأتنجس أيضا بالجنسية الإنجليزية ..
ولكن حسين لوى شففيه ازدراء وقال بسخرية :
— مستحيل ، أنت خرع ، فالأنسب أن تتخذ الجنسية الإيطالية ، ومهما
يكن من أمر فנסافر على سفينة واحدة .. قم بنا .
ونهبنا واقفين ، وأديا حسابهما ، وغادرا الحانة والحلو يتساءل :
— أين نذهب الآن ؟

لعل الساعة الوحيدة التي داومت عليها من حياتها الغابرة هي انطلاقها إلى الخارج في الأصيل من كل يوم . ولكنها الآن تطيل الوقوف أمام المرأة المصقولة ، أصلها ثابت في الحوض الذهبي وفرعها سامق في سماء الغرفة . وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأخذت زينتها ، فبدت امرأة جديدة كأنما ولدت في أحضان النضارة ، ونمت وترعرعت في مطارف الجاه والنعيم . على الرأس عمامة بيضاء مرتفعة في تقوس كالخوذة ، عقص تحتها شعرها المدهون العبق ، الخدان والشفتان مصبوغتان بالحمرة على خلاف بقية الوجه خلا من الأصباغ ، بعد تجربة طويلة دلت على أن بشرتها البرنزية أفتن للجنود الحلفاء وأحب إليهم ، الأشفار مكحلة والأهداب مدهونة مفصلة تهدف إلى عل أطرافها الحريرية ، وعلى الجفون ظلال بنفسج مقطرة من نسائم الفجر ، هلالان مزججان خطتهما يد ماهرة مكان الحاجبين ، سلسلتان من البلاتين ذات نبقتين من اللؤلؤ تتدليان من الأذنين ، غير ساعة ذهبية في معصمها وهلال منغرس في مقدم العمامة . فستان أبيض يشف أعلاه عن قميص وردى وتنضح حاشيته بسمرة فخذها ، جورب رمادي من الحرير الخالص لبسته لا لشيء إلا غلوثمه ، وقد تطاير شذا عبق من تحت إبطيها وراحتيها وعنقها . فلشد ما تغير كل شيء !

* * *

ولقد اختارت سبيلها من بادئ الأمر بمحض إرادتها ، وبعد تجربة وعناء ، تكشف لها أفقه عن أفراح وضاعة وخيبة مريرة ، فوقفت على قمة الامتحان تردد عينيها بين اليمين والشمال متلهفة ..

علمت من أول يوم ما يراد بها ، فثارت غاضبة هائجة ، لا لتكسر إرادة

عشيقها الحديدية ، ولكن استسلاما لداعى عجرفتها وإشباعا لغريزتها المتعطشة للعراك ، ثم أذعنت بعد ذلك وكأنها تذعن بمحض مشيئتها . وأدركت بوضوح وبفضل بلاغة فرج إبراهيم ، أنها لكى تتمرغ فى التبر ينبغى أن تتمرغ فى التراب ، فلم تبال شيئا ، وفتحت صدرها للحياة الجديدة بحماس وسرور وهمة ، حتى صدق عليها عشيقها يوم وصلها بالتاكس إلى حيفا من أنها « عاهرة بالفطرة ! » وتجلت مواهبها فبرعت فى فترة قصيرة فى أصول الزينة والتبرج وإن سخرها أول الأمر من سوء ذوقها ، فكانت سريعة التعلم محسنة للتقليد ، ولكنها سيئة الاختيار لألوان ثيابها وفى ميلها إلى الحلى تبذل ملموس . ولو كان ترك الأمر على ما تشتهى وتحب لتبدت وكأنها « عالمة » فى زوايقها الفاقع وحليها التى تكاد تغطى جسمها . وفيما عدا ذلك فقد تعلمت الرقص بنوعيه ، ودلت على مهارة فى تعلم المبادئ الجنسية للغة الإنجليزية . ولم يكن النجاح الذى جاءها يجر أذياله بمستغرب ، فتهافت عليها الجنود وتساقطت عليها أوراق النقود ، وانتظمت فى سلك الدعارة لؤلؤة منعدمة النظر . وبدا لها أنها فازت بكل شيء ، وأنها لم تخسر شيئا ، فلم تكن فى عهدا الأول بالساذجة فتأسى للخدعة التى أطاحت بها ، ولم تكن بالفتاة الطيبة فتذهب نفسها حشرات على ما فقد من أمل فى الحياة الطيبة ، ولم تكن بالفاضلة حقا فتبكى على شرفها المثلوم ، ولم تشدها إلى ذلك الماضى ذكرى حسنة يهفو إليها الفؤاد فانغمرت فى حاضرها المحبوب لا تلوى على شيء . وعلى العكس من ذلك كانت غالبية الفتيات اللاتى يضطربن فى مضمارها . فمنهن جماعة يتطاحن فى قلوبهن الأسى والطمع والشقاء واليأس . ومنهن بائسات يشقن ليقمن أود أسرات جائعات . ومنهن تعيسات يخفين تحت شفاههن المصبوغة قلوبا دامية ، ونفوسا حنانة إلى الحياة الفاضلة أما هى فقد طابت بحياتها نفسا ، وأذكت عيناها الفاتنتان ضياء الزهو والحرية والرضا والفرح ، ألم تتحقق أحلامها ؟ بلى ، الثياب والحلى والذهب والرجال المتهافتون آيات على ذلك ، ناهيك بهذه السطوة السحرية التى دان لها المعجبون .. أفمن الغريب بعد

ذلك أن يلوح المدق كما يلوح السجن للآبق الطليق ؟ ولقد ذكرت يوما كيف أسفت فيما مضى على رغبة عشيقها عن الزواج منها . وتساءلت أكانت تفضل حقا أن تتزوجه ؟ . وجاءها الجواب بالنفى بلا تردد . ولو تحقق ذاك الزواج لكانت الآن قابعة في بيت ، دائبة على القيام بدور الزوجة والخادم والأم وغير ذلك من الواجبات التي تدرى الآن عن تجربة ويقين أنها لم تخلق لها . فله ما أبرعه وما أفطنه وما أبعد نظره ! . ومع ذلك أقول حذار !.. إياك أن تتصورها امرأة شهوانية ، تستحوذ عليها شهوة طاغية . هي أبعد ما تكون عن ذلك ! والحق أن شدوذها لا يكمن في قوة شهوتها . لم تكن من هذه الطائفة من النساء اللاتي تستأثرهن الشهوة وتستذهن فيجدن بكل غال في سبيل إرضائها ، كانت تتلهف بروحها وجسمها على الظهور والسطوة والعراك ، وكانت — حتى بين ذراعى الرجل الذى محضته الحب — تتلمس أنامل الحب خلل اللكمات والصفعات ، وقد باتت شاعرة بهذا الشذوذ فى عواطفها ، أو هذا النقص فى طبيعتها ، وكان ذلك من دواعى تماديها واستهتارها ، بيد أنه كان ذلك من أسباب تعلقها بعشيقها ، وعن هذا التعلق نجمت الخيبة المريرة التى منيت بها .

* * *

كانت تجتر خواطر هذه الخيبة وهى ماثلة أمام المرأة تأخذ زينتها ، ثم طرق أذنيها وقع خطاه — ذلك الرجل — رأت صورته فى المرأة وهو يقتحم عليها الغرفة بوجه جامد رزين كأنه لم يكن ذاك العاشق الوهان ، فتحجر بصرها وتشنج قلبها . ولم يعد الرجل الذى عرفته من قبل ، وهذه هى الخيبة المريرة ولو طال به العهد لربما هان الخطب بعض الشيء ، ولكنه دهمها فى نشوة الأيام الأولى ، فلم تنعم بحبه خالصا فى لذة وسعادة وحلم وخيال وهناء وأمل ، إلا زهاء عشرة أيام ! ثم غلب المدرب فيه على العاشق ، ومضى يتكشف رويدا عن التاجر ، ذلك الرجل القاسى اللفظ الذى يتجر بالأعراض . والواقع أن قلبه لم يعرف الحب قط ، ولعله من الغريب أن تقوم حياته على هذه العاطفة التى لم تحرك

فؤاده أبدا . كانت طريقته إذا أوقع فريسة في شباكه أن يمثل معها دور العاشق — وهو ما أتقنه بطول الممارسة وأسعفته عليه فحولته — حتى إذا استنامت إليه تمتع بها فترة قصيرة ، ومن ثم يطمئن إلى سيطرته عليها بما يبعثه فيها من تعلق به وما يكبلها به من قيود مالية ، ثم بما يتهدها عادة من رقابة القانون !.. فإذا تم له سعيه بدا على حقيقته ، وتمخض العاشق عن تاجر الأعراض ، ولقد عزت حميدة فتور عاطفته إلى الجو المشبع بأنفاس النساء الذى يعيش فيه ، فانقلبت ولا هم لها إلا الاستئثار به ، وصار همها هذا شغلها الشاغل الذى نغص عليها صفوها ، فباتت فريسة للحب والغيرة والغضب . واستحوذت عليها هذه المشاعر جميعا وهى تنظر إلى صورته التى تطالعها على صفحة المرأة، فتحجر بصرها وتوثبت إرادتها وتوترت أعصابها . أما هو فقال بلهجة سريعة متظاهرا بالعجلة :

— أنتهيت يا عزيزتى ؟..

ولكنها لم تعبأ به ، وتعمدت ألا تجيبه استكراها لما يبدى من ملاحظات عن « العمل » وتذكرت بحسرة عهدا لم يكن يحدثها إلا عن الحب والإعجاب ، الآن لا تنفرج شفتاه إلا عن العمل أو الربح .. والآن لا تستطيع عنه فككا بحكم هذا العمل ، وبطغيان عواطفها نفسها . وإن الغضب ليملاً صدرها ، ولكن ماذا يجدى هذا الغضب ؟.. لقد فقدت حررتها التى استباححت فى سبيلها كل منكر . وإنها ليدخلها شعور بالقوة والسيادة ما دامت فى الطريق أو الحانة ، حتى إذا رأتها أو ذكرته حل محل هذا الشعور الباهر إحساس بالأسر والذل . ولو اطمأنت إلى قلبه لكان كل عسير ، فذل الحب فى أعماقه ظفر ، أما والحال غير ذلك فما تدرى إلا الجنون مهربا من حيرتها ، وكان فرج إبراهيم يعلم بما يختلج فى صدرها ، ولكنه كان يريد لها على أن تعتاد جفوته لتحسن التسليم بالقطيعه المرتقبة . ولو كانت امرأة أخرى لكان عليه هجرها بغير عناء ، ولكنه أثر أن يجرعها كأس القنوط نقطة نقطة ، واستوصى بالصبر والأناة شهرا طويلا ، حتى بات متأهبا للضربة الحاسمة ، قال بلهجته العارية عن العاطفة :

— هيا يا عزيزتى فالوقت من ذهب .

فصرفت وجهها إليه بعنف وقالت بحدة :

— هلا أقلعت عن هذه العبارات السمجة ؟!

— هلا أقلعت أنت يا عزيزتى عن الإجابات الجافة !

فتهدج صوتها غضبا وهى تقول :

— أهكذا يحلو لك أن تخاطبنى الآن ؟!

فتظاهر بالملل وقال :

— أوه .. أنعود مرة أخرى إلى هذا الحديث الممجوج ؟! « تخاطبنى بهذه

اللهجة » .. « أنت لا تحبنى » .. « لو كنت تحبنى لما اعتبرتنى مجرد سلعة ! » ..

ما جدوى هذا الكلام ؟ .. ألا أكون عاشقا إلا إذا رددت صباح مساء « أنا

عاشق ؟ .. ألا أكون محبا إلا إذا بادرتك كلما التقينا « أحبك » ؟ .. ألا يكون حب

إذا شغلنا بمحديث الحب عن عملنا وواجباتنا ؟ .. أحب أن يكون عقلك كبيرا

كغضبك ، وأن تكرسى حياتك — كما أكرس حياتى — لعملنا العظيم ، وأن

تجعليه فوق الحب نفسه وفوق كل شيء ...

وأصغت إليه بوجه مصفر من الغضب . هذا كلام بارد فاتر ، هذه مراوغة

لا أثر فيها لعاطفة ولقد بليت مثل هذا الكلام من قبل ، وكادت تألفه مذآنت

منه الفتور . وإنما لتذكر كيف بدأ الماكر بنقدها متعمدا ، فكان يفحص يديها

بعناية ، ويحثها على المزيد من الاهتمام بهما قائلا : « أطيلي أظافرك واصبغيا

بالمنيكور .. يداك نقطة ضعف فى جمالك ! » وقال لها مرة أخرى متشفيا وقد

طال بينهما الجدل : « حذار ، هذه نقطة ضعف أخرى ما فطنت لها من قبل ،

صوتك يا عزيزتى .. ازعقنى إذا شئت من الفم لا من الحنجرة ، فهذا صوت

خشن فظ ، ولو أهملناه بلا تهذيب وترهيف فظع ، ولعله أن يذكر السامع

بالمدق ولو كنت فى عماد الدين ! » هكذا تكلم الفاجر ! .. لشد ما ألمها قوله

وأذل قلبها الفخور . وظل يصطنع معها المراوغة والملاينة كلما طرقت حديث

(زقاق المدق)

الحب ، ولكنه بمرور الأيام أسقط من تمثيله حتى هذه الملاينة الكاذبة ، وربما قال لها في ملل « الحب لعب ونحن جادون ! » أو قال بغير مبالاة « هلمى إلى العمل .. الحب كلام فارغ » تبا له ، لشد ما ملأ وعاء خيالها بالذكريات الأليمة !.. وقد حدجته بنظرة قاسية وقالت بحدة :

— كلامك هذا لا يجوز على ، لماذا تذكرنى دائما بالعمل ؟ ألاهية عنه أنا ؟ ! إنك لتعلم أنى أفوق الآخرين وأبرع عليهن ، وإنك لتربح من كدى أضعاف ما تربح من كثيرات مجتمعات ، فاهجر هذا الحديث المعاد الممجوج ، وخبرنى صراحة فقد ضقت باللف والدوران . أما زلت تحبنى ؟ !.

وحدثته نفسه بأن يقذفها بالجواب القاطع ! ألم يمهد له بما فيه الكفاية ؟ .. ونشط فكره فى سرعة وقلق وعيناه اللوزيتان لا تتحولان عن وجهها الغاضب ، ولكنه تردد وآثر السلامة ولو إلى حين ، فقال يداريها :

— عدنا كما توقعنا إلى الحديث القديم ..

فانفجرت صارخة :

— أجبني صراحة . أحسبتنى أموت أسى لو حرمتنى من نعمة حبك ؟ ليس الوقت مناسباً . لعله لو جابته بهذا السؤال على إثر إيابها من الخارج ، أو فى الصباح — حين يتسع الوقت للملاحة والشجار — لكان أجابها كما يشاء ، أما الآن فالجواب الصريح حرى بإضاعة ثمرة اليوم هباء فلذلك ابتسم ابتسامة باردة وقال بهدوء :

— أحبك يا عزيزتى ..

أقبح بكلمة الحب إذا ندت عن فم مملول ، كالבصقة ! استحوذ عليها القهر ، وشعرت فى قهرها بأنها لا تتأبى عن هوان وإن جل لو ضمن أن يعيده إلى أحضانها ! وأحست لحظة أن حبه مطلب تهون من أجله الحياة ، ولكنها كانت لحظة عابرة سرعان ما أفاقت من غشيانها ، ثم امتلأ قلبها ضغينة ، فاقتربت منه خطوات وعيناهما تلمعان لمعان الماس الناشب فى عمامتها ، وقالت مصممة على أن

تشق طريق التحدى حتى نهايته :

— تحبنى حقا ؟ إذن فلنتزوج .

ونطقت عيناه بالدهشة ، ونظر إليها بين مصدق ومكذب ، ولم تكن تعنى ما قالت ولكنها أرادت سبر أغواره ، فقال لها :

— وهل يغير الزواج من أمرنا شيئا ؟

— أجل . لنتزوج ، ولنهجر هذه الحياة .

ونفذ صبره ، وتولدت في صدره عزمة صادقة ، أن يحسم الأمر بما يقتضيه من صراحة وقسوة ، وأن يحقق ما جال بخاطره طويلا ولو ضاعت ثمرة الليلة ، وقهقهه ضاحكا في غيظ وسخرية وقال هازئا :

— نعم الرأى !، أحسنت يا عزيزتى ، نتزوج ونعيش كما يعيش الشرفاء .

إبراهيم فرج وحرمة وأبناؤهما ليمتد !، ولكن خبرينى ما هو الزواج ؟.. لقد أنسيته كما أنسيت الآداب الشريفة جميعا ، أو دعينى أتذكر قليلا .. زواج ؟!.. شئ خطير فيما أذكر يتضمن رجلا وامرأة وماؤونا ووثيقة دينية وطقوسا كثيرة ،.. متى عرفت هذا كله يا إبراهيم ؟.. فى الكتاب أو المدرسة ؟! ولكن لا أدرى أما تزال هذه العادة متبعة أم قد أقلع الناس عنها !.. خبرينى يا عزيزتى ألا يزال الناس يتزوجون ؟

وارتعشت أطرافها غضبا ، وأفعم قلبها يأسا وغما ، ونظرت إليه فإذا به مبتسما هازئا سادرا فجئن جنونها وارتمت عليه ناشبة أظفارها فى عنقه ؛ ولم تفجؤه حركتها المباغطة فتلقاها بسكينة ، وقبض على ساعديها وفرج بينهما ثم تخلص منها والابتسامه الهازئة لا تفارق شفثيه ، فاشتد حنقها وغضبها ، ورفعت يدها بسرعة خاطفة وصفعته بكل ما أوتيت من قوة وعصبية . وغاضت ابتسامته ولاحت فى عينيه نظرة وعيد وشر ، فردت عليها بنظرة جريئة متحدية ، وانتظرت شوب العاصفة بجزع وتلهف ، وكادت تنسى أسباب آلامها فى لذة العراك المرتقة ، ومنتها أحلامها الهستيرية بختام سعيد لهذا النضال البهيمى .

ولكنه كان من ناحية أخرى يقدر عواقب الاستسلام للغضب ، ولا يغيب عنه أن دفع العدوان بالعدوان سيوثق الرباط الذى يروم نقضه ، ويزيد من تعلقها به ، فضبط نفسه ، وكبح جماح غضبه ، وصمم على أن يكشفها بالقطعية السافرة وذلك بالانسحاب من المعركة دون دفاع ، فتراجع خطوة ، وانفتل آفلا وهو يقول بهدوء :

— هلمى إلى العمل يا عزيزتى ..

ولم تكذ تصدق عينيها ، وألقت على الباب الذى غيبه نظرة ساهمة رنق بها القنوط . وأدركت سر تقهقره بغريزتها فاستشف قلبها الحقيقة المفجعة . وتقلقل صدرها برغبة حارة مباغتة فى قتله ! ، انفجرت فى صدرها بقوة آسرة لا كأمنية الضعيف الحاقد ، ولكن رغبة فتاكة شعرت بأنها فى نطاق طاقتها . لقد عرفت جوانب كثيرة من نفسها على ضوء هذا الرجل وها هو يتم صنائعه فيكشف عن أخطر هذه الجوانب جميعا . ولكن أيرضيها حقاً أن تبيع الحياة من أجل الفتك به ؟ إنها استهانت بكل شيء فى سبيل الحياة ، أما الاستهانة بالحياة نفسها ..؟! وانقبض صدرها ، واستحوذ عليها قلق مفعم بالنفور ، وبقيت رغبته فى الانتقام تتلظى ويندلع لهيبها . ينبغى أن تغادر البيت أولاً ، وفى الخارج مهرب من جحيم الفكر ، ومجال للأناة والتدبير . وسارت متثاقلة صوب الباب ، فدارت على عقبها كأنما لتلقى عليها نظرات الوداع . تنزى قلبها فى صدرها فى تلك اللحظة الفاصلة ، ربا .. كيف انتهى كل شيء بهذه السرعة ؟! .. هذه المرأة كم بدت على صفحتها فرحة مستبشرة ، وهذا السرير الوثير مهد الغرام والأحلام ، وعلى هذا الديوان كانت تجلس بين يديه تصغى إلى إرشاداته بين العناق والقبل ، وهذا الخوان يحمل صورتها معا فى ثياب السهرة ! . ثم ولت الذكريات ظهرها وفرت من الحجرة . وفى الطريق لفحها الهواء الدافئ فتنسمته فى إعياء ، وأخذت فى سبيلها وهى تقول لنفسها « لن أعدم طريقة للفتك به ! » كم يكون هذا شافيا على شرط ألا تدفع حياتها ثمنا له ، لم تخلق الحياة للتضحية ، الحياة فوق كل شيء ، بل فوق الحب

نفسه . حقا بات الحب ندبا عميقا في سويداء قلبها ، ولكنها ليست المرأة التي يفنيها الحب ، بها جرح عميق ، ولكن الجريح يعيش وهو ينزف ، بل يستطيع أن يتمتع بحياة عريضة فيها الذهب والسرور والسطوة والعراك . هكذا لاقت خبيثها ورأت عربة فأشارت إلى الحوذى وركبت ، واستشعرت بحاجة ملحة إلى مزيد من الراحة والهواء فقالت له :

— إلى ميدان الأوبرا أولا ، ثم عد من شارع فؤاد الأول . واحدة واحدة من فضلك . وجلست وسط المقعد مائلة بظهرها إلى الوراء ، واضعة رجلا على رجل ، فانحسر الفستان الحريري عن بطن فخذيها ، واستخرجت من حقيبتها علبة سجائر ، وأشعلت سيجارة ، وراحت تدخن بشغف غير عابئة بالأنظار التي تتخاطف ما انجلي من لحمها ..

وغرقت في خضم الفكر . هيهات أن يبرأ قلبها من أوجاعه ، ومع ذلك فهيها أن تسترخي يدها القابضة على حبل الحياة . وتعزت بآمال كثيرة ومسررات مرتقبة ، ولكن لم يجر لها في خاطر أنها قد تستجد حبا ينسيها هذا الحب الخائب لأنها كانت حاقدة على الحب ، ولأن الإنسان — إذ يفقد جوهرة الحب اللامعة — لا يتصور أنه سيسعد بالعشور عليها مرة أخرى . وانتبهت إلى الطريق فإذا بالعربة تدور في محيط الأوبرا ، ولحمت في دورانها عن بعد ميدان الملكة فريدة ، فطار الخيال بها إلى الموسيقى والسكة الجديدة والصناديق والمدق ، ولاحت لعينها أخطاف نساء ورجالا ، وتساءلت : ترى هل يعرفها أحد من هؤلاء إذا رآها في هذا الزى ؟ .. أيستطيع أحدهم أن يستشف حميدة وراء تيتي ؟ وماذا تبالي ؟ لا أب لها ولا أم ! . ونفخت دخان سيجارتها في استهانة ورمت بالعقب . وأخذت تتسلى بمشاهدة الطريق حتى رجعت العربة إلى شارع شريف ، واتجهت نحو الحانة التي تقصدها ، وفي تلك اللحظة قرع أذنيها صوت كأنما انشق عنه قبر هاتفا « حميدة » فالتفت نحوه وقد تملكها الذعر ، فرأت عباس الحلو على بعد ذراع منها لاهثا ..

وهتفت وهي لا تدري :

— عباس ..

كان الفتى يلهث مبهورا بعد أن ركض شوطا كبيرا وراء العربة من ميدان الأوبرا ، وقد اندفع لا يلوى على شيء ، يصطدم بالكتل البشرية ، لا يعتاقه ما ناله من دفع ، ولا يثنيه ما لحقه من شتم ولعن . وكان قبل ذلك يسير متأبطا ذراع حسين كرشة ، يتخبطان على غير هدى — عقب مغادرتهم الحانة فيتا — حتى انتهى بهما التخبط إلى ميدان الأوبرا ، فالتقى بصبر حسين بالعربة التي تحمل حميدة ، ورأى الجالسة بداخلها ، فلم يعرفها وأرعى حاجبيه استحسانا وهو يلفت صاحبه إليها . ونظر عباس إلى العربة المقبلة عليهما في طوافهما بالميدان ، وعلق بصره بالفتاة الغائبة في أفكارها ولم يستطع أن يسترد عينيه ، جذبهما بقوة سحرية شيء في الوجه ، وفي القوام ، شيء كالشبه ، أو هو شبه رقيق يحسه القلب قبل أن تحسه العينان ، وتمشت في مفاصله رعدة انقلب بعدها من سكره الخفيف صاحيا ، وهتف القلب « هي ؟ » ، وكانت العربة قد ولته ظهرها مبتعدة نحو حديقة الأزبكية ، فلم يأل عدوا وراءها بلا تدبر ولا تفكير وصاحبه يزعم وراءه معربدا صاخبا ، وعاقته حركة المرور برهة عند مطلع شارع قواد الأول ولكن عينيه لم تتحول عن العربة ، ثم استأنف العدو جاهدا لا تكاد تسعفه قدرته إلا قليلا ، حتى أدركها وهي توشك أن تدخل الحانة فنادها . ولما أن التفتت إليه وهتفت باسمه قطع الشك باليقين ، وأدركت حواسه ما سبق القلب إليه ، فوقف حياها لاهثا مبهورا لا يدرى كيف يصدق عينيه . وغلبتها الدهشة والانزعاج أول وهلة واستحوذ عليها الانفعال ، ثم شعرت بحرج موقفها وأشفقت من فضول المتسكعين ،

فتماكنت مشاعرها . وأشارت إليه ومضت في عجلة إلى عطفة سابقة للحانة — وهو يتبعها — ودخلت أول باب إلى يسارها وكان حانوت أزهار . وحيثما بائعة الزهور — التي عرفت بها بحكم ترددتها على المكان — فردت تحيتها وسارت به إلى نهاية الحانوت متحامية مواقع الأنظار . وأدركت بائعة الزهور أنها تريد أن تختلي بصاحبها فمضت إلى مقعدها وراء معرض الزهور وجلست بغير مبالاة كأن أحدا لم يقتحم عليها حانوتها . وقفا وجهها لوجه ، يلفه الانفعال والحيرة وترتعش أطرافه تأثرا . ما الذي دعاه إلى هذا العدو القاتل ؟! ماذا يروم من هذا اللقاء المغتصب !. وجد نفسه في تلك اللحظة عريا من كل رأى أو عزم . ولقد كانت ذكريات الشر الذي هصر آماله — في أثناء عدوه — تذر على عينيه غبارا فتكاد تحجب عنه الطريق ، ولكنه لم يبيت رأيا أو يستجد عزمًا ، فركض ركضا آليا لا يتبين له غاية ، حتى إذا هتفت باسمه فقد البقية من وعيه وتبعها إلى الحانوت كالسائر في نومه . وأخذ يفيق رويدا رويدا من الإعياء والجهد والانفعال ، وراح بصره يعاين المرأة الواقفة حياله بلباسها الجديد وزينتها الغريبة متلمسا عبثا أن يجد فيها موضعا للفتاة التي أحبها ، فارتد البصر كليلا ، وتجرع قلبه غصص اليأس المرير . لم تكن بساطة قلبه من البلاهة بحيث لا يدرك حقيقة ما يرى ، ولقد أجبرته الشائعات في المدق على تصديق أمر فظيع ، ولكن الشائعات بلا ريب كانت دون الحقيقة الماثلة لعينه وامتلا قلبه المقهور شعورا بتفاهة الحياة وعبثها ، بيد أن غضبه الذي أصلاه نارا حامية في ليله ونهاره ، لم ينفجر ، فكان أبعد ما يكون عن البطش بها أو حتى البصق عليها . وجعلت حميدة تنظر إليه في ارتباك وحيرة ، واستشعر قلبها خوفا حيال هذا الأثر من الماضي الذي تتحاماها ، ولكنه لم يحرك بها عطفًا أو ندما ، بل استثار ازدراءها ومقتها فلعلت في سرها شؤم الحظ الذي رمى به في طريقها . واشتد الصمت على أعصابهما ، ولم يعد في الوسع احتمال ، فقال الحلو بصوت مبحوح متهدج :

— حميدة !. أهذا أنت ؟!. رباه كيف أصدق عيني ؟!.. كيف هجرت

بيتك وأملك وانقلبت إلى هذه الحال !؟

وأجابته في ارتباك غير خاف :

— لا تسألنى عن شيء ، فليس عندى ما أقوله ، وهذا قضاء الله الذى

لا يرد .

وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المنتظر . فاستفزا غضبه وأثارا

حنقه ، فعلا صوته مزجرا حتى ملأ الحانوت :

— كاذبة فاجرة .. أغواك فاجر مثلك فقررت معه . وتركت وراءك في

حيك أسوأ الذكرى ، وها هو الفجر السافر يطالعنى في وجهك وتبرجك

الفاضح ..

واستفز هذا الغضب المفاجئ شراستها الطبيعية فغضبت غضبة عنيفة

مسحت عن صدرها ما اعتوره من ارتباك وخوف ، وضاعفها ما احتملته في

يومها من حنق وخيبة ، فأربد وجهها وصرخت في جنون :

— صه .. لا تزعق كالمجانين ، أحسبت أنك تخوفنى بصراخك !؟ ماذا تريد

منى يا هذا ؟. لا حق لك على فأغرب عن وجهى ..

ونخبا غضبه قبل أن تتم كلامها ! قهر غضبها غضبه فأماته في صدره وكأنه

كان يشعله الماء وتطفئه النار . وحلق في وجهها ذاهلا وغمغم بصوت مرتعش

النبرات :

— كيف سولت لك نفسك أن تقولى هذا القول ؟.. أأست .. ألم تكونى

خطيبتى ؟

وتشفت بهزيمته ، وارتاحت إلى غضبتها التى أسعفتها في الوقت المناسب

وقالت بتململ :

— أى فائدة تجنى من ذكر الماضى الآن !؟ لقد مضى وانقضى ..

فقال متحيرا متوجعا :

— أجل مضى وانقضى ، ولكنى في حيرة من أمرى وأمرى ، ألم تقبلى

يدى ؟.. ألم أهاجر إلى ذاك البلد البعيد من أجل سعادتنا معا ؟!
لم تعد تشعر نحوه بارتباك أو حرج ، وتساءلت في جزع : متى يمسك عن
هذا ؟ متى يفهم متى يرحل ؟. ثم قالت بلهجة لا تخلو من برم :
— أردت شيئا وأرادت الأقدار سواه ..

ولم يغب عنه تمللها ولكنه بات أشد تشبثا بالكلام والاستفسار ، واستمد
من سكوت غضبها شجاعة فراح يقول بيأس :

— ماذا صنعت بنفسك ؟ كيف انقلبت إلى هذا المصير الأسود ؟.. أى شؤم
أعمى بصيرتك ؟.. ومن يكون (وهنا استغلظ صوته) ذلك المجرم الذى
خطفك من حياتك الطاهرة وطرحك فى مزبلة الدعارة ؟..

واكفهر وجهها ، وتناهى بها الجزع ، وقالت بلهجة تشى بالملل :
— هذه حياتى ، هذه النهاية التى لا مهرب منها ، نحن الآن غريبان وكلاتنا
ينكر صاحبه ، لم يعد بوسعى الرجوع ، ولن تستطيع مهما قلت أن تغير من
الواقع شيئا ، وحذار أن تغلظ لى القول فلست على حال أملك معها السماح أو
العفو ، وإنى لأقر بعجزى حيال حظى ومصيرى ، ولكنى لا أحتمل أن يضاعف
لى إنسان الكرب بالغضب والزجر . انسنى ، واحتقرنى كما تشاء ، واتركنى
بسلام ..

ما هذه بفتاته ، أين منها حميدة التى أحبها وأحبته ؟ يا عجبا ؟ ألم تحبه حقا ؟
ألم تلصق شفتيها بشفتيه على بسطة السلم ؟ ألم تدع له يوم الوداع وتعدده
باستشفاع الحسين لإجابة الدعاء ؟.. فمن تكون هذه الفتاة ؟! ألا تستشعر
ندما ؟ ألم تلنها إثارة من حنان قديم ؟ وأوشك أن يغضب مرة أخرى لولا إشفاقه
من غضبها ، فتنهّد تنهّد المغيظ المقهور وقال :

— إنك تحيريننى ، وكلما أصغيت إليك تضاعفت حيرتى ، لقد عدت
بالأمس من التل الكبير فدهمنى الخبز الأسود على غرة ، أتعلمين ماذا دعانى لهذه
العودة ؟!.. (وأبرز علبة القلادة وأراها إياها).. عدت بهذه هدية لك ، وكان

فى نيتى أن أعقد عليك قبل أن أرجع إلى البلد ..
وألقت على العلبة نظرة صامته . وفى أثناء ذلك وقعت عيناه على الهلال الماسى
والقرط اللؤلؤى فتراجعت يده بالعلبة إلى جيبه ، وتناهى به الضيق فسأها بحدة :
— ألا تأسفين على هذه النهاية ؟!.

ولمعت عينها بخاطر غامض بث فى نفسها يقظة محمومة ، فقالت بلهجة حزن
مصطنعة :

— أنت لا تدري كم أنى شقية .

فاتسعت عيناه فى دهشة وريبة ، وقال بألم بالغ :

— يالللشقاء يا حميدة !.. لماذا أصبحت لنداء الشيطان ؟.. كيف هانت عليك
حياتك الشريفة ؟.. كيف نبذت الحياة الطيبة والأمل المرتقب من أجل (وهنا
تحشرج صوته) ... مجرم آثم وشيطان رجيم ؟!.. هذه جريمة لا تغتفر ..
وكانت حمى ذلك الخاطر لا تزال تلهم أفكارها ، فقالت بلهجتها الأسيفة
الجديدة :

— إلى أودى ثمنها من لحمى ودمى ..

وازدادت دهشته ، وخالطها ارتياح غامض سرورا بالشقاء المزعوم الذى
اعترفت به ، ولكنها لم تنكسر عن حديثها اعتباطا ، كانت أفكارها تتوارد بسرعة
جنونية فى إلهام شيطانى ، خطر لها أن تحرضه على الرجل الذى هرس قلبها بقسوة
وسخرية ، وأملت أن تجعله أداة انتقامها وهى بمأمن من عوادي الشقاء . ورقت
نظرة عينها وهى تقول بصوت ضعيف :

— لست إلا شقية يا عباس . لا تؤاخذنى على سوء قولى فقد أفقدنى الشقاء

وعينى . إنكم جميعا ترونى عاهرة فاجرة . والحق أنى شقية بائسة ، خدعنى
الشيطان الرجيم كما دعوته بحق ، لا أدرى كيف أذعنت إليه ، ومع ذلك فلست
أنتحل لنفسى عذرا ، ولا أطمع أن أسألك العفو ، فإنى أعلم أنى مذنبه ، وها
أنذى أدفع ثمن جريرتى النكراء . اعف عن غضبى الذى أهاجته كلماتك

العادلة ، وابغضنى واحتقرنى ما شاءت لك نفسك الطاهرة الكريمة ، واشمت لى
فلست فى حاضرى إلا ألعوبة رخيصة فى يد من لا يرحم ، يطلقنى فى الطرق
ويستغل شقائى بعد أن استلبنى أعز ما أملك . إنى أمقته ، أمقته بكل ما فى من
شقاء ومهانة هما من غرسه ، ولكن هيهات أن أجدر لى منه مهربا ..

أذهله حديثها الشاكى عن نفسه ، وراعتة نظرة الشقاء تغشى عينيها ، فنسى
المرأة المتتمرة التى كادت تفتك به منذ برهة قصيرة ، وأهابت به رجولته أن
يغضب ، فزجر صائحا :

— يا للشقاء يا حميدة ، إنك شقية ، وإنى شقى ، كلانا شقى بفعل هذا
المجرم . أجل ، لا أستطيع أن أنسى أنك أخطأت خطأ أثيما ، وأن هذا الخطأ
يحول بيننا إلى الأبد ، ولكن بينا يشقى كلانا بهذا الخطأ ، إذا بالمجرم الأول مطمئن
سعيد كأنما يسعد بشقائنا ، فلا كانت الحياة إذا أنا لم أحطم رأسه !.

وشعرت بالارتياح فنكست بصرها قبل أن يفضحها ، وكانت سرعة انزلاقه
إلى شباكها فوق مطعمها ، وارتاحت بصفة خاصة إلى قوله : « هذا الخطأ يحول
بيننا إلى الأبد » فأمن قلبها أن يجرجره الانفعال إلى حد العفو عنها ، والسعى
لا ستردادها ، وما كانت تحلم بهذا كله . أما الحلو فاستدرك يقول عابسا راغبا :
— لا ارتاح لى بال قبل أن أحطم رأسه وأهشم عظمه !. أجل ، لا أستطيع
أن أنسى أنك فررت معه ، ولا أنهم رأوك تسيرين فى صحبته ، فلا أمل من أن
نجتمع مرة أخرى ، لقد فقدت حميدة التى أحبتها إلى الأبد ، ولكن يجب أن
يشقى المجرم بما أشقى كلينا ، خبرينى أين أجده ؟

فقالت وعقلها فى تفكيره أسرع من لسانها فى نطقه :

— لا سبيل لك عليه اليوم ، ولكن تعال يوم الأحد ظهرا إذا شئت فتجده فى
الحانة عند أول هذه العطفة ، ولن تجد مصريا سواه فيها ، فإذا التبس عليك الأمر
أشرت إليه بعينى .. ولكن ماذا تنوى أن تفعل به ؟
نطقت بالعبارة الأخيرة بلهجة تنم عن الإشفاق عليه من العواقب ، ولكنه

أجاب في جنون الغضب واليأس قائلا :

— سأ حطم رأس القواد الوضيع ..

وتساءلت وعيناها تتفرسان في وجهه : أيستطيع الحلو أن يقتل ؟! ..
ولم يغب الجواب عن فراستها ، ولكنها أملت أن يثير من حوله فضيحة تسوقه
إلى يد القانون ، قنتقم منه وتخلص من أسره . وارتاحت إلى أفكارها بلا تدبر
أو نقد ، بيد أنها لم تخل من رغبة صادقة في ألا يصيب الحلو شر فادح من
مخاطرته ، وتمنت على الله أن ينتقم لها من غريمها دون أن يذهب ضحية لفعله ! ..
ولذلك قالت تحذره :

— لا تبلغن بك الرغبة في الانتقام منه حد الاستهانة بحياتك ! اضربه ..

افضحه .. جره إلى القسم فيكون فيه القضاء عليه وعلى جرائمه ..

ولكنه لم يكن يصفى إليها ، وكان يقول وكأنه كان يخاطب نفسه :

— لا يصح أن نشقى بلا ثمن . انتهت حميدة ، وانتهى عباس ، فكيف يروح

القواد آمنا ضاحكا من تعاستا ؟ لأدقن عنقه ولأكتمن أنفاسه ، (ثم علا صوته
موجها إليها الخطاب) : وأنت يا حميدة ماذا تصنعين بحياتك إذا نحيت عن سبيلك
هذا الشيطان ؟

وخافت على نفسها ما عسى أن يؤدي إليه هذا السؤال ، وأشفقت من أن

يتطرق إلى مسارب نفسه ضعفه القديم ، فقالت بحزم وهدوء :

— أنقطع ما بيني وبين العالم القديم ، ولكني سأبيع ما عندي من حلى وأجد

لنفسى عملا شريفا في مكان بعيد ..

وصمت صمتا طويلا متفكرا محزونا ، فعانت في صمته من القلق ألوانا ،

حتى طامن من رأسه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— لا يستطيع قلبي أن يعفو .. لا يستطيع ، لا يستطيع .. ولكن لا تعجل

بالاختفاء مرة أخرى حتى نرى كيف ينتهى هذا الأمر ..

ووجدت في لهجته ما ينذر بالسماحة والعفو والاستسلام ، فلمعت عيناها في

حذر وقلق ، وآثرت في أعماق قلبها الثائرة أن يهلك هو وغريمها على أن يعود إليها فاتحاً ذراعيه ، بيد أنها لا تستطيع أن تفصح له عما يدور بخلدتها ، ولن يشق عليها الاختفاء إذا شاءته ، وإذا تم لها الانتقام الذى تتلهف عليه فما أيسر أن تشد الرحال إلى الإسكندرية التى حدثها عنها إبراهيم فرج كثيراً ، وهناك تصفو لها الحياة وتطيب في حرية لا يحدها قيد ، وفي أمن من المتطفلين ، ولذلك لم تجد بأساً في أن تقول له بمثل لهجته الرقيقة :

— لك ما تشاء يا عباس ..

وكان قلبه يعانى مرارة الشقاء والقنوط والتحفز للانتقام ، ولكنه ما انفك ينبض بالحيرة والعطف ..

كان يوم وداع وسرور ، فدبت في قلوب الزقاق عاطفة واحدة ، ذلك أن للسيد رضوان الحسينى منزلة رفيعة في القلوب جميعاً على السواء . كان السيد قد استخار الله في أداء فريضة الحج هذا العام فأخاره ، وعلم الجميع أنه يسافر عصر اليوم بمشيئة الرحمن إلى السويس في طريقه إلى الأراضى المقدسة . وامتلاً بيته بالمودعين من أصدقاء العمر وإخوان الصفاء .. وحفوا به في الحجرة القديمة الوديعه التى طالما أصغت جذرائها إلى سمرهم الورع اللطيف عاماً بعد عام . واستفاض حديث الحج ، وثار ذكرياته ، ولهجت بها الألسن فى أركان الغرفة حول خط متموج من دخان البخور يتصاعد من المجرمة ، ورووا نتفا من أخبار الحج شملت المعاصرين والغابرين ، واستشهدوا بالكثير المأثور من الأحاديث الشريفة والأشعار الجميلة . ورتل ذو صوت رخيم بعض ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ثم أنصتوا جميعاً إلى فيض من كلام السيد رضوان أفصح به قواده عما

يكنه من رقة وطيبة ..

وكان أحد الأصفياء قد قال له :

— سفر سعيد وعود حميد ..

فأشرقت في وجه السيد ابتسامة وضاءة كسته جمالا على جمال ، وقال بصوته

الحنان :

— أخى لا تذكرنى بالعود . إن من يقصد بيت الله وفي قلبه خاطر من خواطر
الحنين إلى الوطن حقيق بأن يطل الله ثوابه ويخيب دعاءه وينفذ سعادته . سأذكر
العودة حقا إذا فصلت عن مهبط الوحي في طريقى إلى مصر ، وأعنى بها العودة
إلى الحج مرة ثانية إذا أذن الرحمن وأعان . من لى بمن يقرنى ما تبقى من العمر في
البقاع الطاهرة ، أمسى وأصبح فلا أرى أرضا تطامنت يوما للمس أقدام
الرسول ، وهواء خفقت بتضاعيفه أجنحة الملائكة ، ومغانى أصغت للوحي
الكريم يهبط من السماء إلى الأرض فيرتفع بأهل الأرض إلى السماء ، هنالك لا
يطوف بالخيال إلا ذكريات الخلود ، ولا يخفق الفؤاد إلا بحب الله ، هنالك الدواء
والشفاء . أخى .. أموت شوقا إلى استطلاع أفق مكة ، واستجلاء سماواتها ،
والإنصات إلى همس الزمان بأركانها ، والسير في مناكبها ، والانزواء في
معابدها ، وإرواء الغلة من زمزمها ، واستقبال الطريق الذى مهده الرسول
بهجرته فتبعته الأقوام من ثلاثئة وألف عام ولا يزالون ، وثلوج الفؤاد بزيارة القبر
النبوى والصلاة في الروضة الشريفة ، وإن بقلبي من مكنون الهيام ما يقصر الزمان
عن بثه ، ولدى من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل عن تصويره . أرانى يا
إخوان ضاربا في شعاب مكة تاليا الآيات كما أنزلت أول مرة . كأنما أسمع درسا
للذات العلية ، أى سرور ! .. وأرانى ساجدا في الروضة متخيلا الوجه الحبيب كما
يتراءى في المنام ، أى سعادة ! .. وأرانى متخشعا لقاء المقام مستغفرا فأى
طمأنينة ! .. وأرانى واردا زمزم أبل جوارح الشوق بندا الشفاعة فأى سلام ! ..
أخى لا تذكرنى بالعودة وادع الله معى أن يحقق لى المنى ..

فقال له صاحبه :

— حقق الله منك ومتعك بطول العمر والعافية .

فضم السيد راحته المبسوطة على لحيته وقد تألفت عيناه بسرور وهيام وراح يقول :

— نعم الدعاء ، والحق أن حبي الآخرة لا يدفعني إلى الزهد في الدنيا أو التملل من الحياة ، لطالما لمستم بأنفسكم حبي الحياة والسرور بها ، كيف لا وهى من خلق الرحمن ؟ خلقها الله وملاها بالعبر والأفراح فمن شاء فليتكلم ومن شاء فليشكر ، ولذلك أحبها ، أحب ألوانها وأصواتها ، وليلها ونهارها ، ومسراتها وآلامها ، وإقبالها وأدبارها ، وما يدب على ظهرها من وحى أو يقيم عليه من جماد ، هى خير خالص ، وما الشر إلا عجز مرضى عن إدراك الخير فى بعض جوانبه الخافية ، فيظن العاجز المريض بدنيا الله الظنون ، لذلك أقول لكم إن حب الحياة نصف العبادة وحب الآخرة نصفها الآخر ، ولذلك يهولنى ما تنوء به الدنيا من دموع وأنات وسخط وغضب وغل وسخيمة ، وما تبلى به فوق هذا كله من ذم المرضى العاجزين . أكانوا يؤثرون لو لم تخلق حياتنا ؟ أكانوا يحبون لو لم تخرج من العدم ؟ أتسول لهم نفوسهم الاعتراض على الحكمة الإلهية ؟ وما أبرئ نفسى ، فلقد ملكنى الحزن مرة على اقتطاع فلذة من كبدى ، وتساءلت فى غمرة الحزن والألم لماذا لم يبق الله على طفلى حتى يتمتع بحظه من الحياة والسعادة ، ثم شاء الله أن يهدينى ، فقلت لنفسى أليس هو — عز وجل — الذى خلقه ، فلماذا لا يسترده وقتما يشاء ! ولو أراد الله له الحياة للبث فى هذه الدنيا حتى يشاء الله ، ولكنه استرده لحكمة اقتضتها مشيئته ، فهو لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ، والحكمة خير ، فقد أراد ربي به وبنى خيراً ، وسرعان ما غلبنى السرور بإدراك حكمته على حزنى ، ولسان قلبى يقول : ربي لقد وضعتنى موضع البلاء لتختبرنى وها أنا ذا أجوز امتحانك ثابت الإيمان ، ملهما حكمتك ، « فاللهم شكراً » وسار ديدنى إذا أصابتنى مصيبة أن

ألهج من أعماق قلبي بالشكر والرضا ، كيف لا والله يخصني بالامتحان والعناية ، وكلما عبرت محنة إلى بر السلام والإيمان ازددت إدراكا لما في مقاديره من حكمة وما فيها بالتالي من خير ، وما تستحق بعد ذلك من شكر وسرور ، وهكذا وصلت المصائب ما بينى وبين حكمته على دوام لا ينقطع ، حتى نخلتني طفلا مدللا في ملكوته يقسو على الأزدرجر ، ويخوفني بعبوس مصطنع ليضاعف سروري بالأنس الحقيقي الدائم ، وإن الحبيب ليسير محبوبه بالصد حينا ، وإن عرف المحبوب أن الصد مكر محب لا هجر قال ، تضاعف حبه وسروره . فما وسروره . فما عدوت أن وقر في اعتقادي أن المصايين في هذه الدنيا هم أحباب الله وأولياؤه ، خصهم بحب مقتنع ، ورصد هم غير بعيد ، ليرى إن كانوا حقا أهلا لحبه ورحمته .. فالحمد لله كثيرا ، بفضلته عزيت من حسبوا أننى أهل للعزاء ..

ومسح على صدره الواسع ببشر وانشراح وهو يجد من إلحاح التعبير عن مكنون صدره ما يجده المغنى إذا سكر بحلاوة الطرب وتاه في سلطنة الفن ، فاستدرك يقول بحرارة ووجد :

— يذهب أناس إلى أن هذه المصائب وأمثالها مما يتلى به الأبرياء عنوان عدالة انتقامية لا يفطن لحكمتها عامة الناس . وتراهم يقولون إنه لو تفكر الأب الثاقل مثلا لو جد أن ثكله جزاء ذنب اقترفه هو أو أحد آباءه الأولين ، ولكن لعمرى إن الله أعدل وأرحم من أن يأخذ البرىء بالذنب . وتراهم يستشهدون على صواب رأيهم بما وصف الله به نفسه من أنه عزيز ذو انتقام ، ولكنى أقول يا سادة إن الله تعالى غنى عن الانتقام ، وإنه إنما أضاف هذه الصفة لذاته لينبه الإنسان إلى احتذائها ، وقد سبقت إرادته ألا تستقيم أمور هذه الدنيا إلا بالثواب والعقاب ، أما ذاته العزيزة الجليلة فسننتها الحكمة الربانية والرحمة الإلهية . ولو أننى اكتشفت تحت مصائبى عقابا أستحقه ، أو وجدت وراء جثث أبنائى جزاء أستاذله ، لاعتبرت حقا ، ولازدجرت حقا ، ولكن كان يبقى في النفس ضنى وفي العين

دموع ، ربما هتف قلبي المحترق : ضعيف أذنب وبرىء هلك ، فكيف العفو والرحمة ؟! فأين هذا من مصيبة تستشف الحكمة والخير والسرور !
وأثار رأيه اعتراضات كثيرة ، فتمسك البعض بالنص ، وأول البعض التفسير ، ورد آخرون الانتقام إلى الرحمة . وكان كثيرون أقوى منه عارضة وأوسع علما ولكنه لم يكن متهيئا للجدل ، كان متفتحا فحسب للتعبير عما يضطرم في فؤاده من الحب والسرور ، فجعل يتسم براءة الطفل ، متورد الوجه متألق العينين ، وراح يقول بصوت رققه الهيام فكان أندى من مناجاة العاشقين :
— معذرة يا سادة فإني أحب الحياة ، بل أحب نفسي ، لا كذات تتعلق بي ، ولكن كفلذة من قلب البشرية ، ونبض من الحياة ، وخلق للصانع الأجل ، وتجربة للحكمة الإلهية ، وأحب الناس جميعا حتى المجرمين الشائهي . أليسوا يرمزون إلى عناء الحياة الممض في سبيل الكمال ؟.. أليسوا ظلمة تلقى عتمتها على بهاء الخير ضياء ، ذروني أبح لكم بسر دفين ، أو تعلمون ما الذي بعثني إلى الحج هذا العام ؟.

وصمت السيد هنيهة وعيناه الصافيتان تسطعان بنور بهيج ، ثم قال يجب نظرات الاستطلاع التي عكستها الأعين :
— لا أنكر أن الحج أمنية طالما نازعني الفؤاد إليها ، ولكن قضت إرادة الله أن أؤجلها عاما بعد عام ، حتى حسبتني قد بت أوثر الشوق إلى الحبيب على الحبيب نفسه ، ولأشواق العبادات لذة كقضائها . ثم كان من أمر زقاقنا ما تعلمون ، فشد الشيطان على أعين رجلين وفتاة من جيراننا ، أما الرجلان فقادهما إلى قبر ينبشانه وغادرهما في السجن ، وأما الفتاة فاستدرجها إلى هاوية الشهوات وغاص بها في حمأة الرذيلة . هناك زلزل قلبي زلزالا شديدا تصدعت له أضلعي . ولا أكتممكم يا سادة أن شعورا بالذنب داخلني لأن أحد الرجلين كان يقتات على الفتات ، وقد نبش القبر لعله يجد بين عظامه النخرة لقمة يستسيغها ، كالكلب الضال يلتقط رزقة من أكوام الزبالة . فلشد ما ذكرني جوعه بجسمي المكتنز (زقاق المدق)

ووجهى المتورد ، حتى استحوذ على الخجل وغلبنى استعبار : وقلت لنفسي معنفا متقززا ماذا فعلت — وقد أتاني الله خيرا كثيرا — لدفع البلاء أو التخفيف من وقعه ، ألم أترك الشيطان يعيث بأهل جيرتي وأنا ذاهل عنه بسرورى وطمائنتى ؟ ألا يكون الإنسان الطيب بتقاعده عوناً للشيطان من حيث لا يدرى ؟ .. واستصرخنى الضمير المعذب أن ألبى النداء القديم ، وأن أشد الرحال إلى أرض التوبة مستغفرا ، حتى إذا شاء الله لى أن أعود عدت بقلب طاهر ، وجعلت من قلبى ولسانى ويدى أعوانا للخير فى مملكة الله الواسعة .. ودعاه الإخوان بصدق وحرارة ، وواصلوا الحديث فى سرور وحبور .

* * *

وأبى السيد رضوان بعد أن ودع بيته إلا أن يزور قهوة كرشة مودعا فاقعد مجلسه محوطا بالمعلم « كرشة » وعم كامل والشيخ درويش وعباس الحلسو وحسين كرشة . وجاءت المعلمة حسنية القراءة فقبلت يده وحملته السلام أمانة ، وقد قال لهم السيد :

— الحج فريضة على من استطاع إليه سبيلا ، يؤديها عن نفسه وعن تقعد لهم الأعذار من الصادقين .

فقال له عم كامل بصوت الأطفال :

— صحبتك السلامة فى الحل والترحال ، وعسى ألا تنسى أن تجيئنا بسبحة من المدينة المنورة ..

فابتسم السيد وقال :

— لن أكون كمن وهبك كفنا ثم ضحك عليك .

وضحك عم كامل وكاد يعود إلى هذا الموضوع القديم لولا أن رأى وجه عباس الحلو الواجم فأمسك . وقد أثار السيد هذه الذكرى متعمدا ليدخل منها

إلى نفس الشاب التعس مدخلا لطيفا ، والتفت إليه بخنان وقال :

— يا عباس أصغ إلى كما ينبغى لشاب شهد له جميع أهل الزقاق بالعقل

واللطف ، عد إلى التل الكبير في أول فرصة ، بل اليوم إن سمعت وأطعت .
وأعمل بما أوتيت من همة ، واقتصد من النقود ما تشق به حياة جديدة إن شاء
الله ، وإياك وأن تلقى برأسك في خضم الفكر ، أو أن تن عزيمتك لقاء اليأس
والغضب ، ولا تحسبن ما أعترضك من سوء الحظ هو ختام ما قدر لك في الحياة .
إنك بعد شاب في نهاية الحلقة الثانية من عمرك ، وما تلقاه من ألم ليس إلا بعض
ما يصيب الإنسان في حياته ، وكأنه ما ينتاب الطفل من أوجاع التسنين والحصبة
ولفهما ، فإذا صمدت له بشجاعة جزته رجلا خليقا بالرجولة ، وذكرته فيما
يقبل من حلقات العمر ببسمة الظافر وتأسي المؤمن . انهض مستوصيا بالصبر
متعوذا بالإيمان ، واسع إلى رزقك ، ولتها بسرور المؤمن إذا أدرك أن الله قد
اختاره لمصاف المصابين من أوليائه .

ولم يحر عباس جوابا ، ولكنه لما رأى عيني السيد لا تتحولان عنه ، ابتسم
فيما يشبه الاقتناع والرضا ، وغمغم بلا وعي تقريبا :
— سيمضي كل شيء كأن لم يكن .

فابتسم السيد ، والتفت نحو حسين كزشة وهو يقول :
— أهلا بشاطر زقاقنا ! . سأدعو الله لك الهداية في أرض مستجابة الدعاء ،
ولأجدنك إن شاء الله حين عودتي محتلا مكان أبيك كما يريد لك ، ونعم ما أراد ،
وطوبى للمعلم الصغير الجديد .

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته وقال مطرقا :
— يا سيد رضوان ، اذكرني إذا أحرمت ، وذكر أهل البيت بأن محبهم تلف
وشغفه الغرام ، وأنه أضياع ما يملك من مال وعتاد على حب لا تنفع له غلة ،
واشك إليهم خاصة ما يلقي من ست الستات .

* * *

وغادر السيد رضوان القهوة يحف به الصحاب ، ولقد لحق به من البيت
قريبان اعتزما السفر معه حتى السويس ، ومال السيد إلى الوكالة فوجد السيد

سليم علوان مكبا على بعض دفاتره ، فابتسم قائلا :
— تأذن الرحيل فدعني أعانقك .

ورفع الرجل وجهه الذابل في دهشة ، وكان علم ببعاد الرحيل دون أن يحرك ساكنا . ولكن السيد رضوان لم يلق بالآ إلى إهماله ، وكان يعلم من سوء حالته ما يعلم الجميع ، فأبى أن يغادر الحى قبل أن يودعه . وكأنما شعر الآخر بخطئه في هذه اللحظة فاعتراه ارتباك ، إلا أن السيد احتواه بين ذراعيه وقلبه ودعا له طويلا ، ولبت عنده مليا ، ثم قال وهو ينهض قائما :

— لتدع الله أن نحج معا في عامنا القادم .

فغمغم السيد سليم وهو لا يعنى ما يقول :
— إن شاء الله .

وتعانقا مرة أخرى ، ورجع السيد إلى أصحابه ، ومضوا جميعا إلى مطلع الزقاق حيث كانت تنتظره عربية محملة بالحقائب ، فصافح الرجل مودعيه بحرارة وركب هو وقريياه ، وانحدرت العربية صوب الغورية تتعلق بها الأعين ، ثم مالت إلى الأزهر .

قال عم كامل لعباس الحلو :

— ليس وراء نصيح السيد رضوان مذهب لناصح ، فاجمع شتات نفسك وتوكل على الله وسافر ، وسوف أنتظرك طال الزمن أو قصر ، وستعود بإذن الله ظافرا وتكون على رأس حلاقى هذا الحى جميعا .

وكان الحلو يجلس على كرسي أمام دكان البسبوسة غير بعيد من عم كامل ينصت إلى صاحبه دون أن ينبس بكلمة ، ولم يكن باح لأحد بسره الجديد ، وقد

هم حين نصحه السيد رضوان الحسينى بالإفصاح عما يثقل كاهله ، ولكنه تردد لحظة فوجه السيد خطابه إلى حسين كرشة ، وسرعان ما عدل عما قام بنفسه . ولم تضع نصيحة السيد رضوان هباء فتفكر فيها مليا ، بيد أن يوم الأحد استحوذ على الشطر الأكبر من أفكاره وكان مضى على اللقاء الغريب فى حانوت الورد ليلة ونهار ، فقلب وجوه الفكر فى هبدوء وأناة وعرف فى النهاية أنه لا يزال يحب الفتاة ، وإن كانت أسبابهما قد انقطعت إلى الأبد ، وأن رغبته فى الانتقام من غريمه لا تقاوم ، وقد أنصت إلى كلام عم كامل صامتا ، ثم تنهد فى الأعماق ، تنهد إنسان تعس كبلته الأقدار بأغلال الشقاء ، ووضعته على شفا جرف هار من الدمار . وسأله عم كامل بقلق :

— خبرنى عما اعتزمت ؟!

فنهض الشاب قائما وهو يقول :

— سأمكث هنا بضعة أيام آخر ، على الأقل حتى يوم الأحد ، ثم أتوكل على الله .

فقال عم كامل فى إشفاق :

— ليس السلوان بالمطلب العسير إذا نشدته صادقا .

فقال الشاب وهو يغادر موضعه :

— صدقت !.. السلام عليكم .

ومضى وفى نيته أن يقصد حانة فيتا ، حيث يظن أن حسين كرشة قد سبقه إليها عقب توديع السيد رضوان مباشرة ، وظل فكره فريسة للأفكار القلقة ، وقلبه نهبا للعواطف المضطربة . إنه ينتظر يوم الأحد ، وما يوم الأحد ببعيد ، ولكن ما عسى أن يصنع إذا حان الحين ؟! . أيمضى إلى الموعد حاملا خنجرا ليغمده فى قلب غريمه ؟ . لعل هذا ما يتحرق إليه بكل ما يمتلئ به قلبه من غضب وحق وشفاء ، ولكن هل يسعه ارتكاب الجريمة ؟ هل تطيق يده تسديد الضربة القاتلة ؟! . وهز رأسه فى شك وكمد وحق . إنه أبعد ما يكون عن العنف

والإجرام ، وهذا ماضيه يشهد له بالوداعة والمسالمة ، فما عسى أن يصنع إذا جاء يوم الأحد ! وتضاعفت رغبته في لقاء حسين كرشة ليقص عليه قصة حميدة ويسأله المشورة والعون ! ، بل العون قبل سواه ، لأنه يبدو عاجزا بغير هذا العون . وفي هذه الحال من الإقرار بالعجز عاودته نصيحة السيد رضوان الحسيني « .. عد إلى التل الكبير في أول فرصة ، بل اليوم إن سمعت وأطعت ، .. إياك وأن تلقى برأسك في خضم الفكر أو أن تنهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب .. » استحضر كلام السيد الذي أوشك أن ينساه ، أجل ، لماذا لا يطوى الماضي بأجزائه وينطلق في شجاعة وصبر في طريق السلوان والعمل ؟ لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به ، لماذا يعرض حياته لأهوال أخفها السجن ؟ وارتاح إلى أفكاره الجديدة ولكن دون أن يقطع برأى حاسم ، ولم تزل نفسه تنازعه إلى الانتقام ، ولعل الانتقام لم يكن وحده الذي يستبد بشعوره ، ولعله خاف العدول عنه لأن في هذا العدول قطعاً حاسماً لهذا الخيط الواهى الذي وصله بحميدة أمس ، وقد أبى أن يصدق أنه يستطيع العفو عما سلف ، وقال وكرر القول — بداع وبلا داع — أن أسبابهما قد انقطعت إلى الأبد ، ولكن هذا الإلحاح في القول نفسه أخفى رغبة — لعله لم يدرها في استردادها ووصل ما انقطع من وشائجهما ! فكان نزوعه إلى الانتقام ظلاً لتعلقه بالمرأة التى يحبها ولا يطيق هجرها . وبهذا القلب الحائر قطع الطريق ودخل حانة فيتا . وكان حسين كرشة بمجلسه يكرع من النيذ الأحمر ولما تلعب الخمر برأسه ، فمضى إليه وحياء تحية مقتضبة ، وقال برجاء حار :

— حسبك ما شربت فأني أريدك لأمر هام .. هلم معي .

ورفع حسين حاجبيه منكراً ، وكأنما كبر عليه أن يعكر القادام صفوه ، ولكن عباس — وقد أذهله الهم عن وعيه — أمسك بذراعه رشده حتى أقامه وهو يقول :

— إني في مسيس الحاجة إليك .

فنفخ الشاب مستاء ، ودفع ما عليه ، وغادر الحانة برفقة صاحبه ، وقد أصر عباس على انتزاعه من الحانة أن يغلبه السكر فلا ينتفع بمشورته . ولما صار في الموسكى قال وكأنما يزيج كابوسا عن صدره :
— وجدت حميدة يا حسين ..

فلاح الاهتمام في العينين الصغيرتين وسأله :
— أين ؟

— ألا تذكر امرأة العربى التى عدوت وراءها أمس وسألتنى عنها اليوم دون أن تظهر منى بجواب شاف ؟ هى حميدة دون غيرها ..

فصاح الشاب بدهشة وسخرية :

— أسكران أنت ؟! .. ماذا قلت ؟

فقال عباس بلهجة جدية شديدة التأثير :

— صدقتى فيما قلت ، هذه المرأة هى حميدة بلحمها ودمها ، وقد عرفتها من

أول نظرة فركضت وراء عربتها كما رأيت ، حتى أدركتها وحادثتها .

فتساءل حسين فى دهشة وإنكار :

— كيف تريدنى على أن أكذب عني ؟!

فتهدد الحلو بأسى ، وراح يروى له ما دار بينهما من حديث دون أن يخفى عنه

شيئا ، والآخر يصغى إليه باهتمام شديد ، حتى ختم حديثه قائلا :

— هذا ما أردت أن أطلعك عليه ، ولقد تردت حميدة فى الهاوية ولا نجاة لها ،

ولكننى لن أترك المجرم الأثيم بغير عقاب .

وحدجه حسين بنظرة طويلة احتار فى تفسيرها ، وكان الفتى بطبعه مستهترا

قليل الاكتراث ، فأفاق من دهشته بأسرع مما قدر صاحبه ، ثم قال بازدراء :

— حميدة هى المجرمة الأصلية ، ألم تفر معه ؟.. ألم تستسلم له ؟.. أما هو

فماذا نؤاخذ به ؟.. فتاة أعجبتة فغواها . ووجدناها سهلة فنال منها وطره ، وأراد

أن يستغلها فسرحتها فى الحانات ، هذا لعمرى رجل حاذق ، وبودى لو أفعل

مثله حتى تنجاب عنى هذه الأزمة التى أكابدها . حميدة هى المجرمة يا صاح .
وكان عباس يحسن فهم صاحبه ، فلم يداخله شك فى أنه لا يتورع عن شىء
مما ارتكبه غريمه ، ولذلك تحامى عن حكمة ذم الرجل فى سلوكه أو خلقه ،
وعمد إلى إثارة نخوته من سبيل آخر فقال :

— ولكن ألا ترى أن هذا الرجل قد اعتدى على كرامتنا بما يستوجب تأديبه ؟
ولم يغب عنه قوله « كرامتنا » وأدرك أنه يشير إلى الأخوة التى تربطه
بحميدة ، وذكر لتوه شقيقته المطروحة فى السجن بسبب فضيحة مماثلة ،
فاستشاط غضبا وحنقا وزأر صائحا :

— هذا شأن لا يعنينى ، ولتذهب حميدة إلى الشيطان .

ولكنه لم يكن صادقا كل الصدق فيما قال ، ولو كان لقى ذلك الرجل
وقتذاك لوثب عليه كالنمر وأنشب فيه مخالبه ، ولكن الحلو خدع بقولته فصده
وقال له بلهجة لا تخلو من عتاب :

— ألا يفضبك أن يعتدى رجل على بنت من زقاقنا هذا الاعتداء المنكر ؟
أسلم لك بأن حميدة مجرمة حقا ، وأن عمل الرجل فى ذاته لا غبار عليه ، ولكن
أليس هو بالنسبة إلينا اعتداء مشينا يستوجب الانتقام ؟
فصاح حسين بحدة :

— أنت أحق ، ولست تغضب لكرامتك كما تتوهم ، ولكن نيران الغيرة تلتهم
قلبك الخرع ، ولو أن حميدة رضيت بأن تعود إليك لطرت بها فرحا . كيف
لقيتها يا رطل ؟! نازعتها الحديث والشكاة ؟! مرحى . مرحى . حييت من
رجل همام ..! لماذا لم تقتلها ؟! لو كنت مكانك ورمت المصادفات إلى يدي
بالمرأة التى خانتني لخنقتها بلا تردد ، ثم ذبحت عشيقها . واختفيت عن
الأنظار ،.. هذا هو ما كان يجب أن تفعله يا رطل .

وتلبست وجهه الضارب للسواد صورة شيطانية ، فاستدرك مزجرا :

— لست أقول هذا متهربا ، فالحق أن هذا الرجل ينبغى أن يدفع ثمن اعتدائه

وليدفعنه غالبا ، وسنمضى معا فى الموعد المضروب ونوسعه ضربا ، ثم نرصده بمظانه ونوالى ضربه ولو اقتضى الحال أن نحشد له جيشا من الأعوان ، ولا نكف عنه حتى يفتدى بمبلغ كبير من المال ، وبذلك ننتقم ونستفيد معا ..

وسر عباس بهذه النتيجة غير المتوقعة ، وقال بحماس :

— نعم الرأى هو .. حقا أنت رجل الملمات ..!

وسره الشاء ، ومضى يفكر فى تنفيذ خطته مدفوعا بغضب لكرامته ، وميله الطبيعى إلى العدوان ، وطمعه فى الحصول على مبلغ من النقود ، ثم غمغم بصوت ملئه النذير « ما يوم الأحد بيعيد! » وبلغا عند ذاك ميدان الملكة فريدة فتوقف عن المسير وهو يقول :

— عد بنا إلى حانة فيتا ..

ولكن الآخر تشبث بذراعه وهو يقول :

— أليس من الأفضل أن نمضى إلى الحانة التى سنلقاه بها يوم الأحد لتعرف

الطريق بنفسك ؟

وتردد حسين لحظات ، ثم سار معه كما أراد وقد حثا الخطا . وكانت الشمس قد مالت للمغرب ، ولم يكد يبقى من نورها إلا ظلال خفيفة ، وشمل السماء ذلك الهدوء الحالم الذى تخلد إليه إذا تراءت لها طلائع الظلام . واشتعلت مصابيح الطريق واطرد سبل السابلة لا يعبئون اختلاف الليل والنهار . ودوى سطح الأرض على غير انقطاع ، فمن جعجعة الترام إلى أزيز السيارات ، ومن نداء الباعة إلى نفخ الزمارات غير همهمة البشر ، فكأنهما بخروجهما من المدق إلى هذا الطريق قد انتقلا من المنام إلى يقظة صاحبة . وارتاح عباس الحلو وانقشعت الحيرة التى غشيت طويلا فعرف سبيله بفضل صاحبه الجرىء القوى ، أما حميدة فقد ترك أمرها معلقا للظروف المجهولة تفصل فيه بما تشاء ، ولم يستطع أن يبت فيه برأى ، أو أنه أشفق من البت فيه برأى حاسم . وقد خطر له لحظة أن يفتح صاحبه ببعض خواطره ولكنه ما كاد يخلص إلى وجهه الأسود نظرة حتى غاص

الكلام فى حلقة فلم ينبس بكلمة . وواصل السير حتى بلغا موقف الأمس الذى لا ينسى فلكر عباس صاحبه وهو يقول :
— هاك دكان الأزهار الذى حادثها فيه .

ونظر حسين إلى الدكان الذى يشير إليه صامتا ، ثم سأله باهتمام .
— وأين الحانة ؟

فأومأ له إلى باب غير بعيد وهو يغمغم « ها هى ذى » ، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحص المكان وما يحيط به بعينه الصغيرتين الحادثين ، ونظر عباس الحلو إلى داخل الحانة وهما يمران بها فجذب عينيه منظر غريب . ندت عنه شهقة ، وتصلبت عضلات وجهه ، ثم جرت الحوادث سريعة قبل أن يفقه لها حسين كرشة معنى . رأى حميدة فى جلسة شاذة بين نفر من الجنود ، كانت تجلس على كرسى وإلى ورائها جندى واقفا يسقيها خمرا من كأس فى يده ، ينحنى عليها قليلا وتميل هى برأسها إليه وقد مدت ساقها على حجر آخر يجلس قبالتها ، وحف بهم آخرون يشربون ويعربدون . بهت الفتى وتسمر فى موقفه ، ونسى ما كان علمه من مهنتها ، وكأن الخطب يدهمه على غير علم به ، وطمس الدم الفائر بصيرته ، فلم يعد يعرف غريما له فى دنياه سواها ، واندفع إلى الحانة كالجنون وصاح بصوت كالرعد :

— حميدة ..

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسى ، وحملت فى وجهه بعينين ملتهبتين ، وغلبتها الدهشة ثوانى ، ثم ثابت إلى رشدها وقد هالها ما يتهددها به حمقه من الفضيحة ، فصاحت به بصوت خشن فظ جعله الغضب كالزئير :

— لا تبق هنا لحظة واحدة .. اغرب عن وجهى ..

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النفط بالنار فجنى جنونه ، واختفى من نفسه ما طبع عليه من تهيب وتردد ، ووجد أخيرا ما عاناه فى الأيام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثقبا فى رجل نفسه ، فانطلق منه صارخا ، مصفرا

مجنونا ، ولمح إلى يساره بعض زجاجات الجعة الفارغة على طاولة الحانة ، فتناول واحدة وهو لا يدرى ما يفعل وقذفها صوبها بكل ما يملك من قوة وغضب وقنوط ، فى سرعة خاطفة لم يستطع أن يمنعها أحد ، لا من الجنود ولا من عمال الحانة ، فأصابته الزجاجاة وجهها ، وتفجر الدم غزيرا من أنفها وفمها وذقنها ، وامتزج بالأدهنة والمساحيق وسال على عنقها وفستانها . واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين ، وانقض عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر ، وتطايرت اللكمات والركلات والزجاجات ..

ووقف حسين كرشة على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدي والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعا . وكلما تلقى ضربة هتف صارخا « يا حسين .. يا حسين » ، ولكن الفتى الذى لم ينكص عن خوض معركة فى حياته لبث متسمر لا يدرى كيف يشق سبيله إلى صاحبه وسط أولئك الجنود الكواسر الفاتكين ، وتملكه الغضب ، واشتعلت ب صدره ثورة جائحة ، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة عله يجد آلة حادة أو عصا أو سكيما . وبقي مقهورا مغلوبا على أمره ، وقد مضى السابلة يتجمعون عند مدخل الحانة متطلعين للمعركة بأعين فزعة وأيد مغلولة ...

أضاء الصباح بجنبات الزقاق . وألقت الشمس شعاعا من أشعتها على أعلى جدران الوكالة ودكان الحلاق . وغدا سنقر صبي القهوة فملاً دلو ورش الأرض . وكان المدق يقلب صفحة من صفحات حياته الرتيبة ، وأهله يستقبلون الصباح بهتافهم المحفوظة . وفى هذه الساعة الباكرة ينشط عم كامل على غير عادته فيقف أمام صينية البسبوسة يحف به صبية المدرسة الإلزامية ويمتلئ جيبه بالملايم ، وفى

مواجهته أكب الحلاق العجوز على المواسى يشحذها ، ومضى جعدة الفران يحمل العجين من البيوت ، وأقبل العمال على الوكالة يفتحون أبوابها ومخازنها ويخرقون السكون النخيم بجلبتهم التى لا تنقطع طوال النهار ، بينما تربع المعلم كرشة وراء صندوق المراكات فى جلسة حاملة يقضم شيئاً بشنيتيه ويلوكه فى فمه ثم يعتصره بقدرح من القهوة ، وقد جلس على كئب منه الشيخ درويش فى صمت وغيبوبة . وفى هذه الساعة الباكرة أيضاً تلوح الست سنية عفيفى فى نافذتها ، تشيع زوجها الشاب وهو يغادر الزقاق فى طريقه إلى القسم . هكذا تطرد الحياة فى المدق على وتيرة واحدة إلا أن يقلقها اختفاء فتاة من فتيات أو ابتلاع السجن لرجل من رجاله ، لكن سرعان ما تنداح هذه الفقاعات فى بحيرته الهادئة أو الراكدة ، فلا يكاد يأتى المساء حتى يجر النسيان ذيوله على ما جاء به الصباح . أضواء الصبح والزقاق يستقبل هذه الحياة الهادئة المطمئنة ، ولما أن أقبل الضحى جاء حسين كرشة مكفهر الوجه ملتهب الجفون من عدم النوم ليلة كاملة يضرب الأرض بخطوات ثقال ، فمضى إلى مجلس أبيه وارتمى على كرسى لقاءه ، وهو يقول بصوت غليظ دون تحية أو سلام :

— قتل عباس الحلوى يا أبى ...

وكان المعلم قد أوشك أن ينتهره لقضائه الليل خارج البيت ، فلم ينبس بكلمة ، وحملق فى وجهه بعينين ذاهلتين ، ولبت لحظات جامدا ساهما كأنه لم يفهم ما ألقى على سمعه ، ثم سأل بانزعاج شديد :

— ماذا قلت ؟

وكان حسين ينظر فيما أمامه بعينين شاردتين فقال بصوت أجش :

— قتل عباس الحلوى ! قتله الإنجليز ! ..

وازدد الفتى ريقه ثم أعاد على أبيه ما حدثه به عباس وهما يسيران فى الموسكى

قبيل مغيب أمس ، وقال بصوت حاد مضطرب :

— وقد مضى لى ليرينى الحانة التى وعدته إياها الفتاة الشريرة ، وإنا لثمر بياها

إذ رأى العاهرة تعربد في جمع من الجنود ، ففقد وعيه واندفع إلى داخل الحانة ورمها بزجاجة في وجهها قبل أن أتبه لقصده ، وهاج الجنود وانقضوا عليه عشرات وعشرات وأوسعوه ضربا حتى سقط بينهم لا حراك به .
و كور قبضته وقرض أسنانه قائلا بغضب :

— يا للشيطان !. ما كان بوسعى أن أخف إلى نجدته !.. حالت دون ذلك
جموع الجنود الكثيفة التي سدت الباب سدا .. آه لو بلغت يدي عنق جندي من أولئك الملاحين ..

وكان هذا ما يحز قواده حزا ، وما يشب في صدره نار الغضب من غير انقطاع ، حتى لقد انقلب إلى الزقاق يكاد يستخفى من الخزي والعار ، أما المعلم كرشة فقد ضرب كفا بكف وقال :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ، وماذا فعلتم به ؟

— جاءت الشرطة بعد نفاذ القضاء ، وضربوا حول الحانة حصارا ، وما عسى أن يفيد الحصار ؟ ، وحملوا جثته إلى قصر العيني ، ونقلوا العاهرة إلى الإسعاف ..

فسأل المعلم باهتمام :

— وهل قتلت ؟ ..

فأجاب الشاب والحقد يأكل رأسه :

— لا أظن .. لا أظن الضربة كانت قاتلة ..! ضاع الفتى هدرا .

— والإنجليز ؟

فقال الشاب بلهجة أسيفة :

— تركناهم والشرطة تحيط بهم . ولكن من ذا يستطيع أن ينال منهم حقا ؟
فضرب المعلم كفا بكف مرة أخرى وقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، وهل علم أهل الفتى بالخبر الأسود ؟. اذهب إلى

خاله عم حسن القباقيبي بالخرنفش وأذنه بموته . والله يفعل ما يريد .

ونفض حسين يغالب تعبته وإعياءه وغادر القهوة . وذاع الخبر ، وأعاد المعلم كرشة القصة التي رواها ابنه مرات ومرات على السائلين ، فتناقلتها الألسن ، وزادت عليها ما شاء لها الهوى ، وجاء عم كامل القهوة مترنحا وقد دهمه الخبر فصعقه وارتمى على أريكة وراح يبكي بكاء مرا وينتحب كالأطفال ، ولا يكاد يصدق أن الفتى — الذى أعد له كفنا — لم يعد من الأحياء . ونمى الخبر إلى أم حميدة فغادرت البيت مولولة حتى قال بعض من رآها إنها « تبكى على القاتل لا القاتل ! » وكان أشد الناس تأثرا السيد سليم علوان ، لا حزنا على الفقيد ، ولكن فزعا من الموت الذى اقتحم عليه الزقاق فأثار مخاوفه وضاعف آلامه ، فعاودته أفكاره السوداء ، وتصوراته المريضة ، وأخيلة الاحتضار والموت والقبر التى نهكت أعصابه . واستحوز عليه القلق فقامت قيامته ونبا به مجلسه ، وجعل يروح ويحيى فى الوكالة ، أو يخرج إلى الزقاق فيلقى نظرة زائغة على الدكان الذى كان دكان الحلو أعواما طويلا . وكان أعفى نفسه — لشدة الحرارة — من شرب الماء الدافئ . فأمر العامل المكلف بخدمته بأن يدفع له ماء للشرب كما كان يفعل فى الشتاء ، وقضى تلك الساعة نهبا للخوف والقلق وبكاء عم كامل يصك مسامعه صكا ..

وانداحت هذه الفقاعة أيضا كسوابقها ، واستوصى المدق بفضيلته الخالدة فى النسيان وعدم الاكتراث ، وظل كدأبه يبكى صباحا — إذا عرض له البكاء — ويقهقه ضاحكا عند المساء ، وفيما بين هذا وذاك تصر الأبواب والنوافذ وهى تفتح ثم تصر كرة أخرى وهى تغلق . ولم يحدث فى هذه الفترة أمر ذو بال . اللهم إلا ما كان من إصرار الست سنية عفيفى على إخلاء الشقة التى كان يقطنها الدكتور بوشى قبل سجنه ، وما كان من تطوع عم كامل بنقل أثاثه ومعداته الطبية إلى شقته ، وقيل فى تفسير هذا أن عم كامل أثر إشراك الدكتور فى مسكنه على الوحدة التى لم يألّفها ، ولم يعاتبه أحد فى ذلك ، بل لعلمهم عدوها له من المكرمات ، لأن السجن لم يكن مما يشين المرء فى المدق .

وتحدثوا في تلك الأيام عن اتصال أم حميدة بابنتها التي دخلت في طور النقاهاة والشفاء ، وعما تحلم به المرأة من جنى بعض ثمار هذا الكنز المترع . ثم ثار اهتمام الزقاق فجأة حين سكنت أسرة أحد القصابين شقة الدكتور بوشي ، وكانت مكونة من القصاب وزوجه وسبعة من الأطفال وفتاة حسناء . قال حسين كرشة عنها إنها كفلقة القمر . ولكن عندما اقترب موعد عودة الحاج رضوان الحسيني من الأقطار الحجازية لم يعد يفكر أحد إلا في هذا اليوم الموعود ، وقد علقت الثريات والأعلام وفرشت أرض الزقاق بالرمل ، ومنى الجميع أنفسهم بليلة فرح وسرور يدوم ذكرها على الأيام .

ويوما رأى الشيخ درويش عم كامل وهو يمازح الحلاق العجوز ، فهتف وهو يرفع رأسه إلى سقف القهوة .

وما سمى الإنسان إلا لنسيهه ولا القلب إلا أنه يتقلب
فتجهم وجه عم كامل ، وانطفاً لونه ، واغرورقت عيناه . ولكن الشيخ درويش هز منكبيه استهانة ، وقال وعيناه لا تزالان شاخصتين إلى السقف :
من مات عشقا فليمت كمبدا لا خير في عشق بلا موت

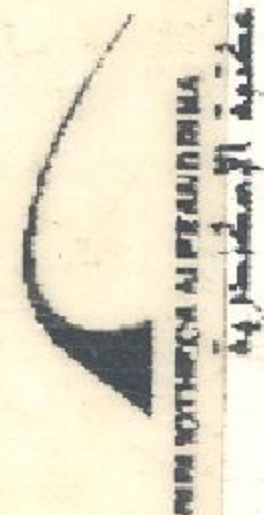
ثم وحوح متهدا واستدرك قائلاً :

— يا ست الستات .. يا قاضية الحاجات .. الرحمة .. الرحمة يا آل البيت ،
والله لأصبرن ما حييت ، أليس لكل شيء نهاية ؟ . بلى لكل شيء نهاية .. ومعناه
بالإنجليزية end وتهجيتها ..end

رقم الإيداع ٣٥٦١
الترقيم الدولي ١ — ١٥٠ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة

Bibliotheca Alexandrina



0294273

الثلث ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه